الإشارات الدالة على الله الذي دبر وقضى وشرع وحكم
من سورة يونس

قال العلماء (أن سبب تسميتها بهذا الاسم أن الآية 99 ذكرت قصة قوم يونس الذين آمنوا فكشف الله عنهم العذاب لما آمنوا ، ولم يأت فيها ذكر يونس ، بينما ذكر يونس في سورة الصافات بأوسع من ذلك ، فوجه التسمية لا يوجبها ، ولذلك يرجح أن يكون وجه التسمية هو تمييزها عن أخواتها من سور المبدوءة بألر)[1] .

وقال ابن عاشور (والأظهر عندي أنها أضيفت إلى يونس تمييزا لها عن أخواتها الأربع المفتتحة بـ "ألر" ، ولذلك أضيفت كل واحدة منها إلى نبي أو قوم عوضا أن يقال : ألر الأولى وألر الثانية ..وهكذا ، فإن اشتهار السور بأسمائها أول ما يشيع بين المسلمين بأولى الكلمات التي تقع فيها) .

ولكن عند التأمل نجد أن هذه السورة اكتظت بالإشارات الدالة على الله تعالى ، فما من أمة إلا وجاءها رسول يدلها على الله ، وقد ضربت السورة لثلاثة نماذج من حياة الرسل نوح وموسى ويونس عليهم الصلاة والسلام ، لتؤكد معنى أن الهداية والضلال بيد الله وحده ، ولا يعلم متى يحين الوقت الذي يهتدي فيه الناس ، ومن منهم لا يهتدي مهما سيقت الآيات وجاءته من عند الله ، فكان نبي الله نوح خير مثال لمن صبر على قومه حتى استبان له عزمهم على رجمه فاستنصر بالله ، فحرك الله له الكون لينجيه ومن آمن معه ، ويهلك الظالمين ، وهكذا استبانت ولايته الله بأنبيائه الذين لا خوف عليهم ولا هو يحزنون

كما ضربت مثلا بنبي الله موسى الذي جابه فرعون وتحداه وتحدى سحرته ، وقد نصره الله عليهم وأبطل سحره وأيده هو وأخاه هارون ونصر بني إسرائيل المستضعفين على فرعون وجنوده ، وأنجاهم وأغرق فرعون الذي لم يؤمن إلا بعد أن عاين العذاب ، فلم ينتفع بإيمانه وقد أضحى ملك الموت –الذي هو جزء من عالم الغيب– جزء في عالم الشهادة ، فهو مضطر للإيمان والتصديق بما شاهدته عيناه ، وقد أغلق قلبه وعقله زمنا عن الإيمان بالله ،وذلك هو مناط الابتلاء ، فمنعه الكبر من أن يقر بالإيمان ، وصار عناده سببا لهلاكه وقومه

أما قصة يونس عليه السلام فكانت على النقيض مما تقدم ، إذ استعجل نبيه الله يونس إيمان قومه ولم يصبر عليهم وتركهم ، فابتلاه الله بالحوت ، فلما رجع إليهم وجدهم قد آمنوا ، وهكذا يعلم الله رسوله محمد ﷺ درس هام من دروس الدعوة الإسلامية ، وأن وظيفته تقتصر على البلاغ ، وليس عليه أن يعد من آمن به ، ويتحسر على من لم يؤمن من قومه ، فمسألة الهداية والضلال بيد الله وحده ، وقد أقام حجته على جميع الخلق ، فالله يهدي من يشاء فضلا ، ويضل من يشاء عدلا .

وقد أشارت السورة في مقدمتها إلى كتاب الله تعالى ووصفته بأنه كتاب حكيم ، وألمحت إلى عجب الكافرين من أن يأتيهم رسول منهم ، مبشرة المؤمنين أن لهم قدم صدق عند ربهم ، ثم التفتت لافتراء الكافرين على النبي ﷺ بأنه ساحر ، لترد على ذلك بالإشارة إلى خلق الله السماوات والأرض واستوائه على العرش وتدبيره الأمر ، **(ذلكم الله ربكم فاعبدوه)** فهو القادر على الخلق وتصريف الكون .

---

[1]) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم : مجموعة من علماء الشارقة مجلد 3 ص 303

كما تكررت الإشارة إليه سبحانه في وسط السورة في قوله **(فَذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ)** ، بعدما استطردت في الحديث عن من يرجو لقاء الله سبحانه ، ومن رضي بالحياة الدنيا واطمأن بها ولم يرجُو لقاء ربه ، الذين طعنوا في القرآن باعتباره منهج الإسلام ، ليحملوا النبي ﷺ على تغييره ليتماشى مع أهواءهم فيشرع لهم ما يحلوا لهم من افتراءات على الله ، فيحلوا حرامه ويحرموا حلاله بأهوائهم ، وهذا من مكرهم لكن الله تعالى أسرع منهم مكرا ، وقد سبقهم في ذلك قرون أرادوا فعل مثل صنيعهم فأهلكهم الله تعالى ، وذلك جزاء المفترين على الله الكذب ، **(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا)** ، وقد ذكرهم الله تعالى بالحشر أكثر من مرة لكي يرتدعوا عما يقولون ، ويؤكد أن لكل أمة رسول ، فلن يقضي الله بينهم إلا بعد أن يقيم الحجة عليهم .

وقد جاء الخطاب للناس كافة مبينا لهم قدر الموعظة التي جاءتهم من الله تعالى ،بأن القرآن فيه شفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين **(قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ)** ، كما جاءت البشرى عظيمة للذين يستمسكون بهذا الكتاب ويؤمنون به **(أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ)** .

ثم انتقلت السورة لحكاية قصص المرسلين لتؤكد نجاة المؤمنين وهلاك المكذبين المفترين ، فقصت حكاية **نوح** عليه السلام وقصة **موسى** وكيف أنه انتصر رغم قوة فرعون وسحره وباطله ، ولكن الله أبطله ، وأغرق فرعون ونجا موسى ومن معه ، وكذلك حكايتها لقصة نبي الله يونس مع قومه ، لما نفعها إيمانها بعدما غاب عنهم نبيهم .

واختتمت بدرس تربوي للنبي ﷺ ومن سلك دربه موصية لهم بالتزام منهج الله والصبر على قومهم ، **(وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىَ يَحْكُمَ اللّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ)** .

محاور السورة الرئيسية

بتتبع الإشارات إلى الله تعالى تلك التي وردت في السورة نجد أنها قد امتلأت بها من أولها لآخرها ، ففاتحة السورة تحدثت عن دحض الإشارات الكونية لافتراءات الطاعنين ثم ها هي محاور السورة ثمانية :-

- ابتلاء الله أهل الغفلة بالضر قبل الإهلاك العام وإعادة الاستخلاف
- قضاء الله في الطاعنين في القرآن
- تصوير الله لمشهد مكر الإنسان حال الاضطرار وانقلابه علي ربه حال النجاة
- عقد الله مقارنة بين أتباع الحق المهتدين ، وأتباع الظن الضالين بشركهم ، من حيث جزاء الفريقين وقدرة المعبود
- حفظ الله القرآن ، ومذاهب الكفار في التعامل معه
- سرعة انقضاء الدنيا وكأنها ساعة من نهار ، هو ما كان يستعجله الظالمون
- بيان وظيفة القرآن ، وفرح أولياء الله به، وتعاسة المفترين علي الله الكذب
- المنهج الدعوي لأهل الولاية في تحرير الناس من عبادة غير الله وإنجاء المؤمنين

ثم خاتمة السورة : وصايا إلهية لنبي الأمة ومن اتبعه

وفيما يلي ذكر للآيات الدالة على هذه الإشارات : -

(تِلْكَ آيَاتُ **الْكِتَابِ**)	(**وَاللَّهُ** يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ)	(أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ **اللَّهِ** لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)
(إِنَّ **رَبَّكُمُ اللَّهُ** الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ	(**فَزَيَّلْنَا** بَيْنَهُمْ)	(إِنَّ الْعِزَّةَ **لِلَّهِ** جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)
فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ	(فَكَفَى **بِاللَّهِ** شَهِيدًا)	(أَلَا إِنَّ **لِلَّهِ** مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ)
(مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ **إِذْنِهِ**)	(وَرُدُّوا إِلَى **اللَّهِ** مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ)	(**هُوَ الَّذِي** جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا)
(**ذَلِكُمُ اللَّهُ** رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)	(قُلْ **مَنْ يَرْزُقُكُمْ** مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ)	(**هُوَ الْغَنِيُّ** لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)
(**إِلَيْهِ** مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا)	(**وَمَنْ يُخْرِجُ** الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ)	(فَعَلَى **اللَّهِ** تَوَكَّلْتُ)
(**هُوَ الَّذِي** جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا)	(**فَذَلِكُمُ اللَّهُ** رَبُّكُمُ الْحَقُّ)	(إِنَّ **اللَّهَ** سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ)
(لِآيَاتٍ لِقَوْمٍ **يَتَّقُونَ**)	(كَذَلِكَ حَقَّتْ **كَلِمَةُ رَبِّكَ**)	(وَيُحِقُّ **اللَّهُ** الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ)
(إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ **لِقَاءَنَا**)	(قُلِ **اللَّهُ** يَهْدِي لِلْحَقِّ)	(إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ **بِاللَّهِ** فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ)
(سُبْحَانَكَ **اللَّهُمَّ**)	(إِنَّ **اللَّهَ** عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ)	(قَالَ قَدْ **أُجِيبَتْ** دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)
(فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ **لِقَاءَنَا**)	(**وَرَبُّكَ** أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ)	(إِنَّ **رَبَّكَ** يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)
(قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ **لِقَاءَنَا**)	(إِنَّ **اللَّهَ** لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا)	(وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ **اللَّهِ**)
(**سُبْحَانَهُ** وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)	(قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ **اللهِ**)	(كَذَلِكَ حَقًّا **عَلَيْنَا** نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ)
(فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ **لِلَّهِ**)	(إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ **اللَّهُ** شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ)	(وَلَكِنْ أَعْبُدُ **اللَّهَ** الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ)
(قُلِ **اللَّهُ** أَسْرَعُ مَكْرًا)	(أَلَا إِنَّ **لِلَّهِ** مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)	(وَإِنْ يَمْسَسْكَ **اللَّهُ** بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ)
(**هُوَ الَّذِي** يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)	(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ **رَبِّكُمْ**)	(وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ **اللَّهُ** وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (109)
(دَعَوُا **اللَّهَ** مُخْلِصِينَ)	(قُلْ بِفَضْلِ **اللَّهِ** وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)	
(**إِلَيْنَا** مَرْجِعُكُمْ)	(قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ **اللَّهُ** لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ)	
(أَتَاهَا **أَمْرُنَا** لَيْلًا أَوْ نَهَارًا)		

فاتحة سورة يونس

دحض الإشارات الكونية لافتراءات الطاعنين

قال تعالى (الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (1) أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ (2) إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ (3) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ (4) هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (5) إِنَّ فِي اخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ) (6)

قوله (الر) حروف مقطعة بها مد حرفي مخفف ، وهي ضمن سور الراءات الخمس أو الست إذا اعتبرنا أن سورة الرعد وقد ابتدأت بـ ألمر ضمن الراءات الست ، والتي تسمى ببستان القرآن وتليها سورة النحل ، فكأنها بساتين والنحل يرعى فيها .

وحرف الألف ابتداء ، وحرف اللام من حروف الرخوة التي فيها انحراف وتوسط أي يجري معه الصوت عند النطق به، ولكنه ليس من الحروف الرخوة المحضة، بل فيه صفة التوسط ، بمعنى أن الصوت لا يجري فيه بشكل كامل كما في الحروف الرخوة المحضة، ولا ينحبس انحباسًا كاملاً كما في الحروف الشديدة ، وكذلك حرف الراء فيه انحراف ، وتوسط ، وفيه إذلاق وانفتاح واستفال ، فاللسان ينخفض عن الحنك الأعلى عند النطق به ، وهذه الصفات توحي في الإحساس بأن ثمة شيء يُشار إليه وعلامة يُهتدى بها .

ففي هذا البستان من سور القرآن نجد نوع من الزهور يشير بلونه الزاهي ورائحته الزكية على أن الله خالقه ، وأنه سبحانه إليه مرجعنا وهو الذي يجب أن ندعوه بإخلاص ، ونطمئن أن أولياءه في كنفه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، وأن العزة له ، وأن التوكل عليه ، وأنه يحق الحق بكلماته ، وأنه ينج المؤمنين .

قوله (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ) أشار الله تعالى إلى ذاته العلية بالإشارة إلى كتابه الحكيم لأن الكتاب المسطور يدل على الله تعالى ، **ويُشار إليه بدلالة النقل والعقل معا** ، وبهذه الإشارة ينفتح القلب للتفكر في خلق الله وقدرته سبحانه .

ووصف الكتاب بالحكيم لا يزايله ، ولا يتخلف عنه أبدا ، فالحكمة مُتَضَمَّنَة فيه ، فهو كتاب **مشتمل على الحِكَم البالغة** ، (الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ) (هود 1) ، فالحكمة ضالة كل مؤمن ، أينما وجدها قصدها ، ومعنى ذلك أن **المسلم يتدبر آيات الله التي تضمنت الحكمة ، وذلك يكفيه** عن بذل المجهود للبحث عن الحكمة ، وهي موجودة عنده في كتاب الله ،وإنما عليه أن يستخرج منه اللآلئ والدرر .

يقول الدكتور أيمن أصلان الخبير تنمية الوعي الإنساني[1] (بين تكوين النص وتمكينه يقف العالم كله بين مفترق طرق، وينقسم في مذاهبه المعرفية ومن ثم إدراكه للوجود وتكوين نظرياته لفهم الكون والوعي بنفسه ومصيره واتخاذ سبل النجاة نحو حياة أفضل (ن والقلم وما يسطرون) أقسم الله- سبحانه- بما نسطره، وما نسطره سيكون في النهاية نصا مركزيا في فهم الكون والوجود

والفرق الجوهري والعميق بين المسلمين وغيرهم هو مفهوم العلم أي ماذا يمكن أن يسمى علما، وهم يسمونه بالحقائق والمسلمات، فالعلم هو النص الذي يجب أن نؤمن به ونتحرك من خلاله، ويشكل مرجعيتنا ومصادرنا ويكون منطقياتنا ومبادئنا وأسس علاقتنا بهذا الكون.

والمسلمون قد نزل عليهم النص أي العلم الحق، ووظيفة المسلمين الحقيقية هي العلم بما في هذا النص والمعرفة به وتعقله وفهمه والوعي به ، ..، **فنحن لا نسعى لتكوين النص كما يسعى إليه غيرنا بل نسعى لتدبره وبقدر تدبره وقراءته وتلاوته وترتيله بقدر ما نحيى حياة طيبة** ، وبقدر ما نفلح ونفوز ليس فقط في الدينا بل في الدنيا والآخرة

أما غير المسلمين فإنهم يسعون إلى تكوين هذا النص، فهم يبدؤون من الفراغ ويجتهدون في ملء هذا الفراغ، ومن ثم فكل ما لديهم من المسطور مشكوك فيه، وهو تحت الدراسة حتى يثبت بالتجربة وغيرها من أدوات الحس المباشرة، فهم في صراع دائم بين الأجيال وما ورثوه من أجل تكوين النص، حتى يمكن أن يكون علما ويشكل الحقيقة

فالمسلمون قد أوتوا النص الذي يمثل مرجعيتهم لفهم الكون والوجود، وغيرهم يسعون لتكوين هذا النص الذي يمكن من خلاله فهم الكون والوجود، وقد أدى هذا الفرق الجوهري إلى اختلاف نظريات المعرفة التي تنشأ من هذين الاتجاهين اختلافا لا يمكن معه أن يكون ثمة وفاق أو اتفاق لا في الغايات والمقاصد ولا في الأدوات والمنهجيات)[2].

ويقول الدكتور يوسف القرضاوي (المسلم يلتمس الحكمة من أي وعاء خرجت ، فالمسلم ليس – كما يتصوره أو يصوره بعض الناس – إنسان متقوقع منغلق على نفسه، قد وضع على عينه غشاوة فلا يرى شيئًا خارج محيطه، وسد أذنيه فلا يسمع إلا لشيوخه، وأغلق على عقله بقفل محكم، فلا يفتحه لشيء، غير ما لقنه، وإن قام عليه برهان العقل، أو دليل الحس، أو سلطان الواقع.

إن المسلم الحق قد تعلم من كتاب الله ومن سنة رسول الله أن الحق يلتمس في آفاق الكون وفي أغوار النفس، أو في عبر التاريخ كما قال تعالى: (وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ) (الذاريات:20-21)، (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) (فصلت:53)، (أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ) (الأعراف:185).

كما تعلم أن **الحق قد ينطق به غير المؤمنين**، ويؤخذ عنهم، بغض النظر عمن قاله، **فالعبرة بما قيل، لا بمن قال**)[3] ، وليس أدل على ذلك من قصة الشيطان الذي كان يسرق من تمر الصدقة ، وقد أمسك به أبو هريرة رضي الله عنه ، ثم أفلته ، لأنه قال له (إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ مِنْ أَوَّلِهَا حَتَّى تَخْتِمَ الْآيَةَ"اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ

---

[1]) د أيمن محمد أصلان : المملكة العربية السعودي : رئيس تنفيذي لشركة مستدام ، مدير تنفيذي سابق لمركز صناعة القيادات، مدير إدارة إستراتيجية سابق، خبير نمذجة تنموية في الوعي الإنساني وتصميم النماذج المعرفية.

[2] (https://www.new-educ.com/الحكمة-ليست-ضالة-المؤمن/

[3]) https://www.al-qaradawi.net/new

الْقَيُّومُ"وَقَالَ لِي لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنْ اللَّهِ حَافِظٌ وَلَا يَقْرَبَكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ وَكَانُوا أَحْرَصَ شَيْءٍ عَلَى الْخَيْرِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطِبُ مُنْذُ ثَلَاثِ لَيَالٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ لَا قَالَ ذَاكَ شَيْطَانٌ)[1]

قوله (أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ...) (2) لفظ (أَكَانَ) استفهام استنكاري يفيد **التعجب من حال كفار قريش أن عجبوا من نبوة محمد** ﷺ لا لشيء إلا أنه رسول منهم ، **وحجتهم** في ذلك أنه ليس بأغناهم مالا ولا أكثرهم ولدا ولا أعلاهم نسبا ، فاستبان بذلك أن عجبهم واستنكارهم لنبوته نابع من الغيرة والحسد اللذان يفسدان عمل القلب ، ويوغلان في الصدر حقد الإنسان على غيره ، قال تعالى (**أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ** فَقَدْ آتَيْنَآ آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا) (النساء 54) فلم يكن منشأ كفرهم عدم معرفتهم بالحق ، فذلك يسهل إزالته بتعريفهم به ، بل كان مبدؤهم الغيرة من الرسول أن يتقدمهم ويتبوأ مكان القيادة عليهم ، فحسدوه أن علا شأنه بينهم ، ووجدوا في محبة قومه له واتباع الناس له دونهم ما أخرج أضغانهم ، **فالكافر حاسد** ، يريد أن يرى نعمة الله التي تفضل الله بها على غيره معه ، وليس هو أحق بها منه .

قوله (...أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ..) سبق الأمر بالنذارة –هنا– البشارة ، وذلك على خلاف العادة ، كما في قوله تعال ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ [الأحزاب45] ، لأن السياق –هنا– يتحدث عن عجب الذين كفروا من الوحي والرسالة استكبارا ، فعجبهم من قبيل الاستهزاء ، والتحفيز للصد عن سبيل الله ، ولذلك سهل عليهم إلقاء الفرية عليه ﷺ بأنه ساحر ليصرفوا الناس عنه ، **فوجب إنذارهم** حتى يقفوا من الدعوة الإسلامية — علي الأقل– **موقف المحايد** المتأمل وليس المهاجم بعصبيته الجاهلية دون تبصر وفهم .

فالنذارة لون واضح في هذه السورة وتكرر في أكثر من موضع ، على النحو التالي : –

- (إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ) (أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)
- (إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ)
- (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ)
- (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ).
- (إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ)
- (كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).
- (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ)
- (قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ)
- (قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ)

[1]) رواه البخاري ج8 ص 102

- وتأمّل وصف الله لهم (لا يرجون لقاءنا) وقد تكرر هذا الوصف مرارا في هذه السورة وهو منهج أصيل في ردْع الإنسان عن كل زلل و خطأ، لأن هؤلاء لو خافوا لقاء الله لما كفروا وجادلوا في الحق
- (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ)
- (كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ)

قوله (..وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ[1] عِندَ رَبِّهِمْ..) (2) البشارة هنا أتت في سياق تكذيب الكافرين بدعوة النبي ﷺ ، والمخصوص بها الذين آمنوا ، فهم يستحقون تلك البشارة لتكون سببا في تثبيتهم على الحق ، وقد كذبهم قومهم ، فعن ابن عباس قال عن هذه البشارة (**سبقت لهم السعادة في الذِّكر الأَوّل**)[2] ، أي أن الله كتب لهم في القدر الأزلي أن لهم السعادة في الدار الآخرة ، أي أن لهم بشارة بالجنة لقولهم لا إله إلا الله [3]، قال الشيخ باسم الجرار في هذه الآية (وما تقدموه من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا)[4] ، والمعنى أنهم قدموا العمل الصالح ولن يبخس الله حقهم ، بل هو محفوظ عند الله وعدا حقا كما قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (لقمان 8) خَالِدِينَ فِيهَا **وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا** وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (لقمان 9).

قال ابن القيم (وحقيقة القدم **ما قدموه وما يقدمون عليه** يوم القيامة ، وهم قدموا الأعمال والإيمان بمحمد ويَقْدِمون على الجنة التي هي جزاء ذلك، ..فهو الجنة عند الرب تبارك وتعالى ، ووصف ذلك كله **بالصدق** مستلزم ثبوته واستقراره ، **وأنه حق** ودوامه ونفعه وكمال عائدته فإنه **متصل بالحق** سبحانه كائن به وله ، فهو صدق غير كذب وحق غير باطل ودائم غير زائل ونافع غير ضار)[5]

فالجزاء من جنس العمل ، والله صادق في وعده ، ولذلك أشارت الآية إلى الصدق باعتباره العمل الذي يتقدم أعمال المؤمن ، كما في قوله (**وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ**) (الزمر 33) ، فهذه الصفة ملازمة للمؤمن ، فعَنْ صَفْوَانَ بْنِ سُلَيْمٍ أَنَّهُ قَالَ قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ **أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ جَبَانًا** فَقَالَ نَعَمْ فَقِيلَ لَهُ أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ بَخِيلًا فَقَالَ نَعَمْ فَقِيلَ لَهُ **أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ كَذَّابًا فَقَالَ لَا**)[6] .

فلا يجوز للمسلم أن يكذب إلا عند الضرورة وبقدرها ، ويكون ذلك في أحوال ثلاث فحسب ، فعَنْ أُمِّ كُلْثُومٍ بِنْتِ عُقْبَةَ أَنَّهَا قَالَتْ (رَخَّصَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ **الْكَذِبِ فِي ثَلَاثٍ فِي الْحَرْبِ وَفِي الْإِصْلَاحِ بَيْنَ النَّاسِ وَقَوْلِ الرَّجُلِ**

---

1) في القرآن : لسان صدق ، مبوأ صدق ، مقعد صدق

[2]) تفسير الطبري ج15 ص 15

[3]) د مصطفى العدوي :

https://www.youtube.com/watch?v=u1PvBCaav 70

د أسامة الأزهري :

: https://www.facebook.com/watch/?v=1393590762000883

[4]) د باسم الجرار

https://www.google.com/search

[5]) مدارج السالكين ج2 ص 272

[6]) رواه مالك في الموطأ ج5 ص 1441 رقم 3630 وأعله الألباني بعلة الإرسال ، ذلك أن صفوان بن سليم لم يدرك النبي ﷺ ، فهو من التابعين ، فيحتمل أن يكون سقط من الإسناد راوٍ أو راويان غير الصحابي ، فهذا القول وإن اقتصر نسبه للتابعي ، فهو يدل على مدى ارتباط تلك الصفة بالمؤمن في مفهوم هذا التابعي ، فهو بهذا المفهوم حجة على من يخالفه من الخلف ، فليس معنى عدم صحة نسبة السند إلى النبي ﷺ سقوط السند برمته أوعدم نسبته للتابعي كذلك ، بل هو صحيح نسبته للتابعي ، ولو لم يظن صحته من حيث الدراية ما كان حدث به ، كذلك لا ينبغي إسقاط الاستدلال به في موطن الاستشهاد لمكارم الأخلاق ، لا سيما وقد أمكن الجمع بينه وما يعارضه من حديث الكذب في ثلاث ، كما بينا . انظر ما يعارض هذا الرأي ، وهو رأي الشيخ مصطفى العدوي في صحة هذا الحديث .

لِامْرَأَتِهِ)[1] ، فالأولى لأن الحرب خدعة ، وأما الثانية فلأن الكذب هنا يكون بغرض الإصلاح بين الناس ، بأن يذكر للطرفين المتخاصمين كذبا أن الطرف الآخر يمدحه ويذكره بخير ، وهو لم يمدحه ولكنه يقول ذلك عنه ليحببهما في بعض ، ولا ينقل الذم والسوء وإن سمع ما قاله عنه من سوء ، وإن استشهد به لذكره لا يذكره ، بل يذكر عنه الخير وإن لم يبدر منه ، وأما الثالثة وهي قول الرجل لامرأته أي وهو يداعبها ، كأن يقول لها أنت أجمل نساء العالمين 0

فالعجب ممن يعجب من هذا الدين الذين ينهى عن الأخلاق الذميمة ويحذر منها ، ويأمر بالصدق ، ويتميز أهله بالصدق ، أيرى كل هذا الخير ويقف إزاءه مستنكرا مستهزئا مستعجبا ؟

قوله (..قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ) (2) يقول الكافرون هذا القول ويروجون لهذه الفرية حتى لا يبرز حقدهم وحسدهم للنبي محمد ﷺ ، وهكذا شأن الكافرين في كل عصر ، يبررون كفرهم بإلقاء فرية السحر على كل رسول ، فيتهمونه بالسحر ليحولوا بينه وبين الناس ، وعندئذ يجتنبه الناس اتقاء سحره وشره ،وهكذا يغذون أحقادهم بإفساد النعمة على غيرهم ، ولكن الله لا يصلح عمل المفسدين ، بل يضلهم عن قصدهم وسعيهم ، ويبطل أعمالهم .

قوله (إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ) (3) عندما يعالج القرآن هذه الفرية ، يتغافل عما في نفوسهم من أمراض الحقد والحسد ، ويتجاهل ما يفترونه علي النبي من افتراءات ، ويشغلنا بالقضية الأساسية التي من أجلها نزل الوحي ، وهي توحيد (الله تعالى) وإفراده بالعبودية .

فتشير الآيات إلى الذات العلية الله سبحانه (إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ) فتقديم الخبر (ربكم) على المبتدأ (الله) أفاد القصر فليس هناك رب سواه ، وتشير إلى قدرته في الإيجاد من عدم ، (الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ) فهما أكبر مظاهر الكون ، ولا أحد يقدر أن ينسب الفضل في خلقهما لغير الله سبحانه ، وهو يفعل ذلك على مهل ودون عجل (فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ) ، فمقاليد الأمور بيده .

وقوله (ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ) تأكيد على أنه لا يشاركه في ملكه أحد ، ولا أحد يقدر أن ينازع الله في عرشه ، مهما ادعى لنفسه الألوهية كفرعون وغيره ، بل يستقل الله بنفسه في تدبير شئون خلقه

قوله (يُدَبِّرُ الأَمْرَ) يعني أن الله يدبر أمورهم على غير نسق سبق ، ومظاهر تدبير للشئون خلقه كثيرة ، فهو الذي يقضي لهم الحوائج ،وهو الذي يقدر لهم الخير وما هو أصلح لهم ، فعلى العبد أن يطمئن لتقدير الله وتدبيره ، فذلك أيسر له في معاشه وحياته ، وهو موقن بأن اليد العليا هي التي تدبر له ، ولذلك كان من دعاء الكرب الذي علمه النبي ﷺ لأصحابه (اللهم رحمتك أرجو **ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين وأصلح لي شأني كله** لا اله الا أنت)[2] ،

[1]) رواه أحمد ج55 ص 270 رقم 26018 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة الكاملة ج2 ص 44 رقم 545
[2]) رواه البخاري في الأدب المفرد ج1 ص 244 رقم 701 صحيح كنوز السنة النبوية للألباني ص 15

فتدبير الله للإنسان خير من تدبيره لنفسه ، فالخير فيما اختاره الله ، وعلى العبد أن يذعن لاختيار الله له (وما كان لهم الخيرة) .

قوله (مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ) عَنْ جُبَيْرٍ قَالَ:"مَنْ يَتَكَلَّمُ عِنْدَهُ إلا بِإِذْنِهِ"[1].. وفي ذلك تأكيد على أنه كما أن الله لا يشاركه في التدبير أحد ، فكذلك لم يوكل هو نفسه شيئا من أموره لأحد من خلقه ، ، لا في القدرة ولا في الرحمة ، فما من أحد يقدر على شيء إلا بإذنه ، فمن يعطيه الله رحمة يرحم به غيره أو يشفع بها لغيره ، فإنها لا تكون كذلك إلا بإذن الله

وقد ذُكرت جملة (مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ) بعد قوله (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ) **لإثبات انفراد الله بالتدبير والملكوت** ، والرد على المشركين الذين اتخذوا أصنامهم شفعاء ، لتأكيد المعنى بأن تدبير شؤون الكون لا يحتاج إلى وساطة أو شفاعة ، وأنه لا يجرؤ أحد على الشفاعة يوم القيامة إلا بمشيئته.

وفي قوله (ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ) وتكررت الإشارة إلى الله سبحانه في ذات الآية ، لتشير إلى أنه هو وحده المستحق للعبادة دون غيره ، فتلك هي النتيجة المترتبة على الإيمان به وبتفرده بالملك دون غيره ، قال رسول الله ﷺ **(حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا)** [2] ..

قوله (أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ) استنكار على من يغفل عن عبادته ، وهو المستحق لها جاء بأسلوب الاستفهام التهكمي ، والمعنى إلى متى يظل في هذه الغفلة ؟ ولا يتذكر حق الله عليه .

قوله (إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا) (4) تقديم الخبر شبه الجملة (المجرور) على المبتدأ (مرجعكم) أفاد القصر ، أي المرجع إليه وحده لا إلى غيره، كما في قوله (كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ) (الأعراف 29) ، قال ابن عجيبة (الرجوع يقتضي ابتداء ، والأرواح قبل –حلولها– في –الأجساد– كان لها في مواطن التسبيح والتقديس إقامة ، والغائب إذا رجع إلى وطنه من سفره ، فلقدومه أثر عند مُحبيّه وذويه)[3].

قال الألباني (أجمع أهل العلم أن الله خلق الأرواح قبل الأجساد وأنه استنطقهم وأشهدهم) واستشهدوا بقوله (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ) (الأعراف 172)

عن النبي ﷺ قال : (أخذ الله تبارك وتعالى الميثاق من ظهر آدم بنعمان يعني عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرهم بين يديه كالذر ثم كلمهم فتلا قال ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين إلى آخر الآية)[4]

---

[1]) تفسير ابن أبي حاتم ج7 ص 494
2) رواه البخاري ج9 ص 459 رقم 2644
[3]) البحر المديد ج2 ص 470
[4]) رواه النسائي ج6 ص 347 رقم 11191 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة ج4 ص 158

قوله (وَعْدَ اللهِ حَقًّا) (4)) عندما القرآن يشير إلى الله تعالى يُذكِّر المسلم كذلك بأن المرجع إليه سبحانه ، فليس ثمة شك في لقاء الله تعالى ، فوعده حق ، قال الطبري (معناه: يعدكم الله أن يحييكم بعد مماتكم وعدًا حقًّا)[1]

قوله (إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ) (4) قال الخازن (القادر على خلق هذه الأجسام المؤلفة والأعضاء المركبة على غير مثال سبق ، قادر على إعادتها بعد تفرقها بالموت والبلى ، فيركب تلك الأجزاء المتفرقة تركيباً ثانياً ويخلق الإنسان الأول مرةأخرى وكما لم يمتنع تعلق هذه النفس بالبدن في المرة الأولى لم يمتنع تعلقها بالبدن مرة أخرى)[2]

والإيمان بالله دون الإيمان بالبعث والجزاء واليوم الآخر هو تفريغ للعقيدة الإسلامية من مضمونها ، تماما مثل العقائد الباطلة التي نحت هذا النحو .

قوله (لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ) (4) قال الخازن (إذا ثبت القول بصحة المعاد والبعث بعد الموت كان المقصود منها إيصال الثواب للمطيع والعقاب للعاصي) ، وهو قوله (ليجزي ..) ، إذ لابد من أن يتبع كل ذلك حساب وجزاء سواء للمؤمن بالإحسان أو للكافر بالإساءة .

قوله (وَالَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ) (4) أي وفي مقابلة أن الله جازى المؤمنين الذين عملوا الصالحات أن يجازي الكافرين الذين أسرفوا في المحرمات كشرب الخمر الذي هو كناية عن الترف وعدم الاكتراث بالحقوق ومصالح الناس ، فيجازيهم بشراب من حميم ، كما في قوله (كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاء حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءهُمْ) (محمد 15) .

قوله (هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) (5) بعد التذكير بالميعاد ولقاء الله تعود الآيات لتستأنف الحديث عن قدرة الله في هذا الكون الفسيح ، فليس أدل على ذلك من كشف لمحة من لمحات الكون البديع المعجز ، الدالة على قدرته سبحانه ، فهو القادر على أن يضيء الكون بضوء الشمس ثم يتبعه القمر فيضيء الكون بنور القمر الذي هو انعكاس ضوء الشمس على الأرض ، وهذه الآية تكرر كل يوم ولكن كثير من الناس غافلين عنها .

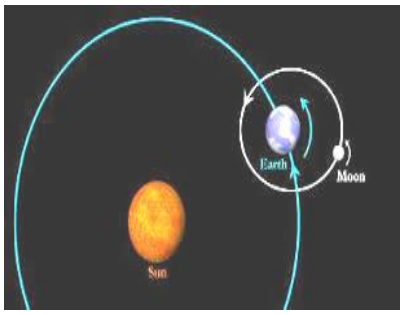

[1]) تفسير الطبري ج15 ص 20
[2]) تفسير الخازن ج3 ص 377

ومن المعلوم أن الأرض تدور حول الشمس في مدار إهليلجي ، وتستغرق حوالي 365.25 يومًا لإكمال دورة كاملة، وهذا ما يسمى بالسنة الشمسية، و في الوقت ذاته يدور القمر حول الأرض في مدار يقارب الدائرة، وتستغرق دورته حول الأرض حوالي 29.3 يومًا ، وهو ما يسمى بالشهر القمري النجمي .

قوله (وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ) فمعلوم أن الله سبحانه جعل للقمر منازل بحسب حركته حول الأرض ، فينكشف بعضه ويختفي بعضه بدرجات متفاوتة ، لنقدر من خلالها أيام الشهر ، حيث يعود ويولد من جديد هلالا ويظل يكبر حتى يكتمل ثم يصغر وينزوي حتى يتلاش ، قال تعالى (وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ) (يس 39)، وهكذا تتكرر هذه الآية كل شهر ، كل ذلك خلقه الله بالحق

قال ابن كثير (فاوت الله بين الشمس والقمر في نورهما وفي شكلهما وفي وقتهما وفي سيرهما فجعل هذا ضياء وهو شعاع الشمس برهان ساطع وضوء باهر والقمر نورا أي أضعف من برهان الشمس وجعله مستفادا من ضوئها وقدره منازل أي يطلع أول ليلة من الشهر صغيرا ضئيلا قليل النور لقربه من الشمس وقلة مقابلته لها فبقدر مقابلته لها يكون نوره ولهذا في الليلة الثانية يكون أبعد منها بضعف ما كان في الليلة الاولى فيكون نوره بضعف النور أول ليلة ، ثم كلما بعد إزداد نوره حتى يتكامل إبداره ليلة مقابلته إياها من المشرق وذلك ليلة أربع عشرة من الشهر ، ثم يشرع في النقص لاقترابه إليها من الجهة الاخرى إلى آخر الشهر فيستتر حتى يعود كما بدأ في أول الشهر الثاني)[1].

وقوله (..لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ..) (5) أشار إلى أن الله سبحانه ما خلق ذلك إلا بتقدير وحساب ، فحالما تدور الأرض حول الشمس دورة واحدة كل عام تتعاقب خلالها فصول السنة الأربعة ، وكذلك بالنسبة لمنازل القمر ، قال تعالى (يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج) [البقرة: 189][2]..

قال ابن كثير (فبالقمر تعرف الشهور وبالشمس تعرف الليالي والأيام وبذلك تعرف السنين والأعوام ، ولهذا قال تعالى (وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شئ فصلناه تفصيلا) [الاسراء12] .

وقوله (..مَا خَلَقَ اللّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ..) (5) أي : (ملتبساً بالحق ، **مراعياً فيه مقتضى الحكمة البالغة** ، لا عبثاً عارياً عن الحكمة)[3] ، أي **ما خلق الله ذلك بتلك الكيفية إلا ليُعرف بأن الخالق هو الله** ، فيستدل بخلقه عليه ،

---

[1]) البداية والنهاية ج1 ص 35
[2]) البداية والنهاية ج1 ص 35
[3]) البحر المديد ج2 ص 471

ومن لم يعرف الله من مشاهدة قدرته وخلقه وإبداعه فقد جهل ، ولذلك يستنكر الله على من تغافل عن يرى الحق ويقر به ، قال تعالى (**أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق** وأجل مسمى وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون).

فكل جرم سماوي يسير في مسار محدد ، ولو اقتربت الشمس من الأرض أكثر من ذلك لاحترقت الأرض ومن عليها ، ولو بعدت الأرض عن مدارها حول الشمس لتجمد الكون كله ، فسبحانه الذي خلق الكون ودبره بحساب دقيق ، حتى استطعنا أن نحسب عدد الأيام والشهور والسنوات من خلال التأمل في تكرار حركة النجوم والأجرام والأرض حول بعضها البعض .

وقوله (..يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) (5) قال القرطبي (**تفصيل الآيات تبيينها ليستدل بها على قدرته تعالى**)[1] ، أي كما أن الله سبحانه يُدوِّر الزمان بفعل حركة الكون ، فإنه قادر –كذلك – على أن يفني هذا الكون ثم يعيده ، فهذا التفصيل لحركة الكون وتدبير الله له ، يستدل منه على أنه قادر على أن (يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ) ، فليس ذلك بعيي عليه سبحانه ، فقد خلقه بالحق وبتقدير محكم ، ودلل على ذلك بالتفصيل كما سبق بيانه .

قوله (إِنَّ فِي اخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ) (6) عزز الله تعالى الأدلة التي تبرهن على البعث من خلال التأمل في آيتي الليل والنهار ، وكيف أنه سبحانه جعلهما يتعاقبان على نسق بديع ، فليس ثمة شك أن الله هو الذي يفعل ذلك .

قوله (..مَا خَلَقَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ..) (6) إبهام مقصود ، ليظل الفكر يتأمل ويتأمل ويبحث عن خلق الله ، فيجد أن ما خلق الله في السماوات والأرض لا يتناهي ، قال تعالى (ويخلق مالا تعلمون) ، فمجرد حصر ما خلق الله يعجز عنه الإنسان ، فكيف يحصر قدرته في الخلق ، أو يعلم قدرته علي التدبير ؟

قوله (..لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ) (6) أي كل تلك الدلائل والبراهين على قدرة الله في الخلق والتدبير لكاف للإيمان بالوحي المنزل من عند الله ، وكاف لإشعار العبد بالتقوى ، فعَنِ الضَّحَّاكِ، فِي قَوْلِهِ: " يَتَّقُونَ " قَالَ:"يَتَّقُونَ النَّارَ بِالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ"[2].

---

[1]) تفسير القرطبي ج8 ص 310
[2]) تفسير ابن أبي حاتم ج7 ص 497

المحور الأول

ابتلاء أهل الغفلة بشيء من الضر قبل الإهلاك العام وإعادة الاستخلاف

قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا **وَرَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا** وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (7) أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ (8) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (9) دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (10) وَلَوْ يُعَجِّلُ اللّهُ لِلنَّاسِ **الشَّرَّ** اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا فِي **طُغْيَانِهِمْ** يَعْمَهُونَ (11) وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ **الضُّرُّ** دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ **ضُرَّهُ** مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (12) وَلَقَدْ **أَهْلَكْنَا** الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا **ظَلَمُواْ** وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (13) ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ **خَلاَئِفَ** فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) (14)

يذكر الله أهل الغفلة الذين انخدعوا بالحياة الدنيا وارتضوها واطمأنوا بها –حتى ظنوا أنهم سوف يعيشون فيها أبدا – بشيء من الضر يصيبهم ليفيقوا من غفلتهم ، أولئك الذي لا يرجون لقاء الله ، ولا يدرون أنه بعد هذا اللقاء يكون الناس لفريقين فريق في الجنة وفريق في السعير ، لكن أهل الغفلة يتجرؤون ويطلبون أن يأتيهم النبي ﷺ بما يهددهم به من العذاب استعجالا واستخفافا به ، فيأتيه الله بشيء من الضر حتى يتذكروا ربه ، ويرفعوا أكف الضراعة له ، ولكنهم بعد أن يكشف الضر عندهم يعودون للإسراف في المعصية ، وكأن شيئا لم يحصل ، فيحق عليهم الهلاك كما حق على الذين ظلموا من قبلهم ، وهنا يستخلف الله قوما غيرها ثم لا يكونوا أمثالهم .

قوله (إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا وَرَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (7) أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ) (8) لا يزال الحديث جاريا في شأن الغافلين عن آيات الله ، ويصفهم القرآن هنا بثلاثة أوصاف:–

أولا: أنهم لا يرجون لقاء الله ، فعن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (**مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ** ، قَالَتْ عَائِشَةُ أَوْ بَعْضُ أَزْوَاجِهِ إِنَّا لَنَكْرَهُ الْمَوْتَ ، قَالَ لَيْسَ ذَاكِ ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ بُشِّرَ بِرِضْوَانِ اللَّهِ وَكَرَامَتِهِ فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ ، فَأَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ وَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ ، وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا حُضِرَ بُشِّرَ بِعَذَابِ اللَّهِ وَعُقُوبَتِهِ فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ وَكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ)[1]

ثانيا : أنهم مفتونون بالحياة الدنيا حتى ارتضوها ، واطمأنوا بها ظنا منهم أنها دار مستقر ، قال الشعراوي (وكأنهم قد اكتفوا بها ولم يرغبوا في الآخرة)[2].

قال مجاهد مثل قوله (**من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوفّ إليهم أعمالهم فيها**) [هود15] [3]، أي أنهم اطمأنوا بها لأن **الله طمأنهم بها استدراجا** ، ليوفيهم أعمالهم فيها حتى إذا لقوا الله لم يجدوا شيئا ، كما في قوله (وَالَّذِينَ كَفَرُوا

---

[1]) رواه البخاري ج20 ص 165 رقم 6026
[2]) تفسير الشعراوي ج1 ص 3854
[3]) الدر المنثور ج5 ص 213 وتفسير ابن أبي حاتم

أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى **إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا** وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ) (النور39).

فتصوير القرآن لحالهم في الدنيا وقد اطمأنوا بها يدل على **الانخداع التام بها والاغترار بما لا يغتر به** ، فعن النبي ﷺ يروي عن ربه جل وعلا قال: "وعزتي **لا أجمع على عبدي خوفين وأمنين** إذا خافني في الدنيا أمنته يوم القيامة **وإذا أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة**"[1] ، قال المناوي (من كان خوفه في الدنيا أشد كان أمنه يوم القيامة أكثر ، وبالعكس وذلك لأن من أعطى علم اليقين في الدنيا طالع الصراط وأهواله بقلبه فذاق من الخوف وركب من الأهوال ما لا يوصف فيضعه عنه غدا ولا يذيقه مرارته مرة ثانية)[2].

فليس من الكياسة الانخداع بالدنيا والغفلة عن الآخرة بل الكيس كما قيل (**الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا ثُمَّ تَمَنَّى عَلَى اللَّهِ**)[3]، قال ابن القيم (وعبر سبحانه من رضى بالدنيا من المؤمنين فقال (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ **اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا** مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ) (التوبة 38) **وعلي قدر رغبة العبد فى الدنيا ورضاه بها يكون تثاقله عن طاعة الله** وطلب الآخرة ، ويكفى للتذكير بواجب الزهد فى الدنيا قوله تعالى (أفرأيت ان **متعناهم سنين** ثم جاءهم ما كانوا يوعدون **ما أغنى عنهم ما كانوا يتمتعون**)[4]، فعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، قال : (الخاسر من عمَّرَ دنياه بخراب آخرته ، **والخاسر من استصلح معاشه بفساد دينه** ، والمغبون حظا من رضي بالدنيا على الآخرة ، وقرأ هذه الآية (..وَرَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ..)[5].

ثالثا : غفلتهم عن آيات الله التي فصلها سبحانه تفصيلا ، الشمس والقمر والليل والنهار ، ودوران الزمان ومرور الآيام والسنون ، قال تعالى ﴿**وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ** ﴾ (يوسف105)

وقال تعالى :﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾ [يونس92]

وقال تعالى ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ...﴾ [الأنبياء1-3]

وقال تعالى :﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف146]

وقال تعالى ﴿ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ [الأنبياء97] .

---

[1]) رواه ابن حبان ج2 ص 406 رقم 640 وحسنه الألباني : الجامع الصغير ج1 ص 779 رقم 7781

2) فيض القدير ج4 ص 649

3) رواه ابن ماجة ج12 ص 312 رقم 4250 وحسنه الألباني : تحقيق رياض الصالحين ج1 ص 50 رقم 67 وأخرجه الترمذي (2459) ، وإسناد الحديث ضعيف لضعف أبي بكر بن أبي مريم.

[4]) الفوائد ج1 ص 96

[5]) الزهد لابن أبي الدنيا : ج1 ص 471 رقم 469

قوله (أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ) (8) هددهم بالنار ، وفي ذلك تشنيع علي حالهم مع الله بأنهم لا يرجون حسابا ،ولا يرجون لقاءه .

قوله (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ) (9) قال البغوي (فِيهِ إِضْمَارٌ، أَيْ: **يُرْشِدُهُمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ إلى جنات)** ، والمفسرون على أن المقصود بالهداية هنا : **هداية والإرشاد والدلالة ثم التوفيق.**

والذي يسبق الهداية هو الإيمان والعمل الصالح ، **فالباء هنا بمعنى السبب** ، أي بسبب إيمانهم يهديهم إلى الجنان ، وبهما يهدي الله أوليائه لرضوانه ، قال تعالى ﴿**يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ** سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة16] .

والسعادة لابد وأن تحصل للمؤمن في الدارين ، في الدنيا بالإيمان وبركة العمل الصالح ، كما في قوله **(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ)** (الأعراف 96) ، فمن يفوته الإيمان تتكدر حياته ضنكا كما قال تعالى **(فمن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا)**[1] ، وفي الآخرة بجنات النعيم .

قال الدكتور محمد الشعال (الإيمان يدل المؤمن على طريق سعادته في الدنيا والآخرة ، وأول معانيها أن يثبتهم ربهم بإيمانهم على الهداية) [2] ، وذلك كله يقود إلى الجنة ، كما في قوله (وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (4) **سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ** (5) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ) (محمد6) ، وقوله تعالى (وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا **زَادَهُمْ هُدًى** وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ)(محمد17) .

وطالما أن المقصود من الهداية هنا معنى خاص ، وهو الإرشاد والتوفيق ، فلا غرو أن يقول مجاهد في قول الله:(يهديهم ربهم بإيمانهم) ، قال: (يكون لهم نورًا يمشون به)[3] ، **فثواب الطاعة أن يرزق العبد طاعة بعدها** ، قال رسول الله ﷺ (إذا أراد الله عز و جل بعبد خيرا عسله قيل وما **عسله** قال **يفتح الله عز وجل له عملا صالحا** قبل موته ثم يقبضه عليه)[4].

قوله (دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (10) استطرد الحديث لوصف حال أهل الجنة بوصف خاص حيث **الانشغال بالدعاء والتحية والسلام** ، فالدعاء هو العبادة ، فأهل الجنة غير منشغلين بفاكهة الجنة ولا نسائها ولا طعامها ، رغم أنهم يتنعمون بذلك حقا ، كما قال النَّبِيّ ﷺ «مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَنْعَمُ لاَ يَبْأَسُ لاَ تَبْلَى ثِيَابُهُ وَلاَ يَفْنَى شَبَابُهُ»[5] ، لكنهم **منشغلون بما هو أحلى من ذلك** قال **(دَعْوَاهُمْ** فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ **وَتَحِيَّتُهُمْ** فِيهَا سَلاَمٌ **وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ** أَنِ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) ، يقول النبي ﷺ " «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ

---

[1]) د أحمد النقيب : https://www.youtube.com/watch?v=aI3B4I8gC6Y
[2]) د محمد الشعال : درس الاثنين : 30 /6/ 2025 ، موقع درر الشعال ، بث مباشر ، https://www.facebook.com/share/v/1ChJZCcnvb/
[3]) تفسير الطبري ج15 ص 28
[4]) رواه أحمد ج4 ص 200 رقم 17819 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة ج2 ص 188 رقم 1114
[5]) رواه مسلم ج8 ص 148 رقم 7335

يَأْكُلُونَ فِيهَا وَيَشْرَبُونَ وَلاَ يَتْفُلُونَ وَلاَ يَبُولُونَ وَلاَ يَتَغَوَّطُونَ وَلاَ يَمْتَخِطُونَ» قَالُوا فَمَا بَالُ الطَّعَامِ قَالَ «جُشَاءٌ وَرَشْحٌ كَرَشْحِ الْمِسْكِ **يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ** كَمَا يُلْهَمُونَ النَّفَسَ» "[1] .

وأما التحية فهي السلام ، قال رسول الله ﷺ (**السَّلَامَ تَحِيَّةَ أَهْلِ الْجَنَّةِ**)[2] ، ذلك أن الجنة لا نصب فيها ولا صخب ، ولا شيء يكدر العيش فيها ، وليس فيها إلا السلام .

وقد ختموا دعواهم بالحمد لله رب العالمين ، بما يدل على **كمال الرضا** ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ فَيَقُولُونَ لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ فَيَقُولُ هَلْ رَضِيتُمْ فَيَقُولُونَ **وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى** وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ فَيَقُولُ أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ قَالُوا يَا رَبِّ وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ فَيَقُولُ **أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا**)[3].

قوله تعالى (وَلَوْ يُعَجِّلُ اللّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) (11) إشكالية الكافر هو **تحدي الله تعالى** ، ذلك أن الكافر لا يقف عند مرحلة إنكار الإيمان فحسب ، إذ لو جاز ذلك لانتهى موقفه إلى التسليم بالإيمان عندما تراءت له دلائل الإيمان ، ولكنه يغفل عن آيات الله لأن عنده إشكالية أخرى ، وهي أنه يتحدى الله تعالى **ويتحدى عقوبته** ، فيستعجل عقاب الله استهزاءً ، كما في قوله (وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ **فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**) (الأنفال 32)، فيتحدى النبي ﷺ الذي أرسله إليه وينذره عذاب الله أن ينزل به ، لكنه لا يبالي به .

قال ابن عاشور (الظاهر أن المشركين كانوا من غرورهم **يحسبون تصرفات الله كتصرفات الناس من الاندفاع** إلى الانتقام عند الغضب اندفاعا سريعا،..وهو إجمال ينبئ بأن الله جعل نظام هذا العالم على الرفق بالمخلوقات واستبقاء الأنواع إلى آجال أرادها ، وجعل لهذا البقاء وسائل الإمداد بالنعم التي بها دوام الحياة)[4].

فقوله (لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ) أي لهلكوا وماتوا جميعا ، قال ابن عاشور (لو عجل لهم ما استحقوه – من العذاب – لبطل النظام الذي وضع عليه العالم) [5]، لكن لكل أجل كتاب ، قال تعالى (**وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ** فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ) (الأعراف 34) .

ولو حصل ذلك ما كانت الدنيا دار ابتلاء ولصارت دار جزاء ، وليس هذا هو الذي قضي الله به في كتابه ،فمراد الله أن يبتلي عباده في دار الدنيا ويجازيهم في دار الآخرة.

---

1) رواه مسلم ج8ص 147 رقم 7331
2) رواه أحمد ج32 ص 149 رقم 19404
3) رواه البخاري ج20 ص 216 رقم 6067
4) التحرير والتنوير ج11 ص 29
5) التحرير والتنوير ج11 ص 30

قوله تعالى (..فَنَذَرُ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) (11) يتحدث الله تعالى عن الذين لا يرجون لقاءه مرة أخرى ، وقد وصفهم هذه المرة بأنهم يستعجلون الشر ، أي عذاب الله ، فهو بالنسبة لهم شر وليس بخير ، وهم **يستحقونه – عدلا – لكن الله تعالى يؤجله – رفقا – بهم** .

والحكمة في أن الله يذرهم ولا يعاقبهم ويمهلهم ولا يعاجلهم رغم أنهم لا يرجون لقاء الله ، وقد انقطعت آمالهم عن الآخرة وصاروا عبيدا للدنيا ، ورغم استمرارهم في المعصية وتلبسهم بها زمنا ليس باليسير حتى طغوا فلا حد يردعهم ، وصاروا إلى مرحلة العمه فأضحوا يرون المنكر معروفا والمعروف منكرا ، بل صاروا يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ، أنهم إذا صاروا لمثل ذلك الضلال **فاستدرجهم الله حتى يأخذهم بعد ذلك بذنوبهم** ، وقد استحقوا العقاب الإلهي بالإهلاك ، وهو ما يدل على أن الله تعالى لا يعاجل عباده بالعقوبة ما لم يستفحلوا في المعصية إلى درجة العمه ، ولم تبدر منهم توبة .

قوله (وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ **دَعَانَا** لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا **كَشَفْنَا** عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ **لِلْمُسْرِفِينَ** مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) (12) بين تعالى حال الإنسان عندما يُبتلى بالضر ، ففي هذا الحال يعرف ربه الذي طالما خاصمه زمنا ، بل ويدعوه مخلصا ، وقد كان قبل ضره لا يؤدي حق ربه في حال الصحة والعافية ، ثم هو في حال الضر يصلي ويدعو ربه قدر استطاعته حتى وإن كان مريضا ، ثم يكشف الله عنه الضر لينظر هل يظل عبده علي طاعة مثلما هو حاله حين أصابه الضر ، فيظل يرفع أكف الضراعة لله تعالى ، وقد تذكر ربه في الشدائد ، أم أنه ينسى ذلك عندما يكشف الله الضر عنه ؟ ولكن الإنسان سريع النسيان .

قال رسول الله ﷺ « احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك أمامك تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة »[1]، وقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْتَجِيبَ اللَّهُ لَهُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَالْكَرْبِ فَلْيُكْثِرْ الدُّعَاءَ فِي الرَّخَاءِ) [2].

قوله (..فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ..) فيه تعجب من سرعة تغير الحال للنقيض حال كشف الضر ، وقبل ثوان حال التلبس بالضر كان شديد الدعاء ، قال الألوسي (في الآية ذم لمن يترك الدعاء في الرخاء ويهرع إليه في الشدة واللائق بحال –المؤمن– الكامل التضرع إلى مولاه في السراء والضراء ، فإن ذلك أرجى للإجابة)[3] .

قال أبو حيان (**ومناسبة هذه الآية لما قبلها** أنه لما استدعوا حلول الشر بهم ، وأنه تعالى لا يفعل ذلك بطلبهم بل يترك من يرجو لقاءه يعمه في طغيانه ، بيّن شدة افتقار الناس إليه واضطرارهم إلى استمطار إحسانه مسيئهم ومحسنهم ، وأنّ **من لا يرجو لقاءه مضطر إليه حالة مس الضر له** ، فكل يلجأ إليه حينئذ ، ويفرده بأنه القادر على كشف الضر)[4].

---

[1]) رواه الحاكم في المستدرك ج3 ص 624 رقم 6304 وصححه الألباني : الجامع الصغير ج1 ص 528 رقم 5272
[2]) رواه الترمذي ج11 ص 238 رقم 3304 وصححه الألباني : صحيح الترمذي ج3 ص 140 رقم 2693
[3]) تفسير الألوسي ج7 ص 450
[4]) البحر المحيط ج1 ص 277

قوله (كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) (يعني من الدعاء عند المصيبة وترك الشكر عند الرخاء)[1] ، حيث إن الإسراف في المعصية يزين للمرء المعاصي فلا ينتهي ، فكلما عصى الله وأسرف كلما تبع ذلك معصية أخرى ، وهكذا يصير حاله إلى أن يزين لنفسه معصية الله ولا ينتهي ، وفي ذلك مقابلة لحال الذين يهديهم الله بإيمانهم .

قال الرازي (**المسرف هو الذي ينفق المال الكثير لأجل الغرض الخسيس** ، ومعلوم أن لذات الدنيا وطيباتها خسيسة جداً في مقابلة سعادات الدار الآخرة ، والله تعالى أعطاه الحواس والعقل والفهم والقدرة لاكتساب تلك السعادات العظيمة ، **فمن بذل هذه الآلات الشريفة لأجل أن يفوز بهذه السعادات الجسمانية الخسيسة** ، كان قد أنفق أشياء عظيمة كثيرة ، لأجل أن يفوز بأشياء حقيرة خسيسة ، فوجب أن يكون من المسرفين)[2].

قوله (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ) (13) علق الله سبحانه هلاك القرون علي حصول الظلم منهم ، فقال (لَمَّا ظَلَمُواْ) فالظلم سبب لهلاك الأمم ، وبالعدل تُقام الدول ، ذلك أن الله يقيم الأمة العادلة وإن كانت كافرة ، لأنه يُرجى فيهم خيرا ، إذ بدا في جاهليتهم العدل ، فهو أرجى أن يؤمنوا على ما سلف من خير ، ولذلك يرجئ الله عقوبتهم حتى يصلحوا حالهم ، وقد أسلم ملك الحبشة وأيد الصحابة وأمَّنهم عنده وكان قبل ذلك نصرايا ، وكان القساوسة يسجدون له ، وقد توسم فيه النبي ﷺ خيرا واستبشر بعدله ، فقاده العدل إلى الإيمان بالله .

عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى النَّجَاشِيِّ وَنَحْنُ نَحْوٌ مِنْ ثَمَانِينَ رَجُلًا فِيهِمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ وَجَعْفَرٌ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُرْفُطَةَ وَعُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ وَأَبُو مُوسَى فَأَتَوْا النَّجَاشِيَّ وَبَعَثَتْ قُرَيْشٌ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ وَعُمَارَةَ بْنَ الْوَلِيدِ بِهَدِيَّةٍ فَلَمَّا دَخَلَا عَلَى النَّجَاشِيِّ سَجَدَا لَهُ ثُمَّ ابْتَدَرَاهُ عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ ثُمَّ قَالَا لَهُ إِنَّ نَفَرًا مِنْ بَنِي عَمِّنَا نَزَلُوا أَرْضَكَ وَرَغِبُوا عَنَّا وَعَنْ مِلَّتِنَا قَالَ فَأَيْنَ هُمْ قَالَ هُمْ فِي أَرْضِكَ فَابْعَثْ إِلَيْهِمْ فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ جَعْفَرٌ أَنَا خَطِيبُكُمْ الْيَوْمَ فَاتَّبَعُوهُ فَسَلَّمَ وَلَمْ يَسْجُدْ فَقَالُوا لَهُ مَا لَكَ لَا تَسْجُدُ لِلْمَلِكِ قَالَ إِنَّا لَا نَسْجُدُ إِلَّا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ وَمَا ذَاكَ قَالَ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بَعَثَ إِلَيْنَا رَسُولَهُ ﷺ **وَأَمَرَنَا أَنْ لَا نَسْجُدَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ**)[3]

والعكس كذلك صحيح فالله تعالى يهلك الأمة الظالمة وإن كانت مسلمة ، ذلك أن حقيقة الإسلام ليس مجرد إعلان الشعائر دون تحقيق مقاصده ، ومن أهم هذه المقاصد إقامة العدل بين الناس.

قوله (..وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ) (13) أي أن الله تعالى لا يهلك الأمم إذا علم فيهم خيرا ، ولكنه لما علم أنهم لن يؤمنوا فإنه يهلكهم ، قال ابن عاشور (وعبر عن انتفاء إيمانهم بصيغة لام الجحود مبالغة في انتفائه إشارة إلى اليأس من إيمانهم)[4]، قال الزمخشري (علم الله أنه **لا فائدة في إمهالهم** بعد أن ألزموا الحجة ببعث

---

[1]) تفسير الخازن ج3 ص 381
[2]) تفسير الرازي ج8 ص 242
[3]) رواه أحمد ج9 ص 203 رقم 4168 السيرة النبوية لابن حبان ج1ص69 ، السيرة البنوية لابن كثير ج2 ص 10 سير أعلام النبلاء للذهبي ج1ص207
4) التحرير والتنوير ج11 ص 36

الرسل)[1]، إذ لو كان في الإمهال رجاء إيمان رجل منهم ، لكان ذلك سببا قويا لإمهالهم ، ولكنهم لما أجمعوا على الكفر والإجرام استحقوا جميعا العذاب ، كما في قوله (وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) (الأنفال 33) ، وقوله (فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ) (الزخرف 41)

قال القرطبي (أي أهلكناهم لعلمنا أنهم لا يؤمنون ، يخوف كفار مكة عذاب الأمم الماضية؛ أي نحن قادرون على إهلاك هؤلاء بتكذيبهم محمدا ﷺ ، ولكن نمهلهم لعلمنا بأن فيهم من يؤمن، أو يخرج من أصلابهم من يؤمن)[2].

وهذا يعني أن الأمم الكافرة فإنها وإن كانت تقيم العدل بين الناس ، فإنها ولاستمرارها في الكفر والعناد تحيد عن العدل رويدا رويدا فيصدر منها الجرم قطعا ، فالعدل إذا لم يؤدي إلى الإيمان ، فلابد أن يصير إلى نقيضه ، ومستلزمات هذا النقيض حصول الظلم منهم مستقبلا ، وإن كان ظاهر حالهم —الآن– التزامهم بالعدل بين الناس ، فإن الكفر سوف يؤدي إلى الظلم ولابد في جيل من الأجيال بالتدريج ، فالدولة أو الأمة الكافرة إذا لم يرَ الله فيهم خيرا ، فإنها تهلك كذلك إذا استمرت في الكفر لأنها تسير بقوانين تخالف السنن الإلهية ، وإن لم يبد منها ظلما لأحد في أول الأمر إلا أن الظلم سيصدر عنها ويطول الناس لأجل ذلك ، فالإيمان يقود إلى العدل ، والعدل أساس الميزان ، والكفر لابد وأن يؤول إلى ظلم ، والظلم يفسد الميزان .

قوله (ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) (14) تأكيد على ما يتْبع سنة الإهلاك من رحمة الاستخلاف ، فإذا أهلك الله قوما استبدل غيرهم بهم ، لعل من يخلفونهم يكونون خيرا منهم ، ذلك أن المال هو مال الله على الحقيقة ، والإنسان مستخلف عليه ، لينظر الله تعالى ما يفعل فيه أيهلكه في الحق أم في الباطل ، وكذلك كل نعمة أنعمها الله تعالى على عباده ، فهو مستخلفهم فيها لينظر هل يشكر الإنسان نعمة الله أم يكفر ؟ .

فعَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ)[3]

فقوله (إن الدنيا حلوة خضرة) يحتمل أن المراد لذتها ونضارتها كالفاكهة الحلوة الخضراء أو سرعة فنائها فإن الفاكهة الخضراء سريعة الذهاب

وقوله (مستخلفكم فيها) أي يجعلكم خلفا من القرن الذي قبلكم)[4]

وقوله (فينظر كيف تعملون) يعني أن الأموال التي في أيديكم إنما هي أموال الله خلقها وخولكم إياها وخولكم الاستمتاع فيها وجعلكم خلفا بالتصرف فيها فليست هي بأموالكم حقيقة بل أنتم فيها بمنزلة الوكلاء فناظر هل تتصرفون فيها على الوجه الذي يرضى به المستخلف أو لا والمراد مستخلفكم فيما كان بأيدي من قبلكم بتوريثكم إياهم فناظر هل تعتبرون بحالهم أو لا وكيفية النظر من المتشابه نؤمن بأنه يصير ولا تشتغل بكيفيته) [5].

---

[1]) الكشاف ج2 ص 500
[2]) تفسير القرطبي ج8 ص 318
[3]) رواه مسلم ج13 ص 286 رقم 4925
4) الديباج على مسلم ج6 ص 84
[5]) فيض القدير ج2 ص 226

المحور الثاني
قضاء الله في الطاعنين في القرآن

قال تعالى (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا **ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ** قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي إِنْ **أَتَّبِعُ** إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (15) قُل لَّوْ شَاء اللّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ **عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ** أَفَلاَ تَعْقِلُونَ (16) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ **افْتَرَى** عَلَى اللّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ (17) وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاء **شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ** قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (18) وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ **أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُواْ** وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (19) وَيَقُولُونَ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ **آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ** فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلّهِ فَانْتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (20)

أهل الدنيا يقفون أمام دعوة الإسلام – وكتاب الله خصوصا – موقف الصاد عن سبيل الله ، غايتهم تبديل شرعه ، تخففا من تكاليفه ، فيسعون إلى تحريف نصوصه ، يساومون أهل الحق على تبديل شرع الله بشرع من عندهم ، ولا يدرون أنهم يستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير ، فتلك نعمة أنعم الله عليهم بها أن أنزل لهم شرعا فيه الهدى لهم والصلاح ، ولكنهم لا يفقهون ، فيزداد تكذيبهم له ، وإجرامهم برسل الله وأنبيائه وأتباعهم ، ويعبدون غير الله تعالى ظنا منهم أنهم وسطاء فيما بينهم وبين الله ، ما يدل على جهلهم الشديدة بعقيدة الإسلام التي تكون فيها الصلة بين العبد وربه مباشرة ، وأن الفطر السليمة تهتدي لله تعالى مباشرة ، ولكن عقائدهم تدنست بأحوال وظروف وملابسات حياتهم في هذه الدنيا ، فحصل الخلاف بينهم في سعيهم في تحقيق مصالحهم ، فتضاربت مصالحهم بقدر تضارب أهواءهم ورغباتهم وآراءهم ومتعقداتهم ، ولولا أن الله برحمته يمهلهم لتواتيهم الفرصة لأن يتفكروا ويهتدوا لأخذهم بعذابه ، ولكنه يؤجل لهم حتى إذا انتهى أجلهم أخذهم بعدله ولا ظلم ، ولكن هؤلاء لا يدركون الفرصة التي منَّ الله عليهم بها ولا يزالون يجادلون في الآيات ، ويقترحون آيات من عندهم ، والوقت يكاد أن ينفد ، حتى إذا جاء الغيب وأضحى يقينا ، لم يستطيعوا بعد ذلك أن يرتدوا للدنيا ، وهنا يؤمنون اضطرارا وكان المطلوب منها أن يؤمنوا اختيارا .

قوله (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ..) (15) عاد الخطاب القرآني للحديث عن الذين لا يرجون لقاء الله ، ولكن من جهة طعنهم في القرآن حيث بينت الآيات كيف أنهم يستقبلون آيات الله بتأفف ورفض تام ، يريدون استبدال هذا الكتاب بكتاب آخر ، حيث تبدو على وجوههم علامات التحدي والغطرسة والاستكبار ، إذ لم يعجبهم ما يتلى عليهم ، أرادوا استبداله لما فيه من دعوة إلى المساواة بين الخلق في الحقوق والحريات والواجبات ، وما فيه من عدل بين الناس ، فهم ينظرون للحياة الدنيا على أساس أنهم هم المفضلون على غيرهم من سائر البشر، وأنهم يملكونها ، ولا ينبغي أن يشاركهم فيها أحد ، بل الجميع أجراء عندهم ، بهذا اطمأنوا أن ملكهم في الدنيا لن يزول بتلك القوانين التي وضعها ، فظنوا أنها تحميهم ، ووجدوا في أحكام الإسلام تهديد مباشر لملكهم وامبراطورياتهم ، رغم استحسانهم للآداب العامة التي ينادي بها الإسلام وبعض الأخلاق ، ولذلك كان ردهم على الدعوة الإسلامية هي قبولها بشرط إقصاء أصحاب النبي ﷺ عنه واستبدالهم بهم ، لتكون لهم الحظوة

والحفاوة مكانهم ، وتغيير المنهج كله باستبداله بقوانين وضعية من اختراعهم تحفظ لهم مكانتهم الاجتماعية وسطوتهم ونفوذهم بين الناس .

فهم بطلبهم هذا يريدون أن يساوموا النبي محمد ﷺ فيجعلونه زعيما لهم بشرط أن يرضيهم في طلباتهم ، فلا يشترط عليهم ما لا يرغبون ، ولا يطلب منهم ما لا يريدون ، **فيكونون أمام دين جديد يؤمنون به بشروطهم هم** ، وهكذا يصير الدين بأمزجة الناس وأهواءهم ، لا بما يوحي إلى رسولهم .

وقد ذكر القرطبي بعض أوجه التبديل التي رغبوها فقال في قولهم ذلك ثلاثة أوجه:-
أحدها: أنهم سألوه أن يحول الوعد وعيدا والوعيد وعدا، والحلال حراما والحرام حلالا؛ قاله ابن جرير الطبري.
الثاني: سألوه أن يسقط ما في القرآن من عيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم؛ قاله ابن عيسى.
الثالث: أنهم سألوه إسقاط ما فيه من ذكر البعث والنشور؛ قاله الزجاج[1].

وعند البحث في الأسباب التي دعتهم لهذا القول يبدو لنا أنه صدر عن أحد أمرين :-
الأول : إما تشكيكا منهم فيما عند الله تعالى ، لشكهم في المبلغ عنه ، وهو النبي ﷺ ، أي لا يصدقونه لعدم معرفتهم به ، وهذا مستبعد لأنه قد جربوا صدقه وأمانته ، فهو مجرب عندهم أربعين سنة .
ثاني : وإما أن يكون لرفضهم ما في القرآن من آداب عقائد وعبادات وأخلاق ومعاملات أخصها مبدأ المساواة بين البشر بما يجعل العبيد والسادة سواء في حومة الإسلام ، فيكون رفضهم له غطرسة وكبرياء سوف يندمون عليه لاحقا .

روى ابن اسحق أن وفدا من قريش جاءوا للنبي ﷺ (فقالوا له : يا محمد إنا قد بُعثنا إليك لنعذر فيك وإنا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك ولقد شتمت الآباء وعبت الدين وسفهت الأحلام وشتمت الآلهة وفرقت الجماعة ، **فإن بقي أمر قبيح إلا قد جئته** فيما بيننا وبينك فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به **مالا** جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا وإن كنت إنما تطلب به **الشرف** فينا **سودناك علينا** وإن كنت تريد به **ملكا ملكناك علينا**... فقال لهم رسول الله ﷺ : ما أدري ما تقولون ؟ ما جئتكم ما جئتكم به لطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثني إليكم رسولا وأنزل علي كتابا وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا فبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو **حظكم من الدنيا والآخرة** وإن تردوا علي أصبر على أمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم)[2].

فأكثر ما كان يغيظ قريش أن محمدا يستعمل العبيد والفقراء ويجلسهم مجلسه ، وهم السادة وشرفاء مكة يأنفون أن يجلسوا معهم ويصلوا بجانبهم ، بل **كانوا يأبون أن يؤمهم في الصلاة عبيدهم** ، حتى الأذان كانوا يستكثرونه عليهم ، وظلوا على هذا الحال حتى فتح مكة

[1]) تفسير القرطبي ج8 ص 319
[2]) سيرة ابن اسحق ج1 ص 178

روي عن سليمان الفارسي وأبي الدرداء أن رسول الله ﷺ أمر بلالا فأذن يوم الفتح فوق الكعبة ، فقال رجل من قريش للحارث بن هشام **ألا ترى إلى هذا العبد كيف صعد** قال دعه فإن يكن الله يكرهه فسيغيره)[1].

وروي عَنِ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ قَالَ:"لَمَّا كَانَ يَوْمُ الْفَتْحِ رَقَى بِلالٌ فَأَذَّنَ عَلَى الْكَعْبَةِ، فَقَالَ بَعْضُ النَّاسِ: هَذَا الْعَبْدُ الْأَسْوَدُ يُؤَذِّنُ عَلَى ظَهْرِ الْكَعْبَةِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنْ يَسْخَطِ اللَّهُ هَذَا يُغَيِّرْهُ، فَنَزَلَتْ: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى " ، الآية"[2].

قوله (قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ..) (15) يلقن القرآن النبي ﷺ حجته للرد عليهم ، بأنه رسول مبلغ عن ربه ، وليس له أن يغير شيئا من كتاب الله ولا أن يبدل آية ، بهذا رفض مبدأ المساوة في هذا الأمر ، فدين الله لا يقبل المساومة عليه .

قال تعالى (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأقاويل لأَخَذْنَا مِنْهُ باليمين ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوتين) (الحاقة50) ، وقال سبحانه (وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهوى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يوحى)(النجم3)

وعلى هذا يرى الشافعية أنه لا يجوز نسخ الكتاب بالسنة ، قال الشافعي (لا ينسخ كتاب الله إلا بكتابه كما كان المبتدئ لفرضه فهو المزيل المثبت لما شاء منه جل ثناؤه ولا يكون ذلك لأحد من خلقه ، وكذلك قال: (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) (319) ، وقد قال بعض أهل العلم في هذه الآية – والله أعلم – دلالة على أن الله جعل لرسوله أن يقول من تلقاء نفسه بتوفيقه فيما لم ينزل فيه كتابا)[3]، أي ما فيه بيان وتبيين وليس فيه نسخ أو تبديل.

وقال السرخسي (من أصحاب الشافعي من يقول مراده نفي الجواز، ومنهم من يقول مراده نفي الوجود، أي لم يوجد في الشريعة نسخ الكتاب بالسنة ولا نسخ السنة بالكتاب) ، وقد احتج الشافعي لذلك بقوله تعالى (قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إلي) وفي هذا تنصيص على أنه كان متبعا لكل ما يوحى إليه ولم يكن مبدلا لشئ منه والنسخ تبديل)[4] .

قال العلماء (ليس بعد كلام الله ورسوله كلام ، كذلك أجمعت الأمة على أنه لا مدخل لبشر في نظم هذا القرآن لا من ناحية أسلوبه ولا من ناحية ألفاظه بل ولا من ناحية قانون أدائه)[5]

قوله (..إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ..) (15) لأن النبي لا ينطق عن الهوى ، كما في قوله (مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (2) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى) (النجم 4) ، وإنما هو مبين لحكم الله إما باللفظ والمعني با يتلوه عليهم من قرآن ، أو باللفظ من عنده والمعنى من الله بما يقوله وينطقه من سنة مبينة للوحي ، قال تعالى (لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون) (فأخبر أنه مبين لما هو المنزل حتى يعمل الناس بالمنزل بعدما تبين لهم ببيانه).

---

[1]) رواه عبد الرزاق ج10 ص 393 رقم 19464
[2]) تفسير ابن أبي حاتم ج12 ص 242
[3]) الرسالة ج1 ص 107
[4]) أصول السرخسي ج2 ص 67
5) محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن ص 188

قال السرخسي (المراد بيان أنه لا يبدل شيئا من تلقاء نفسه بناء على متابعة الهوى ، وإنما يوحى إليه فيتبع ما يوحى إليه ويبينه للناس فيما ليس بمنزل في القرآن ، ولكن العبارة فيه مفوض إلى رسول الله ﷺ فيبينه بعبارته، وهو حكم ثابت من الله تعالى بدليل مقطوع به بمنزلة الحكم المتلو في القرآن، ودليل كونه مقطوعا به ما قال إن تصديقنا إياه فرض علينا من الله تعالى، وكذلك أتباعه لازم بقوله تعالى: (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) ، وقال تعالى: (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) فبهذا التقرير يتبين أن بالوحي الذي هو غير متلو (يجوز أن يتبين مدة بقاء الحكم المتلو كما يجوز أن يتبين ذلك بالوحي الذي هو متلو) والنسخ ليس إلا هذا، ألا ترى أنا لو سمعنا رسول الله ﷺ يقول لحكم هو ثابت بوحي متلو: قد كان هذا الحكم ثابتا إلى الآن وقد انتهى وقته فلا تعملوا به بعده، يلزمنا تصديقه في ذلك والكف عن العمل به، وتكفير من يكذبه في ذلك)[1].

وقال أوضح الغزالي مقصد الشافعي بشيء من التأويل فقال (لا خلاف في أنه لا ينسخ من تلقاء نفسه بل بوحي يوحى إليه لكن لا يكون بنظم القرآن وإن جوزنا النسخ في الاجتهاد فالإذن في الاجتهاد يكون من الله عز وجل والحقيقة أن الناسخ هو الله عز و جل على لسان رسوله ﷺ والمقصود أنه ليس من شرطه أن ينسخ حكم القرآن بقرآن بل على لسان رسوله ﷺ بوحي ليس بقرآن وكلام الله تعالى واحد هو الناسخ باعتبار والمنسوخ باعتبار وليس له كلامان أحدهما قرآن والآخر ليس بقرآن وإنما الاختلاف في العبارات فربما دل على كلامه بلفظ منظوم يأمرنا بتلاوته فيسمى قرآنا وربما دل بغير لفظ متلو فيسمى سنة والكل مسموع من الرسول عليه السلام والناسخ هو الله تعالى في كل حال)[2]، واستشهد بحادثة تحول القبلة إلى الكعبة وكان التوجه قبلها إلى بيت المقدس ثابتا بالسنة ، فنسخ السنة جاء بالقرآن ، وقال وكذلك عكسه ممكن ، والقول بأن هذا لم يقع محض تحكم.

قوله (.. إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ..) (15) قال تعالى (ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) (الجاثية 18) ، فلا يجوز له إطاعتهم بتبديل شيء من أحكام الله تعالى سواء تلك التي وردت في القرآن أو نطق بها النبي ﷺ ، فكلاهما وحي من الله ، ولذلك اجتهد النبي ﷺ في مخالفتهم بعدما كان يجتهد في متابعتهم فيما لم ينزل به قرآن ، وذلك لأجل حصول التميز بين شريعة الإسلام وغيرها من الشرائع ، فلا يختلطان .

يستفاد من ذلك أنه لا يجوز تبديل شيء من القرآن لفظا ولا معنى ، ولذلك لم يجز العلماء تلاوة شيء من القرآن بغير اللغة العربية ، كترجمة ومثل ذلك ، قال ابن حزم (لايسوغ لأهل الجهل والعمى إباحة القراءة المفروضة في الصلاة بالأعجمية)[3].

وقد حذر النبي ﷺ من متابعتهم دون تبصر وفهم ، واحتراز من مخالفة الوحي ، فقال ﷺ (لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْرًا شِبْرًا وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى قَالَ فَمَنْ)[4].

---

[1]) أصول السرخسي ج2 ص 72
[2]) المستصفى ج1 ص 100
[3]) الإحكام لابن حزم ج2 ص 214
[4]) رواه البخاري ج22 ص 298 رقم 6775

قوله (قُل لَّوْ شَاء اللّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ) (16) دليل على أن كفار قريش لا يدرون ولا يدركون عظم النعمة التي يرفضونها ، وكيف أنهم مختارون من الله تعالى لكي يكونوا نواة هذه الدعوة الإسلامية لما يتسمون به من الصدق والأمانة وإكرام الضيف ، كعادة العرب ، لاسيما قريش ، لكنهم بعنادهم هذا سوف يفوتون الفرصة على أنفسهم أن يكونوا أهلا لهذا الإختيار ، لاسيما وقد فوت هذه الفرصة على نفسه أبي جهل وعكرمة وأبي لهب وغيرهم من صناديد الكفر بقريش .

فقد مضى زمن انقطع فيه الوحي ،وعث الناس في جاهلية بغيضة يقتلون أولادهم استرضاء لآلهتهم ، وتغير القبائل بعضها على بعض ، وتسبي النساء ، فماذا جنى أهل الجاهلية في ظل انقطاع الوحي غير الخراب .

فعَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ **أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ** مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالٌ وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا **وَإِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ**)[1].

قوله (فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ) قال الشنقيطي (في هذه الآية الكريمة حجة واضحة على كفار مكة؛ لأن النَّبي ﷺ لم يبعث إليهم رسولاً حتى لبث فيهم عمراً من الزمن ، وقدر ذلك **أربعون سنة–قبل النبوة–، فعرفوا صدقه**، وأمانته، وعدله، وأنه بعيد كل البعد من أن يكون كاذباً على الله تعالى، وكانوا في الجاهلية يسمونه الأمين)[2] .

إذن يستحب للمسلم أن يكون محمود السيرة بين أهله وعشيرته ، فذلك أدعى أن يتبوأ مقام الدعوة دون أن ينكر عليه أحد إلا سفهاء القوم الذين يتجرأون على أهل الحق عادة دون أن يردعهم رادع ، أما العقلاء فيهم فهم الذين يصدقونه ويتبعونه ويحذون حذوه ، ولهذا ذيلت الآية بقوله (أَفَلاَ تَعْقِلُونَ) ليستنكر عليهم إنكار معرفتهم بصدق نبيهم وأمانته ، وهو معروف بينهم بالصدق والأمانة.

قوله (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ) (17) تكررت هذه الآية كثيرا في أكثر موضع من القرآن ، ولله الحكمة البالغة في تكرار هذه الآية بعدد التكرارات ، فكل مرة تكرر فيها هذا المعنى كان لغرض مقصود ، فهي أضواء في الطريق يكشفها الله تعالى لمن ينتظم في السير فيه ، وأمثلة ذلك كثيرة ، منها :–

قوله (فَمَنِ افْتَرَىَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (آل عمران 94)

قوله (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (الأنعام 21)

قوله (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ (الأنعام 93)

قوله (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (الأنعام 144)

---

[1]) رواه مسلم ج14 ص 24 رقم 5109

[2]) أضواء البيان ج2 ص 153

قوله (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ) (الأعراف 37)
قوله (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ) (يونس 17)
قوله (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا) (هود 18)
قوله (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا) (الكهف 15)
قوله (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءهُ) (العنكبوت 68)
قوله (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) (الصف 7)

يقول النبي ﷺ (**إِنَّ كَذِبًا عَلَيَّ لَيْسَ كَكَذِبٍ عَلَى أَحَدٍ** مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنْ النَّارِ)[1]، ولا يقف النهي عند حد تعمد الكذب على رسول الله ﷺ ، وإنما يجب تحري الصدق في النقل ، فمن لم يتحر الصدق وقع في الكذب لا محالة ، لقوله ﷺ (**إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ**)[2]، فلا يجوز أن ينسب لرسول الله ﷺ حديث ضعيف ، لقوله (**مَنْ حَدَّثَ عَنِّي بِحَدِيثٍ يُرَى أَنَّهُ كَذِبٌ فَهُوَ أَحَدُ الْكَاذِبِينَ**)[3] .

بهذا نفهم طبيعة هذا الدين ، وأنه لا يقبل التأويل أو الاجتهاد المفضي إلى تغيير ثوابته ونصوصه المقطوع بصحتها سواء أكانت نصا قرآنيا أو حديثا نبويا .

قوله (..إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ) (17) ، فالمجرم الذي يحاول المساس بهذا الكتاب الكريم أو تلك السنة النبوية الشريفة لا يفلح أبدا ، وخاب سعيه .

قوله (وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللهِ ..) (18) تستمر الحكاية عن الطاعنين في الكتاب والسنة الذين يساومون أهل الإيمان في دينهم ، ويستمسكون بعبادتهم لغير الله ، وهي بالمجمل عبادة الأسباب ، بمعنى أنهم يغترون بمن يعطيهم مالا فيطيعونه لأجل المال ، وينصاعون لمن يمنحهم سلطة ، وهكذا يبيعنون كل شيء حتى أنفسهم ظنا منهم أن هؤلاء ينفعونهم لو أطاعوهم أو يضرونهم لو عصوهم ، ويجهلون أن هؤلاء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ، فكيف يملكون لغيرهم ذلك ، فالله هو مسبب الأسباب وهو الذي يعدمها أو يضعفها أو يقويها ، وله أن يجري الأحكام بغير أسباب .

فمن القواعد المعلومة في التوحيد أن شفاعة الأنبياء والملائكة وإن جازت في حق بعض الناس فإنها غير واجبة النفاذ في حق الله ، وإنما لابد وأن يأذن بها الله ، قال تعالى (مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ)(البقرة 255) , وقال تعالى (وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاء وَيَرْضَى) (النجم 26) , وقال تعالى (وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ)(سبأ 23) , وقال تعالى (يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا)(طه 109) .

---

[1]) رواه البخاري ج5 ص 37 رقم 1209
[2]) رواه البخاري ج16 ص 110 رقم 4747
[3]) رواه مسلم ج1 ص 8 رقم 1

والقاعدة الثانية أن ثبوت الشفاعة للملائكة والأنبياء إجمالا لا يجعل لهم حظا في الربوبية ، فكيف بمن هم أقل منهم من الناس ، بدليل قوله تعالى (مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللّهِ وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ (آل عمران 79) وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلاَئِكَةَ وَالنَّبِيِّيْنَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (آل عمران 80) .

ولكنهم يشركون الله ، ويعبدون غيره ، ولذلك اتخذوا الأحبار والرهبان أربابا من دون الله ، قَالَ تَعَالَى (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) ، وَقَدْ (قَالَ عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ لِلنَّبِيِّ : مَا عَبَدُوهُمْ , قَالَ : أَحَلُّوا لَهُمْ الْحَرَامَ فَأَطَاعُوهُمْ , وَحَرَّمُوا عَلَيْهِمْ الْحَلَالَ فَأَطَاعُوهُمْ , فَكَانَتْ تِلْكَ عِبَادَتُهُمْ إيَّاهُمْ) .

وبعضهم ممن يقرون بإله السماء ، فإنهم يعبدون آلهة في الأرض رجاء شفاعة معبوداتهم لهم عند إله السماء ، وهذا **المعتقد الشركي** نابع من فكرتين : –

الأولى : **الفصل بين إله السماء وإلهة الأرض** ، وتلك حيلة خبيثة شيطانية لأجل أن يفصلوا الدين عن الحياة ، فيجعلون الناس منشغلون بآلهة الأرض باعتبارها هي التي تجلب الضر والنفع ، وباعتبارها شفعاء عند إله السماء ، والأصل هو التوحيد التام لله ، فالله له ما في السماوات وما في الأرض ، قال تعالى (وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاء إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ) (الزخرف 84) ، يعني أنه كما أنه إليه معترف به عند أهل السماء ، فهو كذلك إله معترف به عند أهل الأرض ممن يوحد بالله ، ولا شك ، ولا يجوز أن يكون إله في أحدهما دون الآخر ، ولا يعدم من يوحد الله فيهما .

الثانية : **التدرج الهرمي في التبعية والسلطة** ، حيث تكون الطبقة الأقل في المستوى الاجتماعي عبدة للطبقة الأعلى حتى ينتهي الهرم في قمته إلى الفرعون الذي يعبده الجميع ،ولذلك قال فرعون عن نفسه (أنا ربكم الأعلى) ، لأنه سمح بذلك التدرج الهرمي في العبادات ، فسمح بمعبودات غيره تشاركه في الألوهية على أن يتبوأ هو قمة السلم الهرمي ، للاعتقاد بأن الآلهة التي في الأرض وسطاء بين البشر والإله الذي في السماء .

قوله (..قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) (18) استنكر عليهم معتقدهم الشركي الباطل ، فالأصل في العبادة الحظر ، ولا عبادة إلا بما أقره الشرع ، وما لم يقره فليس بعبادة ولا يجوز ، فعبادة المسلم لله تعالى تصل إلى الله مباشرة دون واسطة ، فلا حاجة إلى وسطاء أو شفعاء ، ولو أنهم تدبروا صفات هؤلاء الشفعاء لوجدوهم ضعفاء لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ، فكيف يوكل إليهم هذه المهمة التي يعجزون عن تحقيقها لأنفسهم ، فهم بهذه العبادة الشركية يخترعون دينا لم يأمر الله به ، قَالَ تَعَالَى : (**أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنْ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ**) ، قال رسول الله ﷺ (**إِيَّاكُمْ وَالْأُمُورَ الْمُحْدَثَاتِ فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**)[1] ، فالبدعة كما عرفها الشاطبي (هي **طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية** يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله سبحانه) [2]،

[1]) رواه ابن ماجة ج1 ص 49 رقم 42 وصححه الألباني : صحيح ابن ماجة ج1 ص 13 رقم 40
2) الاعتصام 37/1 .

وقال الحافظ ابن حجر (تطلق في الشرع في **مقابل السنة** فتكون مذمومة)[1]، وكأن الابتداع هو ديدنهم ، وليس الاتباع ، فالاختراع أسلوبهم في العبادة ، والعبادة لا تُخترع وإنما هي أمور توقيفية.

قوله (وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُواْ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) (19) الناس أمة واحدة بالنظر إلى أصل فطرتهم التي فطرهم الله عليها ، فهم جُبلوا على فطرة الإسلام ، ولكنهم يختلفون بعد ذلك تبعا لآبائهم وما ورثوه من معتقدات وآراء ، يقول النبي ﷺ (**مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ** فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (**فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا**)[2].

قال الخراط (جملة "وما كان الناس إلا أمة" معترضة بين المتعاطفين: "يقولون" في الآية (20) و"يقولون" في الآية (18) ، وجملة "ولولا كلمة" معطوفة على جملة "ما كان"، "لولا" حرف امتناع لوجود، و "كلمة" مبتدأ خبره محذوف تقديره موجود، وجملة "سبقت" نعت "كلمة")[3]، قال الشعراوي (وتعني : **امتناع التعذيب لوجود الكلمة**)[4] ، والمقصود بالكلمة أن رحمته سبقت غضبه [5]، فيمهل الكافر ويملي للظالم حتى تقام عليه الحجة كاملة ، فإن استمروا على كفرهم وظلمهم استحقوا عقاب الله تعالى .

ونظيره قوله (وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى) (129) قال ابن جزي (الكلمة هنا القضاء السابق ، والمعنى لولا قضاء الله بتأخير العذاب عنهم لكان العذاب لزاماً : أي واقعاً بهم)[6] ، قال أبو السعود وغيره أي (ولولا أجلٌ مسمًّى لأعمارهم أو لعذابهم وهو يومُ القيامة ويومُ بدر لما تأخر عذابُهم أصلاً)[7]

فالله تعالى لا يقضي بين الناس حتى يقيم عليهم **الحجة** ، فيرسل الرسل مبشرين ومنذرين ، ويختبرهم ويبتليهم ، حتى إذا قامت الحجة قضي بينهم فيما كانوا يختلفون فيه من أمر العقيدة ، وفي ذلك **قضاءان** ، قضاء في الدنيا بإهلاك الظالمين ونجاة المتقين ، وقضاء في الآخرة بالثواب والعقاب .

وهذه الآية **من تكرارات القرآن** ، وهو **تفنن** في أسلوب الخطاب ، وتأكيد للمعنى القاطع لجميع حجج المشككين ، وداحض لافتراءات المكذبين ، فقد جاء المعنى المراد سياقه هذه المرة بأسلوب الحصر والقصر للتأكيد على فطرة الإسلام ، قال ابن عاشور (المقصود من الآية التنبيه على أن التوحيد والهدى والصلاح هي **الفطرة** التي فطر الله الناس عليها حين خلقهم كما دلت عليه آية "أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ" [الأعراف/172] ، وأنها ما غشاها إلا تلقين الضلال وترويج الباطل)[8].

---

[1]) فتح الباري 156/5 .
2) رواه البخاري ج5 ص 143 رقم 1270
[3]) مشكل إعراب القرآن ص 210
[4]) تفسير الشعراوي ص 5810
[5]) انظر الوسيط لسيد طنطاوي ج1 ص 2262
[6]) التسهيل لعلوم التنزيل ج1 ص 1055
[7]) تفسير أبي السعود ج4 ص 394
8) التحرير والتنوير ج2 ص 284

قوله (وَيَقُولُونَ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلّهِ فَانْتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ) (20) انصرفوا عن القرآن الذي هو آية من عند الله ، وطلبوا من نبيهم أن يأتيهم بأية غيرها بدلا منها ، ولم يكن طلبهم لهذه الآية أن تكون آية تشريعية تنظم شئون حياتهم ومعيشتهم بما يحقق معنى العبادة الله ، فتلك هي الآية التي انصرفوا عنها وأعرضوا ، فعَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (**مَا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مِنْ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ أُومِنَ أَوْ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ** وَإِنَّمَا كَانَ **الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ** فَأَرْجُو أَنِّي أَكْثَرُهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ)[1].

وإنما كانت الآية التي يطلبونها هي نوع من التحدي والإعجاز للنبي ﷺ أن يأتي بها ، فانصرفوا عن الآية الروحية والأخلاقية والتشريعية ، وطلبوا آية مادية مشاهدة ، **فكانت الآية المادية التي طلبوها ما استعجلوه من العذاب** ، أي **هزيمتهم في "بدر" بأيدي قلة من المسلمين** كانوا يحتقرونهم ويستعبدونهم دون وجه حق ، وقد تربصوا ما أنذرهم النبي ﷺ به ، وانتظر هو –كذلك– وأصحابه فرج الله ، فإذا بالنصر يأتي ويتحقق وعد الله ، فلم ينظر النبي ﷺ ومن معه من الصحابة إلا قليل — مهما طالت الفترة المكية – حتى نصرهم الله عليهم في بدر ، بفضل استمساكهم بهذا الكتاب .

[1]) رواه البخاري ج22 ص 242 رقم 6732

المحور الثالث

تصوير مشهد مكر الإنسان حال الاضطرار وانقلابه علي ربه حال النجاة

قال تعالى (وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم **مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا** قُلِ اللّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (21) هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ **وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ** لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنِّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (22) فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَينَا **مَّرْجِعُكُمْ** فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (**23**)

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ **الدُّنْيَا** كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ **قَادِرُونَ** عَلَيْهَآ أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا **حَصِيدًا** كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (24)

كما أن الله يبتلي الإنسان بالضر – خاصة أهل الغفلة – ليفيقوا ، فإنه سبحانه يبتلي الإنسان – كذلك – بالخير ، فما هو رد فعل الإنسان إذا فضل الله ونعمته عليه ، يصور هذا المقطع مشهد مكر الإنسان ، ومحاولته أن يتقرب إلى ربه في أحوال الاضطراب ثم ينقلب عليه وكأن شيئا لم يحصل عندما ينجيه ويرفع عنه البلاء ، ويمن عليه بالفضل والنعمة ، وهكذا ينقطع عذر الإنسان في التعرف لربه ، فربه الذي اضطر لأن يتضرع إليه في أحوال الضر هو هو ربه الذي أنعم عليه بالفضل ، وحال هذا الماكر أشبه بحال نبتة نبتت في الأرض بعدما من الله عليها بماء المطر ، وقد أكل الناس من ثمارها فلما تزينت في أعينهم لم تلبث حتى ذبلت وصارت عودا جافا قد أصفر وكأنهم لم يكن مخضرا بالأمس ، فهذه هي الدنيا التي شغلت الإنسان عن ربه لا تلبث أن تزول ، فعلام يطمئن إليها الإنسان وعند الله خير منها وهي دار الآخرة ، أفلا يتفكر في ذلك

قوله (وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ) (21) من مكر الناس أنهم **لا ينسبون النعمة لصاحب النعم كلها وهو الله الذي أغدقها عليهم** ، ولكن ينسبون الفضل فيها إلى شركائهم ، فعَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ أَنَّهُ قَالَ صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنْ اللَّيْلَةِ فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ؟ قَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ **أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ** فَأَمَّا مَنْ قَالَ **مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ** ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ **بِنَوْءِ كَذَا** وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي وَمُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ)[1]، يقصد بالكافر الذي علق المطر على الأسباب الكونية ، ولم ينسب فعل المطر لله سبحانه مسبب الأسباب .

[1]) رواه البخاري ج3 ص 351 رقم 801

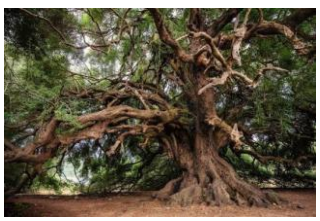

قوله (.. إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا..) قَالَ الحسن :"**ذَاكَ الْمُنَافِقُ**"[1]، قال الشيخ الشعراوي (المكر مأخوذ من التفاف أغصان الشجرة كالضفيرة ، فلا تتعرف على منبت ورقة الشجر ومن أي غصن خرجت ، فقد اختلطت منابت الأوراق؛ حتى صارت خفية..، والمقصود به هنا **محاولة الالتفاف لتجريد العجائب من صنع الله لها** ، وحتى العلم وقوانينه فهو هبة من الله ، والحق هو القادر على أن يوقف الأسباب ، وأن يفعل ما يريد وأن يخرق القوانين ، فهو سبحانه رب القوانين ، فلا تنسبوا أي خبر إلا له سبحانه ؛ حتى لا نضل ضلال الفلاسفة الذين قالوا الكون محكوم بقوانين طبيعية)[2] .

وذلك كمكر مضر –وهي أصل قبيلة قريش– وأهلها بالمؤمنين ، فعن بن مسعود قال : لما رأى رسول الله ﷺ من الناس إدبارا قال اللهم بسبع كسبع يوسف فأخذتهم سنة حتى أكلوا الميتة والجلود والعظام ، **فجاءه أبو سفيان وناس من أهل مكة ، فقالوا يا محمد إنك تزعم أنك بعثت رحمة وإن قومك قد هلكوا فادع الله لهم** فدعا رسول الله ﷺ فسقوا الغيث فأطبقت عليهم سبعا، فشكى الناس كثرة المطر فقال اللهم حوالينا ولا علينا فانحدرت السحابة عن رأسه قال فاسقي الناس حولهم قال لقد مضت آية الدخان وهو الجوع الذي أصابهم وذلك قوله عز وجل (إنا كاشفوا العذاب قليلا إنكم عائدون)[3] ، قال الماوردي (فدعا لهم واستسقى فسقوا وأخصبوا ، فنقضوا ما قالوه وأقاموا على كفرهم ، وهو معنى قوله (إِذَا لَهُمْ مَّكْرٌ فِي ءَايَاتِنَا)[4] .

وقد كان النبي ﷺ يخشى علي المؤمنين الذين لم يهاجروا أن يصيبهم الكفار بأذى ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَنَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي صَلَاةِ الْعَتَمَةِ شَهْرًا يَقُولُ فِي قُنُوتِهِ اللَّهُمَّ نَجِّ الْوَلِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ اللَّهُمَّ نَجِّ سَلَمَةَ بْنَ هِشَامٍ **اللَّهُمَّ نَجِّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ** اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ وَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ فَلَمْ يَدْعُ لَهُمْ ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ ، فَقَالَ (وَمَا تُرَاهُمْ قَدْ قَدِمُوا)[5]، أي: أما تراهم قد قَدِموا أي وصلوا إلى المدينة المنورة سالمين من أسر الكفار لهم ، فانتفت العلة التي كان يدعو لهم بسببها .

قوله (..قُلِ اللهُ أَسْرَعُ مَكْرًا..) قال ابن عجيبة (فقد دبر عقابكم قبل أن تدبروا كيدكم ، ووصف مكر الله بالسرعة وإن كان الاستدراج يمهلهم؛ لأنه متيقن واقع لا محالة ، وكل آت قريب)[6] ، قال أبو السعود (وتسميةُ العقوبةِ بالمكر لوقوعها في مقابلة مكرِهم وجوداً)[7]

---

[1]) تفسير ابن أبي حاتم ج8 ص 13
[2]) تفسيير الشعراوي ج1 ص 3899
[3]) رواه البيهقي ج3 ص 352 رقم 6221 صحيح السيرة النبوية للألباني ج1ص227
[4]) النكت والعيون ج2 ص 164
5) رواه أبو داود ج4 ص 231 رقم 1230 وصححه الألباني : صحيح أبي داود ج5 ص 186
[6]) البحر المديد ج2 ص 481
[7]) تفسير أبي السعود ج ص3 259

قال الشوكاني أي : (أعجل عقوبة ، وقد دلّ أفعل التفضيل على أن مكرهم كان سريعاً ، ولكن مكر الله أسرع منه ، وإذا الفجائية يستفاد منها السرعة ، لأن المعنى أنهم فاجئوا المكر : أي أوقعوه على جهة الفجاءة والسرعة)[1]

قال الرازي (وقوله قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا كالتنبيه على أنه تعالى يزيل عنهم تلك النعم ويجعلهم منقادين للرسول مطيعين له تاركين لهذه الاعتراضات الفاسدة)[2]

كما لو ظن الكفار أن الطبيعة تدير ذاتها خارجا عن إرادة الله ، وفقا لقوانينها التي اكتشفوها في علوم الفيزياء والإحصاء ، فزعموا أن الله ترك تلك القوانين والنواميس تتحكم في الطبيعة ، فإن الله يأتيهم بشيء خارق للعادة لما يألفوه ، حتى يبطل ظنهم ، فيخالف تلك القوانين بشيء يشذّ عن الطبيعية حتى نؤمن من جديد بأن الله هو الذي يدبر الأمر سبحانه ، أي أننا حين نصادف بين الفينة والأخرى خروجا على تلك القوانين ، مثل علوم الطفرة الجينية ، نستدل بها على أن الله تعالى يخلق بخلاف ما ألف الناس وتعودوا ، حتى يبطل تأثير الأسباب علي الأشياء كعادة الفوها ، ويرجعوا إلى رب الأسباب ومسببها .

وكلما تمسك علماء الطبيعة بأحد قوانين الطبيعة التي يدبر الله بها الكون ليثبتوا ألية عمل الكون بتلقائية بعيدا عن قدرة الله ، كما أسرع الله تعالى بالإتيان بآية تقلب هذه القوانين رأسا على عقب ، فيظلون في حيرة ، حتى يظل فكرهم متعلقا بالله تعالى لا بتلك القوانين ، ولذلك جعل الله معجزات الرسل على خروجاً عن القوانين التي طالما ألفوها ، يقول الشعراوي (**أبقى الله في يده التحكُّم في القوانين** ، صحيح أنه سبحانه قد أطلقها ، ولكنه **ظل قيُّوماً عليها** ، فيعطل القانون متى شاء ويبرزه متى شاء ويُوجِّه كيفما شاء)[3] .

قوله (..إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ) (21) قال ابن عجيبة في ذلك (تنبيه على أن ما يدبرون في إخفائه **لم يَخفْ على الحفظة فضلاً أن يخفى على الله**)[4] .

قال ابن عاشور (إذ كانوا يحسبون أنهم يمكرون بالنبيء ﷺ **وأن مكرهم –يخيل**– عليه ولا يشعر به ، فأعلمهم الله بأن الملائكة الموكلين بإحصاء الأعمال يكتبون ذلك ..**وهذا يستلزم علم الله** تعالى بذلك)[5].

قوله (هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنّ مِنَ الشَّاكِرِينَ) (22) ضرب الله تعالى مثالا يبين مكره سبحانه إزاء مكر النفعيين الماديين الذين يلجأون إلى الله في الشدائد ويتركون شكره وعبادته في الرخاء والنعم ، فأبان حال الإنسان وهو في حال الاضطرار عندما يحيط به الموج من كل جانب ، فتنقطع عنه أسباب النجاة إلا من الله تعالى ، فيمد يده إلى السماء يدعو الله أن ينجيه مما هو فيه ، فإذا نجاه عاد مرة أخرى ليشرك بالله وينسى حاله وهو يدعوه بإخلاص في حال الاضطرار .

---

[1]) فتح القدير ج3 ص 35
[2]) مفاتيح الغيب ج17 ص 53
[3]) تفسير الشعراوي ج1 ص 3899
[4]) البحر المديد ج2 ص 481
[5]) التحرير والتنوير ج11 ص 53

ونظير هذه الآية قوله: (وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ) [الزمر 8].

فقوله (هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ..) استظهر الله لنعمته على عباده وقد سخر لهم البر والبحر ، ليسيروا فيهما مطمئنا ، قال تعالى (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (البقرة 29) ، أي سخر ذلك كله .. وهكذا .

ولكن الإنسان ينسى أن الله هو الذي سخرها له ، فلا يدرك –كالعادة– عظم نعمة الله عليه ، (وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ) (الأنعام 91) , فمن الناس من قد ينسب هذا الفضل لقوانين الطبيعة التي يقوم الله بتدبير الكون بها ، فيظن –على سبيل المثال – أن خاصية الطفو التي اكتشفها العالم أرشميدس هي سبب بقاء السفن على سطح البحر ، ويعلل بها خاصية الطفو فوق سطح الماء ، كما يظن أن قدرة الجمال على تخزين الماء طبيعة بيولوجية ، وأن قدرتها الفائقة على السير على أقدامها شيء طبيعي ، ولا ينسب هذه النعمة لله وأن الله سخر لها هذه الإمكانيات التي تتفوق على غيرها من الكائنات الحية .

وقوله (..حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا..) استظهار حالهم وهم فرحين مطمئنين ، يبين مدى الغفلة التي تنتابهم لاسيما لحظة مجئ الريح العاصف في وقت هم لا يظنون فيه أن قوانين الطبيعة – التي طالما سموها كذلك– قد تنقلب عليهم .

وقوله (..جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ..) تبدل حالهم سريعا إلى النقيض تماما ، فتحول من الراحة والطمأنينة إلى القلق والخوف الشديدين .

وهكذا يبتلي الله عباده بشيء من الضر ليتذكر ربه بعدما طالت الغفلة عنه زمنا ، ولعلهم يستفيقون بذلك ، ولا يرجعون إلى ما كانوا في من الغفلة بعد الإفاقة .

وقوله (..وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ..) إشارة إلى تمكن الخوف منهم ، وانقطاع الأسباب عنهم ، فلا نجاة لهم عندئذ إلا الصدق في الاستغاثة ممن يعلمون أنه الحق .

قال الشنقيطي (اعلم أن الكفار في زمن النبي ﷺ كانوا يعلمون علما يقينا أن ما ذكر من إجابة المضطر وكشف السوء عن المكروب من خصائص الربوبية فكانوا إذا دهمتهم الكروب، كإحاطة الأمواج بهم وقت العواصف يخلصون الدعاء لله وحده لعلمهم أن كشف ذلك من خصائصه ،فإذا أنجاهم من الكرب رجعوا إلى الشرك)[1].

قوله (..دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنّ مِنَ الشَّاكِرِينَ) (22) هذا حال الجميع عند الشدائد أن يخلص الدعاء لله حتى وإن كان من قبل ذلك مشركا ، بتلك الفتنة تجلو القلوب وتتعرف على خالقها وبارئها ، وتُنبذ كل صور الشرك ، وتتجرد من كل شرك ، لتدعو الله وحده بإخلاص طلبا للنجاة .

وقد نفع ذلك بعض المشركين فأسلموا بتلك المحنة ، فصارت لهم منحة من الله تعالى ليتوب عليهم ويحسن إسلامهم ، فعَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ عَنْ **عِكْرِمَةُ بن أبي جهل** – وكان يوم فتح مكة على الشرك– رَكِبَ الْبَحْرَ فَأَصَابَتْهُمْ عَاصِفٌ فَقَالَ أَصْحَابُ السَّفِينَةِ أَخْلِصُوا فَإِنَّ آلِهَتَكُمْ لَا تُغْنِي عَنْكُمْ شَيْئًا هَاهُنَا **فَقَالَ عِكْرِمَةُ وَاللَّهِ لَئِنْ لَمْ يُنَجِّنِي مِنْ الْبَحْرِ إِلَّا الْإِخْلَاصُ لَا يُنَجِّينِي فِي الْبَرِّ غَيْرُهُ اللَّهُمَّ إِنَّ لَكَ عَلَيَّ عَهْدًا إِنْ أَنْتَ عَافَيْتَنِي مِمَّا أَنَا فِيهِ أَنْ آتِيَ مُحَمَّدًا ﷺ حَتَّى أَضَعَ يَدِي فِي يَدِهِ فَلَأَجِدَنَّهُ عَفُوًّا كَرِيمًا**[2] ، وبالفعل حسن إسلامه ومات شهيدا وهو يقاتل الروم في معركة اليرموك ، وسميت كتيبته بكتيبة الشهداء .

---

[1]) أضواء البيان ج7 ص 407

[2]) رواه النسائي ج12 ص 427 وصححه الألباني : صحيح وضعيف سنن النسائي ج9 ص 139

وقوله (فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ) (23) وهذا من مكرهم الذي كشفه الله تعالى في هذه السورة ، وأخبرنا الله به ، حتى لا نقع مثلهم في تلك الغفلة ، ولا يصدر منا مثل هذا المكر السيء ، رجاء أن نديم على الشكر في كل حال ، وليس جميع الناس قادرون على المداومة على ذلك ، فكثير من الناس من يمكر ويخادع في إيمانه حين يلجأ إلى الله في الشدائد وينساه في الرخاء ، فإذا منَّ الله عليه بالنجاة يعود لشركه ، بل ويخوض في البغي والإفساد في الأرض بغير حق .

وهؤلاء الماكرون يريدون بخستهم أن يجمعوا منتهى المتاع في الدنيا ، دون أن يكلفوا أنفسهم شيئا لأجل الآخرة ، ولا يلجئون إلى الله إلا عند الشدائد ، فقد نسوا لقاء الله ولا يرجونه ، واطمأنوا بالحياة الدنيا وارتضوها منهجا للحياة ، فإذا أصاب دنياهم شيء من الضر عاجلوا بالتوبة واللجوء إلى الله ، ولا يدرون أن المصيبة في دينهم وليس في دنياهم

وأمثال هؤلاء نهجهم في الحياة البحث عن أي متعة آنية وهي فانية ، ولذلك يُسمون بالنفعيين ، لأن أخلاقهم ومعاملاتهم تبتغي شيئا واحدًا تحقيق أقصى نفع واستفادة من الآخرين دونما نظر أو اعتبار لشيء آخر ، حتى لو ترتب على ذلك فساد العالم كله رجاء تحقيق مصلحتهم وحسب ، ولذلك قيل في التعريف بأخلاقهم بأن (الأخلاق النفعيّة ك–ما قدَّمها بعض الفلاسفة – هي مَنهَج وسلوك يتَّخذ من مصلحة الفرد أو المجتمع هدفاً ، والغاية هي إدراك السعادة والتقليل من الشقاء ، تلك هي الغاية القُصوى للنفعية والهدف الأسمى) [1]، وهؤلاء بحكم اللزوم هم سبب البغي في الأرض بتلك النظرة المتجردة من مراعاة الصالح العام .

قوله (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) (23) نداء تضمن عتاب من الله على مكر الناس بالتماس أسباب الإيمان حالما تتلاقى منفعة الدنيا بأعمال الآخرة ، كما في مثال السالف ذكره وهو الدعاء حال الاضطرار للنجاة ، والغرض منه تذكيرهم بخسة ما يسعون إليه من متاع الدنيا ، وتذكيرهم بعاقبة سعيهم في طريق الظلم لتحقيق منافع ذاتية ، ثم سعيهم للحفاظ على هذه المكاسب بالاجتهاد في الدعاء والتضرع إلى الله من باب المكر بدليل الانقلاب عليه بعد زوال المصيبة ، ثم المضي في الظلم حتى يظهر البغي بينهم ، وتقطع الأرحام ، ويظهر الفساد في الأرض .

قوله (إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم..) يفيد أن الأرزاق مقسومة والأقدار معلومة ، ولن يعطى أحد أكثر من رزقه ، قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إن الله أوحى إلى أن **تواضعوا حتى لا يبغى أحد على أحد** ولا يفخر أحد على أحد)[2].

فمن بغى على غيره ، واقتطع حقه منه ، فإنه يُحرم الحلال ويأتيه رزقه الذي كتبه الله له بالحرام ، وهنا يعاجل الله بعقوبة الباغي في الدنيا ، ووقوع البغي بين الناس سبب من أسباب تعجيل العقوبة بهم ، قال رسول الله ﷺ **(ما من**

---

[1]) وأسَّس لهذا المنهج العديد من المُفكّرين والفلاسفة وأبرزهم جيرمي بنثام (1748 – 1832م) الذي قدَّم منهج الأخلاق والسلوك النَّفعيّ من خلال كتابه: (مُقدّمة لأصول الأخلاق والتشريع)، ثم سارَ على هذا النهج الفيلسوف الإنكليزي جون ستيوارت ميل (1806- 1873م)، والذي ثبَّتَ مُعتقده هذا في كتابه: (مذهب المنفعة)

[2]) رواه البخاري في الأدب المفرد ج1 ص 153 رقم 428 وصححه الألباني : صحيح الأدب المفرد ج1 ص 177

ذنب أجدر أن يعجل لصاحبه العقوبة مع ما يدخر له من البغى وقطيعة الرحم) [1]، قيل في الشرح (فيُجمع له بين العقوبة الدنيوية والأخروية)[2].

أما من بُغي عليه فإنه لم يحرم رزق ، فما سلب منه لم يكن رزقه عند الله ، وإنما رزقه ما آتاه الله وحسب ، فقد كان النبي ﷺ يرتجز وهو ينقل التراب في غزوة الأحزاب ويقول (**إِنَّ الْأُلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا ..إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا**)[3].

قال ابن تيمية (وَمَتَى كَانَ مَظْلُومًا مَبْغِيًّا عَلَيْهِ وَصَبَرَ كَانَ لَهُ الْبُشْرَى مِنْ اللَّهِ، قَالَ تَعَالَى : (**وَبَشِّرْ الصَّابِرِينَ**) قَالَ عَمْرُو بْنُ أَوْسٍ : هُمْ الَّذِينَ لَا يَظْلِمُونَ إذَا ظُلِمُوا، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ فِي حَقِّ عَدُوِّهِمْ : (**وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا**) وَقَالَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا فَعَلَ بِهِ إخْوَتُهُ مَا فَعَلُوا فَصَبَرَ وَاتَّقَى حَتَّى نَصَرَهُ اللَّهُ وَدَخَلُوا عَلَيْهِ وَهُوَ فِي عِزِّهِ : (قَالُوا أَإِنَّك لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا **إنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**)[4].

والله وعد بأن ينصر من بغي عليه ، وذلك بعدما يلتمس أسباب النصر ويجاهد عدوه ، قال تعالى (ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ **ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ** إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ) (الحج 60) .

قال الشاعر:

فلا تسبق إلى أحدٍ بِبَغْيٍ ... فإنَّ البَغْي مَصرعه وخيم

وقال العتَّابي:

بَغَيْت فلم تَقَع إلاّ صَرِيعاً ... كذاك البَغْي يَصرع كلَّ باغِي[5]

ولذلك قيل (**لو بغى جبل على جبل لجعل الله الباغي منهما دكا**)[6]، وقيل (ثلاث قد فرغ الله من القضاء فيهن لا يبغين أحدكم فإن الله يقول (يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم) [يونس : 23] ولا يمكرن أحدكم فإن الله يقول (ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله) [فاطر : 43] ولا ينكثن أحدكم فإن الله يقول (فمن نكث فإنما ينكث على نفسه) [الفتح : 10] [7]، (وعلى هذا قالوا : **البغي يصرع أهله**) .

قوله (..متاع الحياة الدنيا..) يدل على أن سبب البغي هو ابتغاء الباغي متاع زائد من الحياة الدنيا ، ذلك أن النفعيين يمكرون ليحصلوا على منفعة ليست حقا لهم ، بل يقتطعونها من حقوق غيرهم ليغنموا أكبر فائدة بمكرهم ، ونسوا أنهم سوف يرجعون إلى الله تعالى ليُحاسبوا على ذلك ، فكل منفعة يُحصلونها وبال عليهم متى آلت تصرفاتهم إلى ظلم الناس والبغي على حقوقهم لإسعاد أنفسهم وحسب .

ومثال الشخصية النفعية من يتخذ من أعمال الدعوة ستارا للكسب من ورائها أو من العمل العام وسيلة للثراء والغنى ، ولذلك ذم النبي ﷺ أن يصير حال أصحابه لمثل ذلك ، فانتبهوا لنصيحة رسول الله ﷺ واحترزوا من خلط

---

[1]) رواه البخاري في الأدب المفرد ج1ص 24 رقم 29 وصححه الألباني : صحيح الأدب المفرد ج1 ص 14
[2]) عبد المحسن العباد : شرح سنن أبي داود ج28 ص 167
[3]) رواه البخاري ج9 ص 428 رقم 2625
[4]) الفتاوى الكبرى لابن تيمية ج3 ص 462
[5]) ابن عبد ربه الأندلسي : العقد الفريد ص 197
[6]) شعب الإيمان للبيهقي ج5 ص 291 رقم 6693
[7]) جامع الأحاديث للسيوطي 11 ص 427 ، الدر المنثور في التفسير بالمأثور ج5 ص 226

العمل الدعوي والعمل العام بالمنفعة والكسب الشخصي ، فعن أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيُّ قَالَ **اسْتَعْمَلَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلًا** مِنْ بَنِي أَسْدٍ يُقَالُ لَهُ ابْنُ الْأُتَبِيَّةِ عَلَى صَدَقَةٍ فَلَمَّا قَدِمَ قَالَ **هَذَا لَكُمْ وَهَذَا أُهْدِيَ لِي** فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ قَالَ سُفْيَانُ أَيْضًا فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ **مَا بَالُ الْعَامِلِ نَبْعَثُهُ فَيَأْتِي يَقُولُ هَذَا لَكَ وَهَذَا لِي ، فَهَلَّا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ فَيَنْظُرُ أَيُهْدَى لَهُ أَمْ لَا** ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَأْتِي بِشَيْءٍ إِلَّا جَاءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُهُ عَلَى رَقَبَتِهِ إِنْ كَانَ بَعِيرًا لَهُ رُغَاءٌ أَوْ بَقَرَةً لَهَا خُوَارٌ أَوْ شَاةً تَيْعَرُ ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى رَأَيْنَا عُفْرَيَّ إِبْطَيْهِ أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ ثَلَاثًا)[1] ، فهذا المثال أوضح المقصود بالنفعية ، مبينا أهمية التجرد في الإسلام ، والعلم بأن المال مال الله وأن الإنسان مستخلف فيه ، فلا يأخذه إلا بحقه ، ولا يصرفه إلا في حقه.

وفي المقابل نجد أن عمر بن الخطاب ضرب خير مثال للتجرد من المنافع المادية والمصالح الشخصية في كل عمل ليكون القصد منه مرضاة الله تعالى ، فعن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ سَمِعْتُ عُمَرَ يَقُولُ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعْطِينِي الْعَطَاءَ فَأَقُولُ **أَعْطِهِ مَنْ هُوَ أَفْقَرُ إِلَيْهِ مِنِّي** فَقَالَ **خُذْهُ إِذَا جَاءَكَ مِنْ هَذَا الْمَالِ شَيْءٌ وَأَنْتَ غَيْرُ مُشْرِفٍ وَلَا سَائِلٍ فَخُذْهُ وَمَا لَا فَلَا تُتْبِعْهُ نَفْسَكَ**)[2]، وهو ما يوضح المقصود بالتجرد ، وحد الانتفاع بالمال من غير إشراف نفس.

قوله (إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (24) تلخيص لشأن الدنيا التي طالما فتتن بها الناس بأبسط مثال ، فهي لا تساوي عند الله جناح بعوضة ، ولطالما اقتتلوا عليها ، حتى إذا حازوها ازدادت فتنتهم بها حتى اطمئنوا بها ، ولكن الله أسرع مكرا ، فيزيل الدنيا برمتها ، وهم لا يزالون يتجهزون لها .

قال الزمخشري (هذا من **التشبيه المركب** ، شبهت حال الدنيا في سرعة تَقَضّيها وانقراض نعيمها بعد الإقبال بحال نبات الأرض في جفافه وذهابه حطاماً بعدما التف وتكاثف وزين الأرض بخضرته ورفيفه)[3] .

وقال ابن القيم (شبه سبحانه الحياة الدنيا في أنها تتزين في عين الناظر فتروقه بزينتها وتعجبه فيميل إليها ويهواها اغترارا منه بها حتى إذا ظن أنه مالك لها قادر عليها سلبها بغتة أحوج ما كان إليها وحيل بينه وبينها فشبهها بالأرض التي ينزل الغيث عليها فتعشب ويحسن نباتها ويروق منظرها للناظر فيغتر به ويظن أنه قادر عليها مالك لها فيأتيها أمر الله فتدرك نباتها الآفة بغتة فتصبح كأن لم تكن قبل فيخيب ظنه وتصبح يداه صفرا منها فكذا حال الدنيا والواثق بها سواء , وهذا من أبلغ التشبيه)[4].

وهذا أشبه –فيما نراه اليوم – برزق الشاب من الصحة والمال والجمال والقوة ، إذ نراه اليوم يافعا لكنه لا يملك المال بالقدر الذي يؤهله للزواج ، فيستعين بأهله ليزوجوه ، ويسعى للكسب حتى يقدر على إعاشة عياله ، وتحسين معاشه حتى إذا أضحى يملك الكثير من المال وقد مضى عمرا اشترى ما يرغب من الديار والمراكب وتزوج ما شاء

---

1) رواه البخاري ج22 ص 100 رقم 6639
2) رواه البخاري ج5 ص 323 رقم 1380
3) الكشاف ج3 ص 9
4) التفسير القيم لابن القيم ج1 ص 470 ، إعلام الموقعين ج1 ص 153 ، الأمثال في القرآن ج1 ص 13

وأنجب الأولاد ...الخ ، وإذ به يفارق الشباب ، يكبر في العمر ، ففي الوقت الذي وجد فيه المال وأحس بالغنى ، يجد أنه بدأ يفقد الصحة والجمال والقوة شيئا فشيئا ، حتى تتلاشى قوته ، وإن زاد ماله ، فلا يستطيع أن يفعل بماله شيء ليستعيد شبابه ، وهكذا كلما كبر في العمر زاد ماله وقل جماله ، وذلك من مكر الله تعالى بالإنسان أن يعطيه شيئا ويسلبه شيئا ، ليظل يتفكر في الله المعطي المانع ، ويظل يفتقر لفضل خالقه عليه حتى يموت ، وهكذا الدنيا لا تلبث زهرتها حتى تذبل .

فقوله (إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء..) نزول المطر من السماء لينتفع به أهل الأرض يشير إلى أن الانتفاع بالعمل قد يثمر في مكان وزمان آخر غير المكان والزمان الذي حصل فيه ، وهكذا المسلم يسعى سعيا دؤوبا لغرض نبيل خالد وليس بفان ، فها هو ماء السماء ينزل إلى الأرض لينتفع به أهل الأرض ، ومثل ذلك غاية المؤمن من عمل الدنيا أن ينتفع به في الحياة الآخرة ، فكما أن ماء السماء ينفع أهل الأرض ، فكذلك عمل الدنيا ينفع المؤمن في الدار الآخرة ، فهما عالمان عالم يعمل في أحدهما ، ويحصد في الآخر منهما ثمار ما عملته يداه ، تماما مثل ماء السماء ، نزل منها ، وقد انتفع به أهل الأرض ، وهما عالمان مغايران .

وقوله (..فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ..) يوحي بتجرد عمل المسلم في الدنيا من المنافع الشخصية ، مثلما يصيب المطر الناس فينتفع به المسلم والكافر على السواء ، فالمنفعة التي تُرتجى من ماء المطر عامة ، حيث يزهو النبات ، ويأكل منه الناس والأنعام ، دون تعيين للمنتفع ، فالمنفعة تطول الجميع ، فعَنْ جَابِرٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَى أُمِّ مُبَشِّرٍ الْأَنْصَارِيَّةِ فِي نَخْلٍ لَهَا فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ مَنْ غَرَسَ هَذَا النَّخْلَ أَمُسْلِمٌ أَمْ كَافِرٌ فَقَالَتْ بَلْ مُسْلِمٌ فَقَالَ **لَا يَغْرِسُ مُسْلِمٌ غَرْسًا وَلَا يَزْرَعُ زَرْعًا فَيَأْكُلَ مِنْهُ إِنْسَانٌ وَلَا دَابَّةٌ وَلَا شَيْءٌ إِلَّا كَانَتْ لَهُ صَدَقَةً**)[1].

وقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا ، **فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ أَوْ بَهِيمَةٌ إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ**)[2]

وقوله (حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا..) هذا من مكر الله تعالى علي هؤلاء المنتفعين ، الذي غرضهم من الدنيا المتاع ، ولا غرض لهم في الآخرة ، فيفتنهم الله بزينة الأرض وزخرفها ، حتى إذا وصلت فتنتهم أن شعر أهل الدنيا بالزهو والقدرة المزيفة ، وتناسوا قدرة الله تعالى المطلقة ، أتاهم أمر الله ، أي الحساب ، فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون ، في أي حال كانوا عليه ليلا أو نهارا ، يقظون أم نائمون ، قال تعالى (**أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى** أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَآئِمُونَ (97) أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (98) **أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ** فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ) (الأعراف 99) .

قوله (..فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ..) ففي الآية تحسير على سعيهم لأجل شيء فان ، وتناسيهم حياة البقاء ، ولذلك قال رسول الله ﷺ (إِنَّ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يَرْفَعَ شَيْئًا مِنْ الدُّنْيَا إِلَّا وَضَعَهُ)[3]، وهكذا يزهد الله الناس في الدنيا بأن يسلبها منهم بعد أن يعطيهم إياها .

---

[1]) رواه مسلم ج8 ص 177 رقم 2901
[2]) رواه البخاري ج8 ص 118 رقم 2152
[3]) رواه البخاري ج20 ص 157 رقم 6020

أما إذا تأخر السلب بعد العطاء ، فحذار أن يكون ذلك من باب الاستدراج ، قال رسول الله ﷺ (**إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنْ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ** ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ) [1].

والأصل أن يدعو العبد ربه أن يزيده من النعم ، وأن يحفظها عليه فلا تزول عنه ، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ كَانَ مِنْ دُعَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ وَفُجَاءَةِ نِقْمَتِكَ وَجَمِيعِ سَخَطِكَ)[2]

قوله (كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) فعند التأمل في المثال السابق ، والتأمل في حال الذين لا يرجون لقاء الله وقد اطمأنوا بدار الدنيا ، فإنهم إذا علموا أنها لابد وأن تؤول إلى زوال ، وعندما يتفكر الإنسان في حاله ومآله ، وما كسب وما خسر ، وأنه كلما ازداد عمره نكسه الله في الخلق ، هنا لابد وأن ينصرف عن الانشغال بالدنيا التي تفنى إلى الآخرة التي تبقى ، لأن الآخرة خير وأبقى ، قال ابن عجيبة (فيعلمون أن **الدنيا سريعة الزوال ، وشيكة التغير والانتقال ، فيزهدون فيها ويجعلونها مزرعة لدار السلام** ، التي هي دار البقاء)[3]

أما الذين يفوتهم هذا الفكر فإنهم لم يتعلموا الدرس ، ولا تزال الدنيا هي شاغلهم ، وقد اطمأنوا بها ، ونسوا أن الله يستدرجهم كما في حديث النبي ﷺ السابق ذكره بشأن عطاء العاصي ما يحب (فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ) ، قال تعالى (**فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ**) (الأعراف/99).

---

[1]) رواه أحمد ج25 ص 183 رقم 16673 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة ج1 ص 773
[2]) رواه مسلم ج13 ص 283 رقم 4922
[3]) البحر المديد ج2 ص 483

المحور الرابع

عقد الله مقارنة بين أتباع الحق المهتدين ، وأتباع الظن الضالين بشركهم

من حيث جزاء الفريقين وقدرة المعبود

قال تعالى (وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى **دَارِ السَّلَامِ** وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (25) لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا **الْحُسْنَى** وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (26) وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ **سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا** وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (27)

وَيَوْمَ **نَحْشُرُهُمْ** جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ **شُرَكَاؤُهُمْ** مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (28) فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (29) هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ **وَضَلَّ** عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (30)

قُلْ **مَنْ يَرْزُقُكُمْ** مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ **وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ** فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (31) **فَذَلِكُمُ اللَّهُ** رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا **الضَّلَالُ** فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (32) كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (33)

قُلْ هَلْ مِنْ **شُرَكَائِكُمْ** مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (34) قُلْ هَلْ مِنْ **شُرَكَائِكُمْ** مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ **يَهْدِي** إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (35) وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ **الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا** إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (36)

لا شك دعوة الله الناس للإيمان به عامة ،وهدايته للصراط خاصة بمن أحسن العمل فضلا ومنة ، أما الذين كسبوا السيئات بأيديهم فلابد من أن يجازوا بالسيئة سيئة مثلها عدلا ولا ظلم ، إذ يقيم الله عليهم الحجة يوم القيامة كما أقامها عليهم في الدنيا ، فيزيلهم عن المؤمنين ، ويجمعهم وما كانوا يعبدون من دون الله ، ويشهد الله عليهم ، وينكشف لكل نفس ما عملت من عمل ، فهو معروض عليها أمام الله تعالى ، فيشعرون بالخزي والندامة ، أن اتخذوا من دون الله أولياء ، والله هو الولي الحق .

وهنا يبكت الله هؤلاء المشركين بأسئلة تقريرية عمن يرزقهم ومن يعطيهم حواس السمع والبصر ومن يحيي من عدم ، ومن الذي يقهر الحي بالموت ، ومن يدبر أمورهم وشئونهم وما حولهم من الملكوت ، فتكون الإجابة التقريرية ، ذلكم الله بربكم الحق ، أي ما يعجز عن فعل شيء من ذلك فليس بإله حق ، فعلام يختلفون إلى ملل وعقائد شتى ؟ إلا أن يكون فسقهم هو الذي صدهم عن الإيمان بالله ، فإن عجزوا عن أن ينسبوا لمعبوداتهم شيء من قدرة الله تعالى ، وهم عاجزون ، فليأتوا بمنهج فيه الهداية للبشر ، فإن عجزوا مرة أخرى وهم عاجزون ، فلابد وأن ينتبهوا إلى ما هم فيه من ضلال مبني على الظن ، وعدم اليقين وأمور الاعتقاد تبنى على اليقين وليس الشك

قوله (وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)(25) التفات إلى ما يدعو إليه الله تعالى من الحياة الخالدة ، تلك التي لا كدر فيها ولا نغص ، ولا مرض فيها ولا هرم ، كلها سلام ، قال ابن القيم (لما كانت الدنيا عرضة لهذه الآفات والجنة سليمة منها قال تعالى (والله يدعوا إلى دار السلام) **فسماها هنا دار السلام لسلامتها من هذه الآفات** التي ذكرها في الدنيا) [1]، أي أن تسمية الحياة الأخروية في الجنة بدار السلام للتنبيه على (السلامة من الفناء وجميع الآفات) [2]، فعن معاذ بن جبل – رضي الله عنه – :أن رسول الله ﷺ قال «**يدخل أهلُ الجنة جردا مردا مُكَحَّلين ، أبناء ثلاثين ، أو ثلاث وثلاثين سنة**» [3].

والصراط المستقيم هو ذلك الطريق الذي يهدي إلى الجنة ، فليس ثمة طريق للجنة غير التزام شرع الله الذي لا اعوجاج فيه ولا مكر ،بإتيان الصالحات ويتقدمها الشكر في السراء ،والصبر على الضراء ،دون افتتان بالنعمة ،ولا جزع عند المصيبة.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِنَّ اللَّهَ ضَرَبَ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا عَلَى كَنَفَيْ الصِّرَاطِ زُورَانِ لَهُمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ عَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ وَدَاعٍ يَدْعُو عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ وَدَاعٍ يَدْعُو فَوْقَهُ "وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ" ، وَالْأَبْوَابُ الَّتِي عَلَى كَنَفَيْ الصِّرَاطِ حُدُودُ اللَّهِ ، فَلَا يَقَعُ أَحَدٌ فِي حُدُودِ اللَّهِ حَتَّى يُكْشَفَ السِّتْرُ ، وَالَّذِي يَدْعُو مِنْ فَوْقِهِ وَاعِظُ رَبِّهِ)[4].

وفي رواية عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَعَلَى جَنْبَتَيْ الصِّرَاطِ سُورَانِ فِيهِمَا **أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ** وَعَلَى الْأَبْوَابِ **سُتُورٌ مُرْخَاةٌ** وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ أَيُّهَا النَّاسُ ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا وَلَا تَتَفَرَّجُوا ، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ جَوْفِ الصِّرَاطِ ، فَإِذَا أَرَادَ يَفْتَحُ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ ، قَالَ **وَيْحَكَ لَا تَفْتَحْهُ فَإِنَّكَ** إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ

وَ"**الصِّرَاطُ**" الْإِسْلَامُ

وَ"**السُّورَانِ**" حُدُودُ اللَّهِ تَعَالَى

وَ"الْأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ" مَحَارِمُ اللَّهِ تَعَالَى

وَذَلِكَ "**الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ**" كِتَابُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ

وَ"**الدَّاعِي فَوْقَ الصِّرَاطِ**" **وَاعِظُ اللَّهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ**)[5]

---

[1]) التفسير القيم لابن القيم ج1 ص 470 ، إعلام الموقعين ج1 ص 153 ، الأمثال في القرآن ج1 ص 13
[2]) البحر المديد ج2 ص 483
[3]) رواه الترمذي ج9 ص 97 رقم 2468 وحسنه الألباني ج6 ص 45
[4]) رواه الترمذي ج10 ص 83 رقم 2786 وصححه الألباني : صحيح وضعيف سنن الترمذي ج6 ص 359
[5]) رواه أحمد ج36 ص 32 رقم 16976 وصححه الألباني : صحيح الترغيب والترهيب ج2 ص 294 رقم 2348

قال الطحاوي وقفنا على قوله (واعظ الله في قلب كل مسلم) ما هو حقيقته ؟ فنظرنا في ذلك فوجدنا الواعظ من الآدميين هو الذي ينهى الناس عن الوقوع فيما حرم الله تعالى عليهم فعقلنا)[1] .

قال الشيخ محمد المنجد (أي مسلم يريد أن يقدم على معصية وكان من الذين في قلوبهم خوفٌ من الله، لا بد أن يكون هناك شيء في قلبه وضميره يعظه ويقول له: لا تفعل حتى لو وقع في المعصية؛ لأن النفس الأمارة بالسوء غلبت واعظ الله في قلبه، وإلا فواعظ الله موجود ، فالتربية الإيمانية تهدف إلى تقوية واعظ الله؛ حتى يتغلب واعظ الله على النفس الأمارة بالسوء)[2].

قوله (...وَيَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)(25) قال ابن القيم (عمَّ بالدعوة إليها (أي الجنة) ، فذلك عدله ، وخص بالهداية من شاء ، وهذا فضله) [3] .

وقال حقي (فالله تعالى هو الداعي وهو المجيب بالهداية)[4]، قال ابن القيم (فعم بدعوته البيان والدلالة وخص بهدايته التوفيق والإلهام)[5].

قوله (لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (26) هذا هو مقام المحسنين يوم القيامة ، بأن يجزيهم بالإحسان إحسانهم ، فيرون ربهم فيزدادون حسنا وجمالا ، فعَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ قَالَ يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى **تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ** فَيَقُولُونَ أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنْ النَّارِ قَالَ **فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ** فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ **مِنْ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ** عَزَّ وَجَلَّ ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ (لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ)[6] .

قوله (..وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ..) أي فلا يعلو وجوههم آثار علامات البؤس من رؤية النار ، ولا هوان وضعف من مشقة عمل ، فالجنة جزاء بلا عمل ، لاسيما بعد نظر أهل الجنة لوجه ربهم تعالى ، فإن وجوههم تزداد نضرة ، قال تعالى (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) (القيامة/23) ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى، أَنَّهُ تَلا هَذِهِ الآيَةَ "وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ " أي "بَعْدَ نَظَرِهِمْ إِلَى رَبِّهِمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى"[7]، فلا يرى على وجوههم أثر تعب السنين ولا ذلة الأحزان ، ولذلك قال ابن عباس في قوله (وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ) (بعد نظرهم إلى ربِّهم)[8].

قوله (..أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (26) فالإشارة لهم باسم الإشارة للبعيد يفيد علو منزلتهم ورفعة شأنهم مقارنة بغيرهم ممن دخلوا الجنة ، ووصفهم بأنهم أصحاب الجنة يدل على شدة **الاختصاص، الملازمة، والاستقرار**؛ فهم أهلها وسكانها الملازمون لها الذين لا يبغون عنها حولاً ، وجملة الحال (هم فيها خالدون) يدل على أنهم بعد رؤيتهم لربهم سوف يخلدون بهذا النعيم فلا تنقطع عنهم رؤيته أبدا ، قال ابن عجيبة (هم خالدون في نعيم

---

[1]) بيان مشكل الآثار للطحاوي ج5 ص 171
[2]) دروس الشيخ محمد المنجد درس 178 ص 3 مفرغا الشبكة الإسلامية
[3]) التفسير القيم لابن القيم ج1 ص 470 ، إعلام الموقعين ج1 ص 153 ، الأمثال في القرآن ج1 ص 13
[4]) تفسير روح البيان ج5 ص 329
[5]) مدارج السالكين ج3 ص 494
6) رواه مسلم ج1 ص 423 رقم 266
[7]) تفسير ابن أبي حاتم ج8 ص 29
[8]) تفسير الطبري ج15 ص 73

الفكرة والنظرة)[1]، فتقديم الجار والمجرور على المبتدأ يفيد الاختصاص ، وهي جملة تقع في محل نصب **حال** مؤكدة لصاحبها، أو خبر ثانٍ، لبيان هيئة هؤلاء المؤمنين في الجنة. وهي بمثابة التتميم والبيان لجملة "أصحاب الجنة" لرفع أي توهم بانقطاع نعيمهم .

قوله (وَالَّذِينَ كَسَبُواْ السَّيِّئَاتِ جَزَاء سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (27) تلك هي الصورة المقابلة لبيان حال من كسب السيئة بدل الحسنة ، فيظنه مكسبا ، فإذا به يجازى بالرهق والذلة ، أي يبدو على وجوههم الهوان والمذلة ، فتكون سوداء مظلمة مثل الليل المظلم ، كما في قوله (وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ) [عبس : 40] .

قوله (..مَّا لَهُم مِّنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ..) (27) والمعنى أنهم لم يعملوا حسنة تعصمهم من عذاب الله وتكون سببا لوقايتهم من النار ، **وخير عاصم من الله هو الاعتصام به** ، قال تعالى (**واعتصموا بالله** هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير (الحج : 78) ، والاعتصام بكتابه الكريم ، فهو خير عاصم ، قال تعالى (**وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللهِ** جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ) (آل عمران 103) .

كذلك يحيط قدر الله بعباده – في الدنيا– خيره وشره ، فلا يدفعه دافع ، ولا يرده راد ، فإذا نزل القدر فهو كالسهم يصيب ولا يخطئ ، كما في قوله (قُلْ **مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ** إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا) (الأحزاب 17) .

قوله (..كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا..) أي كأنما غطى ظلام وجوههم مثلما يغطي الليل الكون كله بالظلام عندما يحل ، فيكسو الأجسام سواد مظلم ، قال تعالى (يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا **الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ** أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ) (آل عمران 106) ، قال القطان أي (أن وجوههم مسودّةٌ عليها الغمُّ والكآبة كأنما أُسدل عليها سوادٌ من ظلمة الليل)[2]، فذلك التصوير يبين **مدى الكآبة** التي أصبحوا عليها — يوم القيامة – بعدما فرحوا — في الدنيا – بالسيئات واطمأنوا بها.

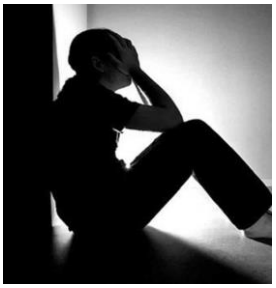
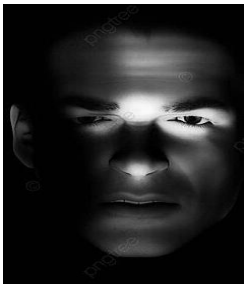

قوله (..أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (27) وهذا من مكر الله بهم ، إذ يوفيه حسابهم – يوم القيامة – بعدما اطمأنوا بالدنيا ، ولم يرجو لقاء الله ، فلا يجدوا في الآخرة شيئا يجازون به ، قال تعالى (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ

[1]) البحر المديد ج2 ص 485
[2]) تفسير القطان ج2 ص 189

كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ) (النور/39) ، فلا يجدون شيئا من أعمالهم يجازون به غير النار ، وقد أذهبوا طيباتهم في الحياة الدنيا ، يقول تعالى (وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ **أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ** فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ) (الأحقاف20) .

قوله (وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ..) (28) أي يوم القيامة يحشر الله كل صنف من الناس مع من أحب ، ، قال رسول الله ﷺ **(من أحب قوما حشر معهم)**[1] ، ويشهد لصحة المعنى ما رواه البخاري عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَتَى السَّاعَةُ قَائِمَةٌ قَالَ (وَيْلَكَ وَمَا أَعْدَدْتَ لَهَا) قَالَ مَا أَعْدَدْتُ لَهَا إِلَّا أَنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ قَالَ (**إِنَّكَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ**)[2].

والمعنى أي: (**الزموا** أنتم وهم **مكانًا** معينًا ، **امتازوا فيه عن مقام المؤمنين**)[3] ، ووجه تسمية معبوداتهم بشركائهم كما قال المفسرون (سماهم شركاءهم ، لأنهم أشركوهم في أموالهم)[4] ، أي جعلوا لهم نصيبا في أموالهم وأولادهم ..الخ ، كما في قوله (وَجَعَلُواْ لِلّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَذَا لِلّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللّهِ وَمَا كَانَ لِلّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَآئِهِمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ) (الأنعام 136).

فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ ذَكَرَ **الصَّلَاةَ** يَوْمًا فَقَالَ **مَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا** كَانَتْ لَهُ نُورًا وَبُرْهَانًا وَنَجَاةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ **وَمَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهَا** لَمْ يَكُنْ لَهُ نُورٌ وَلَا بُرْهَانٌ وَلَا نَجَاةٌ وَكَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ قَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَأُبَيِّ بْنِ خَلَفٍ)[5] ، فهؤلاء جميعا يحشرون معا في مكان واحد يوم القيامة **رغم اختلاف أزمانهم وأحقابهم** لاشتراكهم في العمل ، قال الذهبي (وإنما يُحشر تارك الصلاة مع هؤلاء الأربعة؛ لأنه إنما يشتغل عن الصلاة بماله أو بملكه أو بوزارته أو بتجارته، فإن اشتغل **بماله** حُشر مع قارون، وإن اشتغل **بملكه** حُشر مع فرعون، وإن اشتغل **بوزارته** حشر مع هامان، وإن اشتغل **بتجارته** حُشر مع أبي بن خلف تاجر الكفار بمكة)[6].

قوله (..فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ..) (28) أي بهذا التصنيف الذي في الحشر مايز الله تعالى بين الفريقين كما في قوله **(وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ)** [يس:59] ، أي تميزوا عن المؤمنين كفريق مفترق عنهم ، وقوله (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ **يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ)** [الروم:14] ، ، وقوله **(يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ)** [الروم:43].

قوله (..وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ) (28) هنا تتبرأ معبوداتهم منهم ، سواء أكانوا قد عُبدوا بعد أن حملوا الناس على عبادتهم ، أمثال فرعون وكذلك الشيطان ، كما في قوله (كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ **إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ** فَلَمَّا

---

[1]) رواه الحاكم في المستدرك بلا سند ج3 ص 18 رقم 4294
[2]) رواه البخاري ج19 ص 143 رقم 5701
[3]) تفسير ابن كثير ج4 ص 264
[4]) تفسير العز بن عبد السلام ص323 ، الماوردي النكت والعيون ج1 ص 446 ، الخازن ج2 ص 464
[5]) رواه أحمد في مسنده ج11 ص 141 رقم 6576 وصححه الألباني في مشكاة المصابيح ج1 ص 127 وقال رواه أحمد والدارمي والبيهقي في شعب الإيمان ، ثم تراجع الألباني في التصحيح ضعفه الألباني في كتابه "ضعيف الجامع" (2851) ، رجال أحمد ثقات
[6]) الكبائر للذهبي ج1 ص 17

كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ) (الحشر 16) ،وكما ورد في قوله تعالى (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا **اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ** وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (12) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ) (العنكبوت 13).

أم عُبدوا وكانوا يتبرؤون من عبادتهم مثل عيسى بن مريم ، والملائكة ، فقد قال لعيسى ابن مريم (وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ **أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ** مِن دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ) (المائدة/116) ، وكذلك كما ورد في قوله تعالى للملائكة (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ **أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ** * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم **بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ** أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ) (سبأ/41) .

قوله (فَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ) (29) فهذا القول **منسوب إلى الذين عُبدوا من دون الله تعالى** ، فينكرون هذه العبادة ، ويتبرؤون منها ، ويجعلون الله شهيدا على ذلك ، ولذلك يقول عيسى بن مريم (**مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ** وَكُنتُ عَلَيْهِمْ **شَهِيدًا** مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ **عَلَيْهِمْ** وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ **شَهِيدٌ**) (المائدة/117) .

عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ:"يَأْتِي عَلَى النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ **سَاعَةٌ يَرَى فِيهَا أَهْلُ الشِّرْكِ أَهْلَ التَّوْحِيدِ** يُغْفَرُ لَهُمْ، فَيَقُولُونَ: (رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ)(الأنعام 23) ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: " انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ " (الأنعام 24) ، ثُمَّ يَكُونُ مِنْ بَعْدَهَا سَاعَةٌ فِيهَا شِدَّةٌ **تُنْصَبُ لَهُمُ الآلِهَةُ** الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، فَيَقُولُ: (هَؤُلاءِ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ)، فَيَقُولُونَ: (نَعَمْ، هَؤُلاءِ الَّذِينَ كُنَّا نَعْبُدُ) ، فَتَقُولُ لَهُمُ الآلِهَةُ: (وَاللَّهِ مَا كُنَّا نَسْمَعُ وَلا نُبْصِرُ وَلا نَعْقِلُ، ولا نعلم إِنَّكُمْ تَعْبُدُونَنَا)، فَيَقُولُونَ: (بَلَى وَاللَّهِ إِيَّاكُمْ كُنَّا نَعْبُدُ) ، قَالَ: فَيَقُولُ لَهُمُ اللَّهُ:" فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنَّ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ"[1].

قوله (هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّواْ إِلَى اللهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ) (30) أي يختبرهم الله تعالى يوم القيامة اختبارًا يكشف عن آخر كذبهم ، ويقيم عليهم الحجة مرة أخرى يوم القيامة كما أقامها عليهم في الدنيا حيث يأتي بمعبوداتهم ليرى هل يتبعونهم ؟ أم ينتظرون ربهم ؟

قال رسول الله ﷺ (إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ **تَتْبَعُ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ** فَلَا يَبْقَى مَنْ كَانَ يَعْبُدُ غَيْرَ اللَّهِ مِنْ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْصَابِ إِلَّا يَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ بَرٌّ أَوْ فَاجِرٌ وَغُبَّرَاتُ أَهْلِ الْكِتَابِ

فَيُدْعَى الْيَهُودُ فَيُقَالُ لَهُمْ مَنْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ قَالُوا كُنَّا نَعْبُدُ عُزَيْرَ ابْنَ اللَّهِ فَيُقَالُ لَهُمْ كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ فَمَاذَا تَبْغُونَ فَقَالُوا عَطِشْنَا رَبَّنَا فَاسْقِنَا فَيُشَارُ أَلَا تَرِدُونَ فَيُحْشَرُونَ إِلَى النَّارِ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ

1) تفسير ابن أبي حاتم ج8 ص 32

ثُمَّ يُدْعَى النَّصَارَى فَيُقَالُ لَهُمْ مَنْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ قَالُوا كُنَّا نَعْبُدُ الْمَسِيحَ ابْنَ اللَّهِ فَيُقَالُ لَهُمْ كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ فَيُقَالُ لَهُمْ مَاذَا تَبْغُونَ فَكَذَلِكَ مِثْلَ الْأَوَّلِ)[1].

قوله (..وَرُدُّواْ إِلَى اللهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ) (30) ففي الحديث المتقدم ذكره يقول ﷺ (حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ مِنْ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ أَتَاهُمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ فِي أَدْنَى صُورَةٍ مِنْ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا فَيُقَالُ مَاذَا تَنْتَظِرُونَ **تَتْبَعُ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ** قَالُوا فَارَقْنَا النَّاسَ فِي الدُّنْيَا عَلَى أَفْقَرِ مَا كُنَّا إِلَيْهِمْ وَلَمْ نُصَاحِبْهُمْ وَنَحْنُ نَنْتَظِرُ رَبَّنَا الَّذِي كُنَّا نَعْبُدُ فَيَقُولُ أَنَا رَبُّكُمْ فَيَقُولُونَ لَا نُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا)[2].

وقد تهكم الله تعالى أنهم طلبهم الولاية من غيره حتى في الآخرة ، فذكرهم بأنهم يردون إليه بصفته (مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ) أي هو الأولى بالولاية من غيره لكنهم لم يطلبوا الولاية منه ، والتمسوها من غيره ، فضل عنهم أولياؤهم من الشركاء الذين كانوا يفترونهم على الله .

قوله (..وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ) (30) أي ينكشف شركهم يوم القيامة وما كانت تعمل النفوس من أعمال كانت لا تصل إلى الله وكانت تصل إلى شركائهم ، (**فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللهِ وَمَا كَانَ لِلّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَآئِهِمْ**) (الأنعام/136) قال النحاس (سموا شركاء لأنهم جعلوا لهم نصيبا من أموالهم فقالوا هم شركاؤنا فيها)[3]، أي أشركوهم في أموالهم وضيعاتهم وتجاراتهم لإرضائهم ، فلن ينفعونهم في الدنيا وضلت كذلك عنهم منفعتهم في الآخرة ، فخسروهما معا .

قال أهل الإشارة (من أحب شيئًا –لذاته– فهو عبد له ، ويوم القيامة يتبرأ منه ، ويرى وبال فتنته والاشتغال به ، فينبغي لمن أراد السلامة من الفتنة ، أن يُفرد الله بالمحبة ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، ويتبرأ من كل ما سواه ، ولا يشتغل ظاهرًا ولا باطنًا إلا بما يقربه من الله ويبعده عما سواه) [4] ، ففي الحديث : « تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ»[5] .

قوله (قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ) (31) قال الشنقيطي (صرح بمثل هذا في آيات كثيرة كقوله: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) [40/30]

وقوله تعالى: (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرّاً وَلا نَفْعاً وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلا حَيَاةً وَلا نُشُوراً) [3/25]

وقوله: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) [3/35]،

وقوله: (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ) [17/16]

---

[1]) رواه البخاري ج14 ص 74 رقم 4215
[2]) رواه البخاري ج14 ص 74 رقم 4215
[3]) إعراب القرآن ج2 ص 97
4) ابن عجيبة : البحر المديد ج2 ص 134 وفيه بعض التصرف مني
5) رواه البخاري ج10 ص 11 رقم 2673 واللفظ له ، ورواه ابن ماجة ج12 ص 164 رقم 4125 وصححه الألباني : صحيح ابن ماجة ج2 ص 398

وقوله: (أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ) [16/13]
وقوله: (قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ) [38/39]
وقوله: (أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ) [21/67]
وقوله: (إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ) [17/29]. [1]

أكد علماء التوحيد علي أن هذه الآية جمعت الإقرار بأركان توحيد الربوبية، وتفصيل ذلك على النحو التالي : –

وقوله (قُلْ مَنْ **يَرْزُقُكُمْ** مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)(13) فيه إثبات الرزق له جل وعلا، وأنه هو الرازق ، فتضمن ذلك علاج لإشكالية الشرك بالله تعالى ، بلفت أنظارهم –ابتداء– إلى حقيقة الرزق الذي يأتيهم من السماء والأرض ، ومن أين جاء مصدره ، ومن الذي رزقهم به .

وقوله (أَمَّنْ **يَمْلِكُ** السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ) هذا فيه إثبات الملك لله ، فإن لم يقروا بذلك فإنه الله تعالى يهددهم بقوله (أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ) إن شاء أبقاها لكم وإن شاء سلبها منكم [2]، فلو أنكروا ذلك لقدر الله تعالى على إذهاب أسماعهم وأبصارهم لعدم انتفاعهم بها في رؤية آياته والسماع لها.

وقوله (وَمَنْ **يُخْرِجُ الْحَيَّ** مِنَ الْمَيِّتِ **وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ** مِنَ الْحَيِّ) فيه إثبات الخلق، وفيه أيضاً إثبات البعث بعد الموت ، انظر كيف أنه سبحانه قادر على أن يخرج الحي من الميّت ، (والمقصود بـ (الميّت) الحي الذي سوف يموت ، و(الميْت) بخلافه ، فهو الذي حاله وقت الكلام انتهاء الحياة فيه ، يقول سبحانه (أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ) (الأنعام/122) [3]، ولذلك قال بعدها (وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ) فالمولود كذلك هو ميت حيث سوف يكون ميتا في نهاية حياته في هذه الدنيا ، ولذلك قال سبحانه (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ) (الزمر/31) ، فهو سبحانه يخاطب النبي ﷺ وهو حي بأنه سوف يموت بوصفه (ميّت) ، كما يخاطب أصحابه بوصفهم ميتون ، أي سيصيرون إلى زوال ، فعلام الاقتتال على الدنيا والتنافس فيها .

ذكر أحد قصة فقال (امرأة حامل ماتت ، فأخرجوا جنينها من بطنها بعد وفاتها، فما أشبه حال هذا الطفل بنبتة خضراء فى أعلى جبل أجدب ، كيف أوصل الله الماء إلى هذه النبتة في أعلى الجبل كى تورق وتثمر ، فالله قادر على أن يحفظ أسباب الحياة لجنين فى رحم أمه الميتة ، فهو وحده يخرج الحى من الميت!)[4]

وقوله (وَمَنْ **يُدَبِّرُ** الْأَمْرَ) فيه إثبات التدبير، وأن الله سبحانه وتعالى هو المدبر، قال الألوسي (أي ومن يلي تدبير أمر العالم جميعاً وهو تعميم بعد تخصيص ما اندرج تحته من الأمور الظاهرة بالذكر ، وفيه إشارة إلى أن الكل منه سبحانه وإليه وأنه لا يمكنكم علم تفاصيله)[5]

---

[1]) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ج2 ص 155
[2]) أيسر التفاسير للجزائري ج2 ص 130
3) د/ زكى نجيب محمود صدر عن مكتبة الأسرة عام 1995بعنوان "رؤية إسلامية" : https://www.alkhaleej.ae
4) الصحفي بجريدة الأهرام ، أ/ أنور عبد اللطيف ، 9رمضان 1440 هـ 14 مايو 2019 السنة 143 العدد 48371 - معنى الآية أنه.. (يخرج الحى من الحى)
[5]) تفسير الألوسي ج7 ص 492

وهكذا يدبر الله الكون ، ويسير الأحداث وفق تقديره وتدبيره المحكم ، وقد ينسب التدبير لغير الله مجازًا باعتبار المباشرة ، كما في قوله (والمدبرات أمرا) ، قال ابن القيم (فهو المدبر أمرا وإذنا ومشيئة والملائكة المدبرات مباشرة وامتثالا ،.. ولهذا يضيف التدبير إلى الملائكة تارة لكونهم هم المباشرين)[1] ، قال ابن عثيمين (وأما تدبير الإنسان؛ فمحصور بما تحت يده ومحصور بما أذن له فيه شرعا)[2] ، (فالمدبر للأمور هو الله وحده ، وغيره عاجز عن تدبير نفسه فضلاً عن غيره)[3].

قال الشيخ خالد المصلح (هذه الأمور الأربعة هي أركان توحيد الربوبية، ولا يستقر ولا يستقيم الإقرار بتوحيد الربوبية إلاَّ بهذه الأمور، مع إضافة (الإحياء والإماتة) ، وأن الله جل وعلا يبعث الناس بعد موتهم ، فإذا سئل هؤلاء عن هذه الأمور فجوابهم ما ذكره الله جل وعلا (فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ) (14) [4]

فقوله (..فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ) (31) أي أنهم لا يملكون إنكار قدرة الله تعالى الظاهرة من حولهم وفي حياتهم ، فعلام – إذن– الخروج على منهجه وعدم الانصياع لأوامره ، فالذي يقر بربوبية خالقه لابد وأن يصل كذلك إلى الإقرار بألوهيته ، فلا يخالفه ويعصيه ، بل ينصاع لأوامره ويعبده حق عبادته ، ولا يصرفها لغيره ، فالإقرار بالربوبية يتقضي حتما الإقرار بالألوهية لمن وقر في قلبه التقوى منه سبحانه .

قوله (فَذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ..) (32) "ذلكم" (إشارة إلى من اختص بتلك الأوصاف السابقة) [5]، **فهو الأحق بأن يُعبد دون غيره** ، يقول القطان (المتّصف بكل تلك الصفاتِ السالفة هو الله المربّي لكم بِنِعمه والمدبّر لأموركم ، وهو الحقُ الثابت بذاتِه ، والذي تجب عبادتُه دون سواه ، ليس بعد الحق من توحيد الله وعبادته إلا الضلال ، وهو الشِرك بالله وعبادة غيره ، فكيف تتحوّلون عن الحقّ الى الباطل!؟)[6].

قوله (..فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ..) (32) **ينفي أن يكون للحق وجهان في أمور الاعتقاد** ، قال أبو حيان (والآية إنما مساقها في الكفر والإيمان ، وليس مساقها في الأمور الفرعية التي تختلف فيها الشرائع ، وتختلف فيها أقوال علماء ملتنا)[7]، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ (أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَّاعِرُ كَلِمَةُ لَبِيدٍ **أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ** ، وَكَادَ أُمَيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ أَنْ يُسْلِمَ)[8].

فالإله إله واحد ، فهو حق واحد ، وغيره من المعبودات باطلة ، فإذا عُرف الحق ، فخلافه باطل ولا شك ، ومن عرف طريق الحق تعين عليه التزمه ، ولم ينشغل بغيره .

---

[1]) إغاثة اللهفان ج2 ص 130
[2]) مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين ج9 ص 3
[3]) مؤلفات الشيخ محمد بن جميل زينو ج2 ص 8
[4]) شرح القواعد الأربعة ج1 ص11
5) البحر المحيط ج6 ص 311
6) تفسير القطان ج2 ص 190
[7])أبو حيان : البحر المحيط ج6 ص 311
[8]) رواه البخاري ج12 ص 212 رقم 3553

قوله (..فَأَنَّى تُصْرَفُونَ) (32) أي إلى أين تذهب قلوبكم فتنشغلون بعبادة غير الله ، فيا من أقررتم بأن الله خالقكم وأنه خالق الكون ، ومدبره ، وأنه هو الذي يرزقكم علام تنصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره ، وقد أقررتم بذلك كله ؟، كالذي يسير في الطريق إلى وجهة محددة ، وقد علم وجهته وأيقن الطريق ، علام يترك طريقه ، ويسير في اتجاه آخر ؟

قوله (كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُواْ أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ) (33) قَالَ الأصبهانيُّ (**الفِسْق أعمُّ من الكُفْر**، والفِسْقُ يقعُ بالقَليلِ من الذُّنُوبِ وبالكَثيرِ، ولكِن تُعورِفَ فِيمَا كانَ بكَثيره ، وأكثرُ مَا يُقالُ الفاسِقُ لمنْ التَزَم حُكمَ الشّرع وأقرّ بِهِ ثمَّ أخلّ بجَميعِ أحكامِه أَو ببَعْضِها ، وَإِذا قيل للكافِرِ الأَصْل فاسِق، فلِأنّه **أخَلّ بحُكمِ مَا ألزمَه العَقل، واقتَضَتْه الفِطْرَةُ** ، وَمِنْه قولُه تَعالى: (أفَمَنْ كانَ مؤمِناً كمَنْ كَانَ فاسِقاً لَا يسْتَوون) (فقابَلَ بِهِ الْإِيمَان، فالفاسِقُ أعمُّ من الكافِرِ، **والظالِمُ أعمُّ من الفاسِق**)[1].

وقد استبان بهذه الآية أن **الفسق يحول دون الإيمان** ، فما لكلمة الله أن تحق عليهم لولا أنهم فسقوا ، فحَق عليهم أن لا يؤمنوا بسبب فسقهم ، ومفهوم المخالفة يتقضي أن **الإيمان حق لمن لا يستكبر ولا يفسق** ، ومن لا فقد حقت عليه كلمة الله أنهم لا يؤمنون ، أي صدق قدر الله في شأنهم ، يقول ابن عاشور أن هذا التذييل (للتعجيب من استمرارهم على الكفر بعد ما ظهر لهم من الحجج والآيات، **وتأييس من إيمانهم** بإفادة أن انتفاء الإيمان عنهم بتقدير من الله تعالى عليهم فقد ظهر وقوع ما قدره من كلمته في الازل)[2]

قوله (قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ) (34) ومحل الإعجاز هنا ليس أنهم غير قادرين على البعث بعد الموت وحسب ، بل إن غاية الإعجاز هو **خلو معتقداتهم ومناهجهم من عقيدة البعث بعد الموت** ، فذلك كاف لإبطال معتقداتهم أن يظنوا أن لا حياة بعد الموت ،فهذا الظن يترتب عليه أن الكون خلق عبثا ، إذ لا حساب ولاجزاء بعد الموت ، وذلك أنهم لا يرجون لقاء الله ، فترتب على ذلك إبطالهم الحساب (إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا) (النبأ 27) ، فترتب على ذلك أن أصبحت غايتهم في الدنيا التمتع اللحظي بالحياة دونما اعتبار لأن يحاسبوا على ما كانوا يفعلون .

فكيف تقبلون أيها المشركون بهذه العقائد الخالية من التصور الكامل للحياة بعد الموت ، فهذا التصور البغيض يعني أن الإله يعبث بالخلق ، يخلقهم ثم يميتهم ولا بعث ، ولا يجوز أن ينسب للخالق العبث ، قال تعالى (**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ**) (المؤمنون 115) ، قال الشوكاني (أقام الأدلة في هذه السورة على صورة لا يمكن دفعها عند من أنصف ، ولم يكابر)[3].

قال ابن الجزي (فإن قيل : كيف يحتج عليهم بإعادة الخلق ، وهم لا يعترفون بها؟ فالجواب ، أنهم معترفون أن شركاءهم لا يقدرون على الابتداء ولا على الإعادة ، وفي ذلك إبطال لربوبيتهم ، وأيضاً فوضعت الإعادة موضع المتفق

1) تاج العروس (26/ 302)
2) التحرير والتنوير ج11 ص 75
3) فتح القدير ج3 ص 373

عليه لظهور برهانها)[1]، أي إنكم بتسليمكم بعجز آلهتكم عن فعل البعث ، وقد عُلم منطقا أن البعث حق لأنه دليل على كمال القدرة الإلهية والحكمة من الخلق ، والقول بعكس ذلك تضمن العبث والله منزه عن ذلك ، فلما كان البعث في عقيدة الإسلام ، وحساب الخلق على أفعالهم ، فليس لكم أن تشركوا أحدا مع الله في العبادة وقد افتقر لهذه القدرة.

قوله (.. فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ) (34) أي كيف تضلون والحق ظاهر كما تقدم ،أي (ذلكم المتصف بالقدرة الباهرة فأنى تصرفون عن عبادته وتوحيده والإيمان بالبعث إلى عبادة غيره واتخاذ شريك معه وإنكار البعث)[2] ، كما أن الله تعالى غني عن إشراككم لها في عبادته ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنْ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ)[3].

قوله (قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ..) (35) هنا يحاجهم الله تعالى بحجة جديدة تبين مدى خلو معتقداتهم الفاسدة ومناهجهم القاصرة مما يرشدهم إلى الحق ، حيث يبدو للمطلع عليها جنوحها للباطل ، وبُعدها عن الحق ، وخلوها من تنظيم حياة الإنسان برمتها في كافة المجالات ، حتى أنه قالوا ولعجزهم عن تنظيم منهج للبشر صالح للتطبيق قائم على معتقد أو منظور ديني "أعطوا ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله[4]"، كناية عن فصل الدين عن الدولة ، وعجزهم عن قيادة الناس وسياستهم بالدين ، فأقروا مبدأ علمانية الدولة ، وانفصالها عن الدين ، بهذا أسقطوا فروض الكفاية التي لابد من إمام ديني يأمر بها ويكلف الناس بها .

قوله (..قُلِ اللّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ..) (35) قال البيضاوي أي (بنصب الحجج وإرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام والتوفيق للنظر والتدبر)[5]، قال ابن عاشور (ومعلوم أن منة الهداية إلى الحق أعظم المنن ، لأن بها صلاح المجتمع وسلامة أفراده من اعتداء قويهم على ضعيفهم، ولولا الهداية لكانت نعمة الإيجاد مختلة أو مضمحلة)[6].

فما من مسألة يحتاجها الإنسان في حياته إلا وقد وضع الإسلام له علاجا وتنظيما وتشريعا ، قال في كتابه (مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ) (الأنعام 38) ، فالمنهج الإلهي هو المنهج الكامل والأصلح للبشر ، قال البيضاوي قوله (يهدي للحق) (الهدى) يعدى بـ "إلى" لتضمنه معنى الانتهاء ، ويعدى بـ "اللام" للدلالة على أن المنتهي غاية الهداية"[7]، ولذلك لم يقل يهدي إلى الحق ، بل قال يهدي للحق ، فالبشرية مهما عملت وحاولت واجتهدت لأن تضع ولو تشريعا واحدا بل حكما واحدا يضاهي أحكام الله لعجزت ، قال تعالى (وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا) (الفرقان 33) .

قوله (..أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) (35) فهذه الآية حجة في تحديد وجهة الاتباع ، لأنه تدل على الاتباع للنبي محمد ﷺ ، فهو الذي يهدي بكتاب الله وسنته الناس للحق ، فهو أحق أن يتبع لما معه من كتاب وحكمة ، قال تعالى (وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ

---

1) التسهيل لعلوم التنزيل ج1 ص 658
2) أبو حيان : البحر المحيط ج5 ص 221
3) رواه مسلم ج14 ص 254 رقم 5300
4) الدكتور سفر الحوالي : العلمانية :نشأتها وتطورها ج1 ص 50
5) تفسير البيضاوي ج3 ص 21
6) التحرير والتنوير ج11 ص 77
7) تفسير البيضاوي ج3 ص 21

وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ) (آل عمران 81)

فلو انشرح القلب للإيمان ، فليس بعد الانشراح والاهتداء غير الاتباع لمن أرشدهم للحق ، وتلك هي الهداية الواجبة الاتباع ، والمقصود اتباع النبي ﷺ في طريقة عبادته لله تعالى بإخلاص دون شرك ، ودون ابتداع طرق تؤدي إلى الباطل ، قال الله (لَقَدْ كَانَ **لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ** لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (الأحزاب 21) ، وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ فِي خُطْبَتِهِ يَحْمَدُ اللَّهَ وَيُثْنِي عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثُمَّ يَقُولُ «**مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلاَ مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْهُ فَلاَ هَادِىَ لَهُ** إِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ **وَأَحْسَنَ الْهَدْىِ هَدْىُ مُحَمَّدٍ** وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ وَكُلَّ ضَلاَلَةٍ فِى النَّارِ »[1].

قوله (..أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ[2] إِلاَّ أَن يُهْدَى..) (35) أي أن الذي لا يهدي للحق علام يُتبع ، ومعروف أنه إذا هدي فإنه يهدي للباطل ، ومن يتبعه يهتدي به إلى الضلال ، والاستثناء في أنه حين يهتدي هو للحق يكون حاله قد تبدل وتغير ، فيكون أهلا للاتباع بعد التوبة وحسن الإسلام ، قال ابن كثير (أَفَيُتَّبَع العبد الذي يهدي إلى الحق ويُبَصّر بعد العمى، أم الذي لا يهدي إلى شيء إلا أن يهدى لعماه وبكمه) [3].

وهكذا لم يبطل الله كلامهم إذا انضموا لصفوف المهتدين ، وأضحوا أفرادا جديدا في المجتمع المسلم ، فهذا أبو سفيان كان يدعو لحرب محمد ﷺ في بدر وغيرها ، ثم بعد أن أسلم دعا قومه للإيمان به ، ثم استكمل المسيرة بعد وفاته ﷺ حتى فقد عينيه في سبيل الله ، بل أضحى لكلامهم حجة إذا كان مستندا إلى كلام الله وسنة رسوله ﷺ ، وأضحى اتباعهم واجب باعتبارهم أهلا لهذا الاتباع ،كما قيل صلوا كما رأيتموني أصلي ، ونحو اليوم لا نرى النبي ﷺ يصلي ، ولكننا تعلمنا الصلاة من الجيل الذي يتبع أتباع النبي ﷺ وما سلف حتى جيل الصحابة التي حكوا لنا كيف كان النبي ﷺ يصلي ، فتضافرت السنة العملية مع القولية لفهم كيفية أداء الصلاة .

وهكذا يبدو أن واجب الدعوة أضحى لزاما عليهم بمجرد انضمامهم ، ولا تزال صورتهم أمام قومهم في البارحة أنهم كانوا مشركين ، ولكنهم اليوم وبعد أن دخلوا الإسلام يقومون بواجب الهداية أي بمجرد التحاقهم بطائفة المهتدين ، فالمهتدي يجب عليه يباشر واجب الدعوة في سبيل الله ، فهو أمر واجب على كل مكلف بمجرد اهتدائه للحق ، ولذلك قال النبي ﷺ بلغوا عني ولو آية ، ولذلك قالت الجن لما استمعوا للقرآن كما في قوله تعالى (وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (29) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (30) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) (الأحقاف 31).

---

1) رواه النسائي ج6 ص 58 رقم 1589

2) قال الشعراوي { لاَّ يهِدِي } تقرأ هكذا ، وللغة فيها عملية تخفيف جَرْس لسلامة نطقها واستقامة اللغة العربية ، فنحن نعرف أن { يهدي } يعنى : يهتدي . . أصلها يهْتدي . . ويهتدي فيها هاء ساكنة وتاء ودال وياء . . وفيها تقارب لمخارج الحروف ، وهذا التقارب يجعل المعنى غائماً ، والنطق ثقيلاً ، فتقوم اللغة بعملية إبدال وإدغام ، وتخلّص من التقاء الساكنين فتصل إلى مسامعنا كما أنزلها الله تعالى لسلامة النطق وجمال المعنى؛ لأن القرآن أدّب اللغة بكلام السماء؛ لتكون خالدة اللفظ

3) تفسير ابن كثير ج4 ص 267

قوله (..فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) (35) قال السعدي (فإذا تبين أنه ليس في آلهتهم التي يعبدون مع الله أوصافا معنوية ولا أوصافا فعلية تقتضي أن تعبد مع الله، بل هي متصفة بالنقائص الموجبة لبطلان إلهيتها، فلأي شيء جعلت مع الله آلهة؟)[1].

قوله (وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللّهَ عَلَيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ) (36) دليل على ضعف حجة المشركين والمبتدعين ، وأنهم لا يتبعون يقينا مؤكدا ، وإنما ظنا متوهما ، والظن إزاء الحق لا يساوي شيئا ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ (**إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ**)[2]، قال أبو حيان (ما يدركه العلم لا ينفع فيه الظن ، وإنما يدرك بالعلم واليقين)[3].

فإذا سألت أصحاب الملل الأخرى غير ملة الإسلام لوجدتهم غير مستيقنين من طريقهم ، مرتابون في سعيهم ، حتى أنهم يجعلون أحكام ملتهم ، وإن فقهوها لم يستطيعوا تبرير أحكامها ، ولذلك عندما تسأل أحدهم عن الأقانيم الثلاثة يدور ويلتف حول السؤال ، ولا يجيب بإجابة قاطعة ،وهكذا إذا سألتهم عن غيرها من المسائل الاعتقادية فضلا عن العبادات والشرائع لوجدتهم مفلسون حقا ، ولاستيقنت أنهم لا يؤمنون بعقيدة راسخة ، بل هي مجرد ظنون ألفوها وساروا على دربها لأنها صادفت مصالحهم الوقتية – هذا في ظنهم – والحقيقة أنهم فتنوا بفتنة السامري فعبدوا عجلا جسدا له خوار ، أفلا يرون أنه لا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا .

---

[1]) تفسير السعدي ج1 ص 364
2) رواه البخاري ج9 ص 283
3) البحر المحيط ج10 ص 173

المحور الخامس

حفظ الله للقرآن ، ومذاهب الكفار في التعامل معه

قال تعالى (وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن **يُفْتَرَى** مِن دُونِ اللّهِ وَلَكِن **تَصْدِيقَ** الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ **وَتَفْصِيلَ** الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (37) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ **فَأْتُواْ بِسُورَةٍ** مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (38) بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ **تَأْوِيلُهُ** كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (39)

قال تعالى (وَمِنهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ **وَمِنْهُم مَّن لاَّ يُؤْمِنُ بِهِ** وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (40) وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (41) **وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ** أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يَعْقِلُونَ (42) **وَمِنهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ** أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يُبْصِرُونَ (43) إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (44)

قوله (وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللّهِ ..) (37) فهذا القرآن معصوم أن يفترى عليه ، وأي محاولة للافتراء عليه ووضع آي مكان آية أو قول مكان قول باطلة ومحكوم عليها بالفشل ، فهو كتاب الله حفظه بنفسه ولم يوكل للبشر حفظه ، قال تعالى (**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**) (الحجر/9) ، فكتاب الله لا يداخله ما ليس فيه ، ولا يخرج منه شيء ، فهو معصوم من الحذف والإضافة والتعديل والتعطيل ، وليس الافتراء هو المنفي وحسب ، ولكن جواز وجود شيء من ذلك كله يدخل في معنى النفي ، فلا يمسه زيادة أو نقص .

قال القطان (لايصحُّ ولا يُعقل ان يفتريَ هذا القرآنَ أحد ، لأنه في إعجازه وأحكامه لا يمكن ان يكون من عند غير الله ، لما فيه من علوم عالية ، وحِكم سامية ، وتشريعٍ عادل ، وآداب اجتماعية وإنباء بالغيب من الماضي والمستقبل ، وإنما هو مصدّقٌ لما سبقه من الكتب السماوية ، فيما جاءت به من الحق)[1] .

ذلك أن الله تعالى وكل للبشر مهمة حفظ التوراة والأنجيل ولكنهم حرفوا كلام الله وبدلوه ، فاستأثر سبحانه بنفسه بحفظ كتابه المهين على ما قبله من الكتب ، ذكر العيني في شرحه للبخاري أن بعض علماء النصارى سأل محمد بن الوضاح، فقال :ما بال كتابكم معشر المسلمين لا زيادة فيه ولا نقصان، وكتابنا بخلاف ذلك ؟ فقال: لأن الله وكل حفظ كتابكم إليكم، فقال: "بما استُحفظوا من كتاب الله" ، فلما وكله إلى مخلوق دخله الخرم والنقصان) ، فتولى الله حفظه فلا سبيل إلى الزيادة والنقص فيه .

قال ابن عاشور (وهذا الكلام **مسوق للتحدي بإعجاز القرآن**، وهي مفيدة **المبالغة** في **نفي** أن يكون مفترى من غير الله، أي منسوبا إلى الله كذبا وهو آت من غيره، فإن قوله: (مَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى) أبلغ من أن يقال: (ما هو بمفترى)، لما يدل عليه فعل الكون من الوجود، أي ما وجد أن يفترى، أي **وجوده مناف لافترائه** ، فدلالة ذاته

[1]) تيسير التفسير للقطان ج2 ص 191

كافية في أنه غير مفترى ، أي لو تأمل المتأمل الفطن تأملا صادقا في سور القرآن لعلم أنه من عند الله وأنه لا يجوز أن يكون من وضع البشر)[1]

قوله (..وَلَكِن **تَصْدِيقَ** الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ **وَتَفْصِيلَ** الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ) (37) أي إنما جاء القرآن ليعيد التذكير بما طمس من علوم اعتقادية وأحكام شرعية كانت تحويها الكتب السابقة "التوراة والإنجيل" ، ولكنها اندثرت بسبب فعل الآدميين من تحريف لها ، ليعلم الناس أن مقاصد الإسلام محفوظة ، وإن طمست السطور ، فالله تعالى يأتي في كل زمان بمن يجدد هذا الدين ، فيبعث رسله تترا ، وكذا من يرسله الرسول لأداء هذه المهمة بالوكالة عنه ، ومن يرسله أتباع الرسل في كل زمان كعلماء الأمة الذين هم ورثة الأنبياء ، يقول النبي ﷺ (**إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا**)[2] ، فدين الله محفوظ في صدور المرسلين ثم العلماء الوارثين من المرسلين ، ولن يخلو زمان دون توريث لهذا الدين.

قوله (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) (38) والدليل على عدم تحريف القرآن وفشل أي محاولة للافتراء عليه ، هو إعجاز القرآن الناس أن يأتوا بمثله ، واستمرار تلاوته بحروفه المعروفة زمنا دون تحريف ، قال ابن كثير (هذا بيان لإعجاز القرآن، وأنه لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله، ولا بعشر سور، ولا بسورة من مثله، لأنه بفصاحته وبلاغته ووَجازته وحَلاوته، واشتماله على المعاني العزيزة النافعة في الدنيا والآخرة، لا يكون إلا من عند الله الذي لا يشبهه شيء في ذاته ولا صفاته، ولا في أفعاله وأقواله، فكلامه لا يشبه كلام المخلوقين)[3] .

ويعزى السبب الرئيسي في أن الغرب كفوا عن المحاولة في الافتراء عليه العجمة التي في ألسنتهم ، وإن كانوا قد تجرؤوا على الإتيان بأحكام تخالفه في تشريعاتهم الوضعية وقد نالوا من ويلاتها بسبب هذه المخالفات الشرعية فعاشوا بها معيشة ضنكا ، فالذي يريد أن يضاهي شيئا ما أو يماثله أو يقلد الصنعة ، وهو أبعد عن أصولها ، ولا يدري كنهها ، وخصائصها وصفاتها ، فذلك أشبه بمن يصنع تمثالا وهو لا يدرك أصول النحت ، ولم يحترف هذه المهنة ؟ ، كذلك المستشرقون الذي يلحدون فيه في ألسنتهم عجمة ، فهم أبعد الناس عن فهمه حتى يتمكنوا من الإتيان بمثله ، قال تعالى (وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا) (الإسراء 46).

---

1) التحرير والتنوير ج11 ص 82

وقال (فتركيب ما كان أن يفترى بمنزلة أن يقال: ما كان ليفترى، بلام الجحود، فحذف لام الجحود على طريقة حذف الجار اطرادا مع "أنْ"، ولما ظهرت "أنْ" هنا حذف لام الجحود وإن كان الغالب أن يذكر لام الجحود وتقدر {أنْ} ولا تذكر، فلما ذكر فعل "كان" الذي شأنه أن يذكر مع لام الجحود استغني بذكره عن ذكر لام الجحود قصدا للإيجاز.

وإنما عدل عن الإتيان بلام الجحود بأن يقال: ما كان هذا القرآن ليفترى، لأن الغالب أن لام الجحود تقع في نفي كون عن فاعل لا عن مفعول بما تدل عليه اللام من معنى الملك.

واعلم أن الإخبار ب {أنْ} والفعل يساوي الإخبار بالمصدر، وهو مصدر بمعنى المفعول لأن صلة: {أنْ} هنا فعل مبني للنائب. والتقدير ما كان هذا القرآن افتراء مفتر، قال إلى أن المصدر المنسبك من"أن" مصدر بمعنى المفعول كالخلق بمعنى المخلوق، وهو أيضا أقوى مبالغة من أن يقال: ما كان مفترى، فحصلت المبالغة من جهتين: جهة فعل "كان" وجهة "أن" المصدرية.

و"من" في قوله: {مِنْ دُونِ اللَّهِ} للابتداء المجازي متعلقة ب {يُفْتَرَى} أي أن يفتريه على الله مفتر. فقوله: {مِنْ دُونِ اللَّهِ} حال من ضمير {يُفْتَرَى} وهي في قوة الوصف الكاشف).

2) رواه أبو داود ج11 ص 362 رقم 3740 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة ج2 ص 148 ، المجلدات ج2ص98

3) تفسير ابن كثير ج4 ص 268

قوله (بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ..) (39) قال السعدي (بين –الله– أن الأعداء المكذبين إنما كان تكذيبهم به **لعدم إحاطتهم بما هو عليه** ، وأنهم لو أدركوه وأحاطوا به كما هو عليه لألجأهم إلى التصديق والإذعان ، فهم وإن كانت الحجة قد قامت عليهم ولكنهم لم يفقهوه الفقه الذي يطابق معناه ، ولم يعرفوه حق معرفته)[1].

وهكذا يقف اختلاف اللغة – أحيانا– أو الثقافة أو العادات والتقاليد حائلا بين الناس وفهم هذا الكتاب ، ولذلك كان لابد من بذل جهد دعوي حتى تزول تلك العوائق عن فهم كتاب الله ، ولذلك يعذرون ما لم يكن الاستكبار هو الحائل الرئيسي بينهم وبين فهم كتاب الله .

قال العلماء (هناك فرق بين **الإحاطة بعلمه** وبين **إتيان تأويله** ، فتبين أنه يمكن أن يحيط أهل العلم والإيمان بعلمه ولما يأتهم تأويله ، وأن الإحاطة بعلم القرآن ليست إتيان تأويله ، فإن **الإحاطة بعلمه معرفة معاني الكلام** على التمام **وإتيان التأويل** نفس وقوع المخبر به ، وفرق بين معرفة الخبر وبين المخبر به ، فمعرفة الخبر هي معرفة تفسير القرآن ومعرفة المخبر به هي معرفة تأويله)[2] .

والمقصود بتأويله فهم مراميه ، لاستنباط الأحكام الشرعية التي تعالج المسائل الحادثة والمستجدة إلى يوم القيامة ، وأيا كان وجه القول في ذلك ، فهو يختلف باختلاف المسألة التي يدور حولها البحث ، ولذلك قال ابن جزي (ويعني بتأويله الوعيد الذي لهم فيه) [3]، يقصد بذلك صدق ما وعد به من النصر للمؤمنين والخسران للكافرين ، وقال أبو حيان (والمعنى : ولما يأتهم تأويله ، ولما يأتهم بعد تأويل ما فيه من الإخبار بالغيوب أي عاقبته ، حتى يتبين لهم أكذب هو أم صدق؟ يعني : أنه كتاب معجز من جهتين : من جهة إعجاز نظمه ، ومن جهة ما فيه من الإخبار بالغيوب)[4].

وقد جمع الألوسي هذه الأقوال فقال ("**التأويل" نوع من التفسير** ، و"الإتيان" مجاز عن المعرفة والوقوف ، ولعل اختياره للإشعار بأن تلك المعاني متوجهة إلى الأذهان منساقة إليها بنفسها ، وجوز أن يراد بالتأويل **وقوع مدلوله** وهو عاقبته وما يؤول إليه ، وهو المعنى الحقيقي عند البعض ، فإتيانه حينئذٍ مجاز عن تبينه وانكشافه ، أي ولم يتبين لهم إلى الآن تأويل ما فيه من الأخبار بالغيوب حتى يظهر أنه صدق أم كذب ، والمعنى أن القرآن معجز من جهة النظم . والمعنى ،ومن جهة الإخبار بالغيب، **وهم فاجؤوا تكذيبه قبل أن يتدبروا نظمه ويتفكروا في معناه أو ينتظروا وقوع ما أخبر به من الأمور المستقبلة** ، ونفى إتيان التأويل بكلمة (ولَّمّاً) الدالة على توقع منفيها بعد نفي الإحاطة بعلمه بكلمة "لم" لتأكيد الذم وتشديد التشنيع ، فإن الشناعة في تكذيب الشيء قبل علمه المتوقع إتيانه ، أفحش منها في تكذيبه قبل علمه مطلقاً) [5].

---

[1]) السعدي : القواعد الحسان في تفسير القرآن ج1 ص 140
[2]) الإكليل في المتشابه والتأويل ج1 ص12
[3]) التسهيل لعلوم التنزيل ج1 ص 660
[4]) البحر المحيط ج6 ص 318 ومثله الزمخشري في الكشاف ج3 ص 18
[5]) تفسير الألوسي ج8 ص 6

والحال أنه **يستعصي عليهم دراسته لجهلهم** بأصول وآداب الدراسة ، وهي الإلمام بقواعد اللغة العربية وأصول تفسير القرآن ، وملابسات وظروف نزول كل آية منه ، وأصول الفقه وقواعد التنظير ، والنظريات العامة في الفقه الإسلامي كالعقد والمال والملكية والولاية والأهلية والخلافة وفروض الكفاية ...الخ ، ذلك أن دراسة القرآن تحتاج للعديد من المؤهلات في اللغة وعلم البيان والفقه وأصول الفقه والقراءات وعلم الحديث وأصوله وعلم الجرح والتعديل..الخ ، وهم أجهل الناس في أن يحصلوا كل هذه العلوم إلا أن يدرسوا القرآن لسنوات وسنوات وقد يستغرق ذلك منهم أعمارا طويلة ، ولا يمكن أن يفعل ذلك أحد إلا أن يكون مسلما ، ومن يفعل ذلك لابد أنه قد دخل الإسلام وحسن إسلامه ، فكيف بهم يريدون أن يأتوا بمثله وهم كافرون به .

قوله (..كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ) (39) أي أنهم إذا استمروا في تكذيب القرآن دون دراسته وتدبره وفهم معانيه ومجالسة العلماء والسماع منهم تفسيره وتأويله فشأنهم شأن الظالمين المكذبين قبلهم من الأمم السابقة كانت عاقبة أمرهم خسارًا .

قوله (وَمِنهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لاَّ يُؤْمِنُ بِهِ ..) (40) فالناس فريقان إزاء الإيمان بالقرآن الكريم ، فمنهم من يؤمن به ، وهؤلاء **هم الذين درسوه ليفهموا مقاصده** ، وليس بلازم أن يفهموا كل تفاصيله ، **فالمقاصد تكفي لأن تشرح قلوبهم للإيمان به** ، مثل العدل والمساواة والصدق والأمانة والعمل والتضحية والفداء والكرم والحب في الله والإيثار على النفس والقوة والشجاعة والقيادة والمسئولية والنظام العام والعقوبات والحدود.....الخ .

ويرجع عدم إيمان الآخرين به وتكذيبهم له (**لفرْط غباوتِهم** المانعةِ عن الإحاطة بعلمه كما ينبغي ، ولسخافة عقولِهم واختلالِ تمييزِهم وعجزِهم عن تخليص علومِه من مخالطة الظنونِ والأوهام التي أَلِفوَها فيبقون على ما كانوا عليه من الشك)[1] .

قوله (وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ) (40) فالكون مسير بتقدير من الله تعالى على نسق بديع ، لكن الإنسان حين يتدخل في هذا الكون على خلاف منهج الله وشرعه الذي شرعه في كتابه ، لابد وأن يُفسد الكون بتدخله ، كما قال الله تعالى (**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ**) (الروم 41) ، ولذلك **يقع على من يؤمن به واجبٌ أن يتدخل هو بمنهج الله ليصلح ما أفسده المفسدون** ، فلا يترك فرصة لمن لا يؤمن به كي يتدخل فيفسد ، ومن هنا ظهر منشأ الصراع بين من يصلح ومن يفسد ، أي بين الحق والباطل .

قوله (وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ) (41) تلك هي المفاصلة حال ظهور تمايز واختلاف بين البشر في معتقداتهم ، **فيتعامل الإسلام مع هذه الحالة بشيء من السلبية** ، بمعنى أنه يقر للمخالف لدين الإسلام أن يظل على حالته شريطة أن يقف هو كذلك علي الحياد ، ويتلزم ذات الموقف تجاه المسلمين ، فلا يصدهم عن عبادة ربهم ولا يصرفهم عن إقامة شعائره ، وإنما يحتفظ كل من الفريقين بالتبرؤ من دين الآخر ليتمسك هو بدينه .

---

[1]) تفسير أبي السعود ج3 ص 269

بيد أن هذه الصورة النظرية للتعايش بين المخالفين وإن كانت في الظاهر مثالية ، إلا أنها في الحقيقة قلَّما تجدها تدوم ابدا ، وإن جاز أن تحصل – ولو بصفة مؤقتة – بتوفيق من الله .

قوله (وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يَعْقِلُونَ) (42) أي من الذين كفروا كأمثال أبي سفيان وغيره[1] ، يستمعون لهذا القرآن ولكنهم لا يؤمنون ، كأنهم صم ، لم يستفيدوا من سماعه شيء فتأخر إسلام بعضهم لأجل ذلك ، وبعضهم لم يسلم مكابرة

روى أبو صالح عن ابن عباس أن أبا سفيان والوليد والنضر وعتبة وشيبة وأمية وأبياً استمعوا للرسول صلى الله عليه وسلم فقالوا للنضر : يا أبا قتيلة ما يقول محمد فقال : ما يقول إلا أساطير الأولين مثل ما أحدثكم عن القرون الماضية ، وكان صاحب أشعار جمع أقاصيص في ديار العجم مثل قصة رستم واسفنديار فكان يحدث قريشاً فيستمعون له فقال **أبو سفيان : إني لأرى بعض ما يقول حقاً**.

فقال أبو جهل : **كلا لا تقر بشيء من هذا** ،وقال الموت أهون من هذا ، فنزلت)[2].

إذن قد وصفهم بالصم رغم أنهم يستمعون إليه وبإنصات ، ونفي عنهم العقل ، (فقرن بذهاب السمع ذهاب العقل) [3]، لبيان أن **العيب لم يكن في آلة السمع** ، بل هي تعمل بأعلى كفاءة بدليل أنهم يستمعون وليس يسمعون عرضا ، كما أن عقولهم تعي ما يسمعون ، ولكن الكبر حال بينهم وبين قبوله ، يعزى ذلك أن حال الاستكبار التي كانوا عليها حالت بينهم وبين الاستماع إليه بحياد تام وبغرض معرفة الحق ، وإنما كانوا يستمعون من باب الفضول ، ولما كان السمع مدخل للعقل ، فإذا عدم السمع – بنية الفهم – عُدمت المدخلات ، فلا ينشغل العقل بشيء من المعلومات المدخلة لعلة الاستكبار ، فالذي لا يستمع للقرآن بإنصات وحيادية تامة ، لا يفقه منه شيئا وإن سمعه ، إذ لا يزال عقله قاصرا عن إدراك معانيه ، فإن الواجب على هؤلاء المكذبين أن يستمعوا للقرآن بإنصات –أولا– سماع الذي يريد أن يتعلم –دون أن يكابر– حتى تتفتح عقولهم لخطاب الشرع ، ثم تنشرح قلوبهم له ، بيد أنهم أغلقوا آذانهم وكأنهم صم ، فإذا سمعوا ترتيل القرآن بآذانهم ، لم تتفتح له قلوبهم ، فلا يعقلون منه شيئا ، ولا تصل إليهم معانيه .

ونظير ذلك قوله تعالى (وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا **عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ** وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا حَتَّى إِذَا جَآؤُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَآ إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ) [الأنعام : 25] ، فعَنِ السُّدِّيِّ قَالَ: "كَانَ **النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ** بْنِ عَلْقَمَةَ أَخُو بْنِ عَلْقَمَةَ أَخُو بَنِي عَبْدِ الدَّارِ يَخْتَلِفُ فِي الْحِيرَةِ، فَيَسْمَعُ سَجَعَ أَهْلِهَا وَكَلامَهُمْ، فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ، سَمِعَ كَلامَ النَّبِيِّ ﷺ وَالْقُرْآنَ، فَقَالَ: " قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ "[4].

وفي ذكر تأييده بمعجزة القرآن قال الشاعر العراقي : –

1– وَجَعَلَ اللَّهُ لَهُ الْقُرْآنَا: ... آيَةَ حَقٍّ أَعْجَزَتْ بُرْهَانَا

---

[1]) قاله ابن عجيبه : البحر المديد ج2 ص 135 وأبو السعود في تفسيره ج2 ص 346
[2]) البحر المحيط ج5 ص 117
[3]) بدائع الفوائد لابن القيم ج3 ص 685
[4]) تفسير ابن أبي حاتم ج7 ص 70 تفسير الطبري ج13 ص 504

2- أَقَامَ فِيْهِمْ فَوْقَ عَشْرٍ يَطْلُبُ: ... إِتْيَانَهُمْ بِمِثْلِهِ، فَغُلِبُوْا
3- ثُمَّ بِعَشْرِ سُوَرٍ فَسُوْرَةْ ... فَلَمْ يُطِيْقُوهَا، وَلَو قَصِيْرَةْ
4- وَهُمْ لَعَمْرِي الْفُصَحَاءُ اللُّسْنُ ... فَانْقَلَبُوْا، وَهُمْ حَيَارَى لُكْنُ
5- وَ (أُسْمِعُوْا) التَّوْبِيْخَ وَالتَّقْرِيْعَا ... لَدَى الْمَلاَ، مُفْتَرِقاً مَجْمُوعَا
6- فَلَمْ يَفُهْ مِنْهُمْ فَصِيْحٌ بِشَفَهْ ... مُعَارِضاً، بَلِ الإِلَهُ صَرَفَهْ
7- فَقَائِلٌ يَقُولُ: ©هَذَا سِحْرُ® ... وَقَائِلٌ: ©فِي أُذُنَيَّ وَقْرُ®
8- وَقَائِلٌ يَقُولُ مِمَّنْ قَدْ طَغَوْا: ... ©لاَ تَسْمَعُوْا لَهُ، وَفِيْهِ فَالْغَوْا®
9- وَهُمْ إِذَا بَعْضٌ بِبَعْضٍ قَدْ خَلاَ: ... إِعْتَرَفُوْا بِأَنَّ حقًّا مَا تَلاَ
10- وَأَنَّهُ لَيْسَ كَلاَمَ الْبَشَرِ ... وَأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ بِمُفْتَرِيْ
11- اِعْتَرَفَ الْوَلِيْدُ، ثُمَّ النَّضْرُ ... وَعُتْبَةٌ بِذَاكَ، وَاسْتَقَرُّوْا
12- وَابْنُ شَرِيْقٍ بَاءَ وَهُوَ الأَخْنَسُ ... كَذَا أَبُو جَهْلٍ، وَلَكِنْ أُبْلِسُوْا
13- وَكَيْفَ لاَ (وَهُوَ) كَلاَمُ اللهِ ... مُنَزَّهٌ عَنْ نِحْلَةِ اِشْتِبَاهِ
14- يَهْدِي إِلَى الَّتِي هُدَاهَا أَقْوَمُ ... بِهِ يُطَاعُ وَبِهِ يُعْتَصَمُ
15- وَهُوَ لَدَيْنَا حَبْلُهُ الْمَتِيْنُ ... نَعْبُدُهُ بِهِ وَنَسْتَعِيْنُ
16- وَهُوَ الَّذِي لاَ تَنْقَضِي عَجَائِبُهْ ... وَلاَ يَضِلُّ أَبَدًا مُصَاحِبُهْ
17- مُعْجِزَةً بَاقِيَةً عَلَى الْمَدَى ... حَتَّى إِلَى الْوَقْتِ الَّذِي قَدْ وُعِدَا

قوله (وَمِنهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يُبْصِرُونَ) (43) قال ابن عجيبة أي : (يعاينون دلائل نبوتك ، ولكن لا يصدقون ، كأنهم عمي عنها، **المقصود من الإبصار هو الاعتبار** والاستبصار ، والعمدة في ذلك **البصيرة** ، فإذا فقدت فلا اعتبار ولا استبصار ، ولذلك يُحدس الأعمى المتبصر ، ويتفطن لما لا يدركه البصير الأحمق)[1] .

فالعيب كذلك لم يكن في آلة البصر ، ولكن العيب هنا هذه المرة في البصيرة ، فإذا كان السمع آلة المثقف في التعلم وكسب الجديد ، فإن **النظر هو ألة العوام** في تعلم كل جديد ، فهو يشاهدون النبي ﷺ بينهم ، ويرون أخلاقه وقد ارتقت أعظم مراتب الحسن ، وسموه بأنفسهم الصادق الأمين ، حتى مدحه مولاه فقال **(وإنك لعلى خلق عظيم)** ، أفلا يكون ما يرونه من أخلاق عظيمة يصلح دليلا على صدقه ، أو على الأقل أن يبصروا أكثر فيعاينوا أفعاله ليجدوا فيها محاسن الأخلاق ، فعلام يكذبونه ، وهم يرون كل شيء حي أمامهم .

قوله (إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) (44) قال أسعد حومد أي (لَمْ يَكُنْ مِنْ سُنَنِ اللهِ فِي خَلْقِهِ أَنْ يُنْقِصَهُمْ شَيْئاً مِنَ الأَسْبَابِ التِي يَهْتَدُونَ بِاسْتِعْمَالِهَا إِلَى مَا فِيه خَيْرُهُمْ ، مِنْ إِدْرَاكٍ وَإِرْشَادٍ إِلَى الحَقِّ بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ ، وَنَصْبِ الأَدِلَّةِ التِي تُوصِلُهُمْ إِلَى سَعَادَتِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ . وَلَكِنَّ النَّاسَ يَتَنَكَّبُونَ عَنْ طَرِيقِ الهِدَايَةِ وَالحَقِّ ، وَيُصِرُّونَ عَلَى الكُفْرِ بِاللهِ ، وَالإِشْرَاكِ بِهِ ، فَيَظْلِمُونَ بِذَلِكَ أَنْفُسَهُمْ ، لأَنَّ كُفْرَهُمْ سَيُؤَدِّي بِهِمْ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ

[1]) البحر المديد ج2 ص 494

يَوْمَ القِيَامَةِ ، وَاللهُ تَعَالَى قَدْ أَعْذَرَ إِلَيْهِمْ ، وَبَيَّنَ لَهُمُ الدَّلاَئِلَ وَالحُجَجَ ، وَأَرْسَلَ الرُّسُلَ لِهِدَايَتِهِمْ ، وَلِذَلِكَ فَإِنَّهُ تَعَالَى لاَ يَكُونُ قَدْ ظَلَمَ النَّاسَ شَيْئاً)[1].

[1]) أيسر التفاسير لأسعد حومد ج1 ص 1409 ، **علي بن نايف الشحود** : الخصال الموجبة لدخول النار ج1 ص 5

المحور السادس

سرعة انقضاء الدنيا وكأنها ساعة من نهار ، هو ما كان يستعجله الظالمون

قال تعالى (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ **سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ** يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ (45) وَإِمَّا **نُرِيَنَّكَ** بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ **نَتَوَفَّيَنَّكَ** فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ (46) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاء رَسُولُهُمْ **قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ** وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ (47) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا **الْوَعْدُ** إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (48) قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ **لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ** إِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ (49) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ **بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا** مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (50) أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُم بِهِ آلآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ **تَسْتَعْجِلُونَ** (51) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ **ظَلَمُواْ ذُوقُواْ** عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (52) وَيَسْتَنبِئُونَكَ **أَحَقٌّ هُوَ** قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ (53) وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ **لاَفْتَدَتْ** بِهِ وَأَسَرُّواْ **النَّدَامَةَ** لَمَّا رَأَوُاْ الْعَذَابَ **وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ** وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ (54) أَلا إِنَّ لِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَلاَ إِنَّ **وَعْدَ اللّهِ حَقٌّ** وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ (55) هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (56)

قوله (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ) (45) قدَّر الله تعالى سعي الناس في الدنيا مع تفاوت أعمارهم وكأنه ساعة من نهار انقضت وبالكاد تعارفوا فيما بينهم ، فإذا ما انقضت فوجئوا بأنهم في الآخرة ، عندئذ يدرك الذين كذبوا بلقاء الله كل شيء ، ويدركون أنهم لم يكسبوا شيئا ، وفي ذلك تهوين شديد لسعة الدنيا ، فهي فقيرة بأهلها ، وتزهيد من طول الأمل فيها وهي لا تساوي عند الله جناح بعوضة .

فطول أمل الإنسان في الدنيا أبعد من أجله المحتوم ، فآماله طويلة ، وآجاله قصيرة ، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ خَطَّ خَطًّا مُرَبَّعًا وَخَطَّ وَسَطَ الْخَطِّ الْمُرَبَّعِ وَخُطُوطًا إِلَى جَانِبِ الْخَطِّ الَّذِي وَسَطَ الْخَطِّ الْمُرَبَّعِ وَخَطًّا خَارِجًا مِنْ الْخَطِّ الْمُرَبَّعِ .

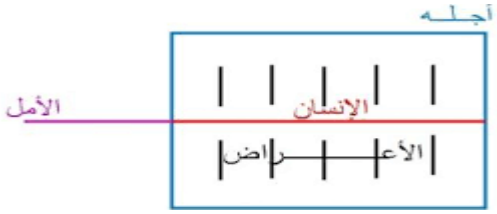

فَقَالَ أَتَدْرُونَ مَا هَذَا ؟ قَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ

قَالَ هَذَا الْإِنْسَانُ الْخَطُّ الْأَوْسَطُ وَهَذِهِ الْخُطُوطُ إِلَى جَنْبِهِ الْأَعْرَاضُ تَنْهَشُهُ أَوْ تَنْهَشُهُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا أَصَابَهُ هَذَا وَالْخَطُّ الْمُرَبَّعُ **الْأَجَلُ** الْمُحِيطُ وَالْخَطُّ الْخَارِجُ **الْأَمَلُ**)[1].

أما يوم لقاء الله يوم القيامة فإنه يقدر –عند الله– بخمسين ألف سنة ، قال سبحانه (تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ **مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**) (4) ، لكن فطوله بالنسبة للمؤمن أقل من ذلك ، قال سبحانه (أَصْحَابُ

1) رواه ابن ماجة ج12 ص 279 رقم 4221 وصححه الألباني صحيح ابن ماجة ج2 ص 414 رقم 3409

الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا **وَأَحْسَنُ مَقِيلًا**) (الفرقان:24) قال ابن باز (استنبط العلماء من مقيلا أنه يأتي نصف النهار وقد انتهى الأمر) ، أي (لا يأتي وسط النهار إلا وقد قضى الله بين الناس) هذا بالنسبة للمؤمن ، فعن أبي سعيد الخدري قال : قيل لرسول الله ﷺ يوما كان مقداره خمسين ألف سنة ما أطول هذا اليوم فقال رسول الله ﷺ والذي نفسي بيده انه ليخفف على المؤمن حتى يكون **أخف عليه من صلاة مكتوبة** يصليها في الدنيا)[1].

قوله (وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ) (46) اختصر الله تعالى على نبيه بهذه الآية مفهوم النصر ، وبين له أنه غير مكلف برؤيته ، ولا الانتقام ممن ظلمه في الدنيا ، فقد يريه الله تعالى مصارع الكافرين ، وقد يتوفاه دون أن يرى ذلك ، وليس عليه عناء أن يتكلف تحقيق ذلك .

قال الكلبي (عيرت اليهود الرسول ﷺ وقالوا : ما نرى لهذا الرجل همة إلا النساء والنكاح ، ولو كان نبياً كما زعم لشغله أمر النبوة عن النساء ، فنزلت هذه الآية) [2]، أي أن إساءتهم له حدت به أن يتربص الانتقام منهم ، لكن الله شغله بقضية الدعوة ، ولم يشغله بقضية رؤية النصر أو التشفي من أعدائه وممن آذوه ، إذ لا ينبغي لنبي أن ينشغل بمثل ذلك أو أحد من أصحابه ، فالجهاد في سبيل الله والدعوة إلى الإسلام ، كلاهما المقصد منهما إرضاء الله تعالى ، وقد رضي الله بذلك ، فليس بعد رضا الله انتظار النتائج ، فتحقيق النتائج بيد الله ، وليس شفاء الغليل من مقاصد الجهاد الأصلية ، وإن جاز اعتباره مقصد تبعي ، لقوله (ويشف صدور قوم مؤمنين).

فالقيام بواجب الدعوة والتبليغ كما قال الشعراوي (هذه هي الغاية النهائية ، وهذه لا تمنع أن نُرِيَك فيهم أشياء تُظهر عزتك وانتصارك عليهم ، وانكسارهم وذِلَّتهم أمامك ، وهذا ما حدث **يوم الفتح** يوم أنْ دخل النبي مكة منتصراً ومتواضعاً يطأطئ رأسه بأدب وتواضع؛ لأنه يعلم أن النصر من الله ، وكأنه ﷺ يقول لأهل مكة : **لقد كنتم تريدون الملْك لتتكبروا به ، وأنا أريده لأتواضع به** ، وهذا هو الفرق بين عزَّة المؤمن وعِزّة الكافر)[3].

وفي قوله (..فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ) (46) الرجوع إلى الله تأكيد على الغرض المسوق له الكلام ، أنهم سوف يحاسبون على ما كانوا يفعلون ، والله شهيد على ذلك ، قال ابن عاشور (إرجاعهم إلى الله مجمل واطلاعه على أفعالهم المكنى به عن مؤاخذتهم بها ، وهو تفصيل للوعيد المجمل)[4] ، فإذا كان ذلك كذلك فعلام استعجال المؤمنين انتقام الله من الظالمين في الدنيا ، والآخرة كافية لتحقيق هذا الجزاء ، كما قال الواحدي والمعنى (**إنْ لم ينتقم منهم في العاجل ، ينتقم منهم في الآجل**)[5].

---

[1]) رواه أحمد في مسنده ج3 ص 75 رقم 11735 واحتج به الإمام ابن باز في فتواه
[2]) البحر المحيط ج7 ص 135
[3]) تفسير الشعراوي ج1 ص 7304
[4]) التحرير والتنوير ج11 ص 97
[5]) الوجيز للواحدي ج1 ص 317

قال الزمخشري (ذكرت الشهادة والمراد مقتضاها ونتيجتها وهو العقاب ،كأنه قال : ثم الله معاقب على ما يفعلون)[1]، قال أبو السعود (**والمرادُ بالشهادة إما مقتضاها ونتيجتُها وهي معاقبتُه** تعالى إياهم وإما إقامتُها وأداؤُها بإنطاق الجوارحِ ، وإظهارُ اسمِ الجلالةِ لإدخال الروعةِ وتربيةِ المهابةِ وتأكيدِ التهديد)[2].

قوله (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ..) (47) أي رسول يقيم بينهم ، **ويبين لهم** لما في القرآن من إجمال ، وهو كذلك **كريم** لا يدخر جهدا إلا بعد أن يبين لقومه ما نزل إليهم ، **وأمين** على تبليغ الدعوة ، يؤلف بين الناس ، **ويهديهم** إلى خير ما يجتمعون عليه ، مثلما يجتمع المسلمون على صلاة الجمعة ، فعَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْدَ كُلِّ أُمَّةٍ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا وَأُوتِينَا مِنْ بَعْدِهِمْ فَهَذَا الْيَوْمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ فَغَدًا لِلْيَهُودِ وَبَعْدَ غَدٍ لِلنَّصَارَى)[3]، يقصد اهتداء المسلمين ليوم الجمعة واليهود ليوم السبت والنصارى الأحد .

ولما كان لأمتنا محمد ﷺ رسول الله وخاتم الأنبياء والمرسلين ، وليس ثمة رسول بعده ، وقد توفاه الله تعالى وأخلف بعده أصحابه ثم التابعين وتابعيهم من أهل العلم الذين بلغوا هذا الدين لمن خلفهم ، فإنه لن يعدم المبلغين عن الله ورسوله إلى يوم القيامة ، لأن العلماء هم ورثة الأنبياء ، فإذا كان لكل أمة رسول وقد توفى الله رسوله ، فإن **العلماء يحلون محل الرسول في مهمة البلاغ ، لتقوم الحجة على العالمين** .

قوله (..فَإِذَا جَاء رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ) (47) وكذلك قال الله (لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ) (يونس 49) أي لكل أمة أجل ورسول ، فإذا أقام الرسول الحجة على قومه ، فكذبوه ، جاء أجلها ، وعندئذ لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ، فيؤول مصيرهم إلى الآخرة فيقضي الله تعالى بينهم بالعدل ، ولا ظلم لأحد .

قال الخازن (وفي وقت هذا القضاء والحكم بينهم قولان : –

أحدهما : **أنه في الدنيا** وذلك أن الله سبحانه وتعالى أرسل إلى كل أمة رسولاً لتبليغ الرسالة وإقامة الحجة وإزالة العذر ، فإذا كذبوا رسلهم وخالفوا أمر الله قضى بينهم ، وبين رسلهم في الدنيا فيهلك الكافرين وينجي رسلهم والمؤمنين ويكون ذلك عدلاً لا ظلماً لأن قبل مجيء الرسول لا يكون ثواباً ولا عقاباً .

القول الثاني : **أنه وقت القضاء في الآخرة** وذلك أن الله إذا جمع الأمم يوم القيامة للحساب والقضاء بينهم والفصل بين المؤمن والكافر والطائع والعاصي جيء بالرسل لتشهد عليهم ، والمراد من ذلك المبالغة في إظهار العدل ، وهو قوله تعالى : (وهم لا يظلمون) يعني من جزاء أعمالهم شيئاً ، ولكن يجازي كل أحد على قدر عمله . وقيل : معناه أنهم لا يعذبون بغير ذنب ولا يؤاخذون بغير حجة ولا ينقص من حسناتهم ولا يزاد على سيئاتهم)[4]

---

[1]) الكشاف ج3 ص 24
[2]) تفسير أبي السعود ج3 ص 272
[3]) رواه البخاري ج11 ص 305 رقم 3227
[4]) تفسير الخازن ج3 ص 402

قوله (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) (48) أكثر القرآن من الإخبار عن قول الكافرين عن موعد أجلهم ومصرعهم وكأنهم يستعجلون وقوعه ولا يبالون بذلك ، استهزاء منهم بهذا الوعيد ، ويرجع سبب مجادلتهم في هذا إلى أمرين :-

الأول : أن "**العجلة**" من الشيطان ، يعزى ذلك ، قال أبو بكر الجزائري (وهذا عائد الى ما فطر عليه الإنسان من العجلة

الثاني : وإلى جهلهم وكفرهم **وسفاهة عقولهم** ، وإلا فالعاقل لا يطالب بالعذاب بل يطالب بالرحمة والخير ، لا بالعذاب والشر) [1].

قوله (قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ..) (49) أمر الله نبيه أن يرد على قومه بأن ينفي عن نفسه القدرة على دفع الضر عنها أو جلب النفع لها ، وأن يخبرهم أن الأمور بيد الله وحده ، وما هو إلا مبلغ عن ربه ، يقول النبي ﷺ (وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ **لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ** لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ **يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ** لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ)[2].

قوله (.. لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ..) (49) تلقين للنبي ﷺ بأن يرد على قومه الذين سألوه عن موعد أجلهم استعجالا له، ليخاطبهم بما يؤكد لهم أن أجلهم معلوم عند الله تعالى فهو من الغيبيات التي لا يعملها إلا هو ، وأن استعجالهم للعذاب ليس بالشيء الصواب ، فقد كان النبي يخشى أن يهلك قومه وهو معهم ، فيقول (وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ) (يوسف/67) ، فهو لا يغني عنهم من عذاب الله ولا من قدر الله شيء .

ومعلوم أن لكل واحد أجله ، فلا أحد ينكر أن له أجله محدود ، أما أن تتحدث الآية عن آجال الأمم ، أي جيل من الأجيال ، وزمن من الأزمنة ، فذلك ليس بمعلوم عند كثير من الناس ، ولكن القرآن يشير إلى أن لكل أمة أجل محتوم ، بمعنى وقوع هلاك كل الأمة وانتهاء أجل جميع أفرادها جملة واحدة عندما ينفد وقتها ، كما في قوله قال تعالى (مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (المؤمنون 43) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ **مَا جَاء أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ**) (المؤمنون 44) ، وقوله (**وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ**) ، وقوله (وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ **فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ**) (غافر 5) ، فكلما ارتفعت حضارة لابد وأن يأذن الله بخفضها ، وكلما هلكت أمة خلفتها أمة غيرها ، كما في قوله تعالى (وتلك الأيام نداولها بين الناس) ، وقال تعالى (تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) (البقرة 141).

وقد كان النبي ﷺ يحذر أمته من أن تتخذ من رؤساء الجهل الذين لا يتورعون ويستخفون بوعد الله قادة لهم ، فيهلكون بسببهم ، يَقُولُ النبي ﷺ (**هَلَاكُ أُمَّتِي عَلَى يَدَيْ غِلْمَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ**)[3]، وفي رواية قال رسول الله : (**إِنَّ فَسَادَ**

---

[1]) أيسر التفاسير ج2 ص 471
[2]) رواه الترمذي ج9 ص 56 رقم 2440 وصححه الألباني : صحيح وضعيف سنن الترمذي ج6 ص 16
[3]) رواه البخاري ج11 ص 438 رقم 3337

أُمَّتِي عَلَى يَدَيْ غِلْمَةٍ سُفَهَاءَ مِنْ قُرَيْشٍ)[1] ، وكان أبو هريرة يتعوذ من إمارة الصبيان والسفهاء [2]، فبان بهذا الحديث أن الغلمة هم السفهاء ، وأن الموجب لهلاك الناس بهم أنهم رؤساء وأمراء متغلبين)[3]، **فصلاح الأمم –بوجه عام– بصلاح قادتها** ، قال ابن كثير ("إن الله لَيَزَع بالسلطان ما لا يَزَعُ بالقرآن" أي: (ليمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام، ما لا يمتنع كثيرٌ من الناس بالقرآن)[4].

والعكس كذلك صحيح فهلاكها يكون – بوجه عام – بفساد قادتها الذين يكثرون الخبث في الناس فتكون لهم الغلبة ، فعَنْ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا فَزِعًا يَقُولُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدْ اقْتَرَبَ فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الْإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا قَالَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ **أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ قَالَ نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ**)[5].

ولذلك يقول الشعراوي (ولو تركنا أهل الفساد والمنحرفين لجزاء القيامة لفسد المجتمع ، لا بُدَّ من قوة تصون صلاح المجتمع ، وتضرب على أيدي المفسدين ، لا بُدَّ من قوة تمنع مَنْ يتجرؤون علينا ويطالبون بتغيير نظامنا الإسلامي)[6].

قوله (إِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ) (49) فوجب الانتباه إلى الأعمال قبل الآجال ، فلا يضيرك قصر الأجل ، بل قلة العمل ، قال تعالى (فَمَن **ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ** فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (الأعراف 8) **وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ** فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يِظْلِمُونَ (الأعراف 9) .

بهذا تأكد إلينا أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض من فروض الكفاية الواجبة على الأمة ، فإذا قصرت في أداء هذا الواجب ، وترتب على هذا التقصير أن كثر الخبث ، هنا يؤاخذ الله تعالى الأمة كلها بهذا الذنب ويقضي أجلها ، ولذلك قال الله تعالى (فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ **أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ** إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ (هود 116) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ **وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ**) (هود 117) .

قوله (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ) (50) فحلول الأجل يأتي بغتة ، أي وهم لا يشعرون ، كما في قوله السابق في هذه السورة (حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا **أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا** فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (24) .

ولكن الله لابد وأن يمهل قبل أن يأخذهم بغتة ، فيجعل لهم وقتا ليتوبوا ، فعَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ **لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ** وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ **لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ** حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا)[7]، ففي ذلك توسعة للمسيء أن يتوب قبل أن ينقضي النهار ، فلا يؤخر التوبة عن ذلك ، وكذلك إذا أذنب ذنبا بالليل فقد وَسَّع الله عليه ليتوب قبل أن تطلع الشمس ، قال النووي معناه (يقبل التوبة من المسيئين نهارا وليلا حتى تطلع

---

[1]) رواه أحمد في مسنده ج16 ص 231 رقم 7690
[2]) رواه البخاري في الأدب المفرد ج1 ص 37 رقم 66 وصححه الألباني : صحيح الأدب المفرد
[3]) شرح صحيح البخاري لابن بطال ج10 ص 11
[4]) تفسير ابن كثير ج5 ص 111
[5]) رواه البخاري ج11 ص 133 رقم 3097
[6]) تفسير الشعراوي ج1 ص 5956
[7]) رواه مسلم ج13 ص 322 رقم 4954

الشمس من مغربها ولا يختص قبولها بوقت وبسط اليد استعارة في قبول التوبة للمسئ)[1] ، وقال المناوي (يعني يبسط يد الفضل والإنعام – لا يد الجارحة ،فإنها من لوازم الاجسام – فإذا طلعت الشمس من مغربها أغلق باب التوبة)[2].

قوله (مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ) (50) الغرض من الاستفهام **التهويل والتعجيب** من حال المجرمين الذين يستعجلون العذاب ، لبيان أنه لا جدوى من هذا الاستعجال ، لأنه إذا وقع لا ينفع إيمانهم عندئذ ،كما في قوله (يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ **لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ** أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمانِهَا خَيْراً) [الأنعام/158]

قوله (أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُم بِهِ آلآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ) (51) تحضيض على أن ينتبهوا للأمر الذي لا يزالون يجادلون فيه ، إذ لو استمر جدالهم في هذه المسألة **لضاق وقت الإيمان بها** ، فعليهم أن ينتبهوا أنه إذا جاء أجلهم فلا مجال للتصديق به بعد أن يقع ، حيث يؤدي وقوعه إلى يتحول الإيمان من إيمان بالغيب الذي هم مطالبون به إلى إيمان بما وقع في عالم الشهادة ، وليس ذلك هو موضع الابتلاء .

قَالَ رسول الله ﷺ (**إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ**)[3] ، يعزى ذلك إلى أنه عند الغرغرة أي حلول أجل الموت ، لا يقبل التصديق به لأنه أضحى أمر مشاهد ، وليس ذلك هو محل الابتلاء والاختبار ، فهم مطالبون بالإيمان بالغيب قبل أن يقع ، لأنهم لا يزالون في دار الابتلاء به ، أي بالتصديق بالغيب .

قوله (ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ **عَذَابَ الْخُلْدِ** هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ) ، أي أنه إذا ما وقع أجلهم فإنهم ينقلبون إلى الآخرة مباشرة ، فيحاسبون على ما كانوا يعملون ، قال ابن الجوزي (لأنه إذا نزل بهم العذاب –أي الذي كانوا يستعجلونه في الدنيا–، أفضوا منه إلى عذاب الآخرة الدائم)[4] .

ووصف عذاب الآخرة بالخلد أشد عليهم من وصف الجزاء بالعذاب ، ولا ظلم في الحكم عليهم بالخلد ، فذلك جزاء ما كانوا يكسبون من السيئات ولا يبالون بها ، **فالتخليد في النار هو أشد ما يرهب أهل النار** ، ورغم ذلك لا ظلم اليوم ، قال الشيخ ابن عثيمين في شرح رياض الصالحين: "الظلم هو وضع الشيء في غير موضعه، والله تعالى لا يظلم مثقال ذرة" ، لأن الجزاء بقدر ما كسبت الأعمال .

والذي يجعلنا نفهم سبب تخليد أهل النار في النار ، فلا يخرجوا منها أبدا ما روي عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ قَالَ **أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ** قُلْتُ إِنَّ ذَلِكَ لَعَظِيمٌ)[5]، وذلك هو عدل الله لقوله سبحانه (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) (الأنعام 44) ، والذي يجعلنا نزداد يقينا بعدل الله في تخليد أهل النار قوله تعالى ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ **وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ**﴾ [الأنعام: 27، 28]

---

[1]) شرح النووي على مسلم ج17 ص 76
[2]) فيض القدير ج2 ص 356
[3]) رواه ابن ماجة ج12 ص 304 رقم 4243 وصححه الألباني : صحيح ابن ماجة ج2 ص 418 رقم 3430
[4]) زاد المسير ج3 ص 286
[5]) رواه البخاري ج13 ص 394 رقم 4117

وجمهور العلماء بأن الجنة والنار لا تفنيان ، لكن ثبت أن للإمام ابن القيم قولان في مسألة فناء النار :-

الأول مال فيه إلى القول بفناء النار، وقواه وأيده بالأدلة، وذلك في كتابه (حادي الأرواح) (وشفاء العليل) كما أنه توقف في المسألة في كتابه (الصواعق المرسلة) .

القول الثاني لابن القيم-كذلك- ، وهو الموافق لمذهب أهل السنة وهو القول بأبدية النار وعدم فنائها، وذكر ذلك منصوصاً عليه في كتابيه (الوابل الصيب) و(طريق الهجرتين) ، وقيل أن ما قاله ابن القيم في (الوابل الصيب) و(طريق الهجرتين) ناسخ لما ذكره في (حادي الأرواح) و(شفاء العليل) و(الصواعق المرسلة) وهذا الاستنتاج مؤيد ببعض الحجج في كتاب (كشف الأستار لإبطال ادعاء فناء النار (لعلي الحربي، طبعة دار طيبة) [1].

قوله (وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ؟ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ) (53) أي ويسألونك هل هذا الوعيد حق أو هل الشرع والدين حق؟ [2]، فالسؤال عن كليهما هل هما حق ، وهو موجه من المكذبين للنبي ﷺ ، بقصد الاستمرار في تحديه وإعجازه أن يأتي ببرهان عليهما ، قال ابن عاشور (وهذا من أفانين تكذيبهم)[3] أي أن يتظاهروا مرة باستبطاء الوعيد استخفافا به واستهزاء ، ومرة أخرى يستفهمون من الرسول ﷺ فيسألونه أحق هو ، في بلاهة مفرطة ، وهكذا يكشف السؤال عن رغبتهم في التسلية واستمرارهم في التحدي والاستهزاء .

قوله (.. قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ..) يلقنه الله تعالى الإجابة بإثبات أنه الحق ، لينطق بها في ثقة ويقين بالله ، فدين الله حق ولا يستطيعون أن يطفئوا نوره وإن حاولوا على مدار الدهر ، ووعيده سيحيق بهم إن ظلوا على هذا الحال من العناد والسخرية .

قوله (.. وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ) (53) ينفي عنهم محاولتهم السخرية من نبيهم وأتباعه ، وأنهم لن يفلتوا بفعلتهم هذه من عقاب الله ، ويثبت كذلك بطلان كل محاولاتهم للصد عن سبيل الله ، ما يعني أن الكفار عاجزين عن طمس صورة الإسلام من الوجود وإزاحته من صدور الناس ، وهذا هو أكبر دليل على أنه الحق من عند الله ، وأن الله ولي المؤمنين ، وذلك رغم فتنتهم للذين آمنوا واضطهادهم وإيذائهم ، إلا أن المؤمنين ثابتون على الحق ماضون ، ولا يعجزهم في ذلك أحد ، مصداقا لقول النبي ﷺ (استعن بالله ولا تعجز) [4]، فالمسلم لا يعجز ، بل إنه ليعجز الكفار أن ينالوا منه ، لأنه الله معه وهو وليه وناصره .

قال الشنقيطي (يظن الكفار في زعمهم الباطل أنهم معاجزون الله ، أي خارجين عن قدرته ، وقد بين تعالى في آيات كثيرة أن أنهم لا يعجزون ربهم بحال كقوله تعالى: (**اعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ** وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ) [التوبة:2] ، وقوله (اعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) [التوبة:3] وقوله (**وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ**

---

[1]) https://www.islamweb.net/ar/fatwa/64739/
هذا، وقد قيل إن القول بفناء النار قد أثر عن بعض السلف وهم :عمر وابن مسعود وأبو هريرة وأبو سعيد الخدري، وهذه الآثار فيها مناقشات من حيث الرواية والدراية ، انظر مناقشة هذه الآثار (شرح العقيدة الطحاوية (لابن أبي العز 651/2 في الحاشية ، طبعة مؤسسة الرسالة بتحقيق الأرناؤوط).

[2]) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ج1 ص 664

[3]) التحرير والتنوير ج11 ص 104

[4]) رواه مسلم ج13 ص 142 رقم 4816

فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ) [العنكبوت:22] وقوله تعالى في الجن: **(وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ** فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً) [الجن:13][1].

ومما يوضح هذا الوجه قول كعب بن مالك رضي الله عنه:

زعمت سخينة أن ستغلب ربها ... وليغلبن مغالب الغلاب

ومراده بسخينة قريش: يعني أنهم يحاولون غلبة ربهم، والله غالبهم بلا شك

قوله (وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لاَفْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّواْ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ الْعَذَابَ..) (54) قال سيد قطب (وبينما نحن معهم على هذه الأرض في استنباء وجواب ، إذا نحن فجأة – مع السياق في نقلة من نقلات الأسلوب القرآني المصور – في ساحة الحساب والجزاء . مبدئياً على وجه الفرض والتقدير)[2].

ففي الآية إشارة إلى الفداء والندامة ، وأن كلاهما سوف يلازمان الأنفس الظالمة في دار الجزاء ، لا يشغلها غير ذلك ، تتمنى لو تفدي نفسها من عذاب الله بما تملك من الأرض وهي لا تملك شيئا من الملك عند ذلك ، فقد آل الملك كله لله ، يقول سبحانه **(يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي** مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (11) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (12) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (13) وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ) (المعارج 14) ، فعن أنس قال قال رسول الله ﷺ يقال للكافر يوم القيامة أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهبا أكنت مفتديا به فيقول نعم فيقال له كذبت **قد سُئلت ما هو أهون من ذلك فأبيت)**[3]، وفي رواية عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ يُقَالُ لِلرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ **أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهِ** قَالَ فَيَقُولُ نَعَمْ قَالَ فَيَقُولُ قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ ذَلِكَ **قَدْ أَخَذْتُ عَلَيْكَ فِي ظَهْرِ آدَمَ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا** فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ بِي)[4].

والمقصود بما هو أهون من ذلك أي أهون من أن يفدي نفسه بالدنيا كلها ، هو أن يعرف حقيقتها فيخرجها من قلبه ، ويجعلها في يده يسوقها إلى الآخرة ، ولكن الكافر عظم من شأن الدنيا ، وتغافل عن حقيقتها التي أشار إليها حديث سهل بن سعد رضي الله عنه قال : مر رسول الله ﷺ بذي الحليفة فرأى شاة شائلة برجلها فقال : أترون هذه الشاة هينة على صاحبها ؟ قالوا : نعم قال : والذي نفسي بيده **للدنيا أهون على الله من هذه على صاحبها** ولو كانت الدنيا تعدل عند الله **جناح بعوضة** ما سقى كافرا منها شربة ماء)[5]، فعندما يعرف الكافر حقيقة الدنيا التي اطمأن بها يندم أنه لم يدرك ذلك إلا في دار الجزاء ، وقد تغافل عن إدراك حقيقتها في دار البلاء.

قوله (..وَأَسَرُّواْ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ الْعَذَابَ..) (54) أي عندما يعاين الكافر نار جهنم ، ويعلم أنه لا يملك شيئا ليفدي نفسه به ، عندئذ يشعر بالندم والحسرة ، ولكن هذا الشعور يظل دفينا في نفسه لا يصرح به لشدة هول ما يرى من العذاب ، **فما يستقبله من العذاب يهوله ويفزعه فيغلب شعور عن الندم عما فات** ، إذ اختلط في هذا الموقف الشعور بالهول والفزع مع الندم والحسرة ، فغلب هذا ذاك .

---

[1]) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ج5 ص 283
[2]) في ظلال القرآن ج4 ص 161
[3]) رواه الطبراني في المعجم الأوسط ج7 ص 118 رقم 7026
4) رواه أحمد 24 ص 387 رقم 11841 وصححه الألباني : صحيح وضعيف الجامع الصغير ج29 ص 83 ،ظلال الجنة 39/1رقم99
[5]) رواه الحاكم في المستدرك ج4 ص 341 رقم 7847

قال ابن عاشور (الندامة هي : الندم، وهو أسف يحصل في النفس على تفويت شيء ممكن عمله في الماضي، والندم من هواجس النفس، فهو أمر غير ظاهر ولكنه كثير، أي يصدر عن صاحبه قول أو فعل يدل عليه، فإذا تجلد صاحب الندم فلم يظهر قولا ولا فعلا فقد أسر الندامة، أي قصرها على سره فلم يظهرها بإظهار بعض آثارها، وإنما يكون ذلك من شدة الهول؛ فإنما **أسروا الندامة لأنهم دهشوا لرؤية ما لم يكونوا يحتسبون** فلم يطيقوا صراخا ولا عويلا)[1].

قوله (..وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ) (54) يقضي الله تعالى في أمرهم بالقسط ولا ظلم ، وقد **عوملت الأنفس في الدنيا بالعفو** ، قال الله تعالى **(وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ)** ، أما في الآخرة فإنه سبحانه يختص المؤمنين برحمته ، يقول النبي ﷺ (لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ قَالُوا وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ لَا وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ)[2] ، أما الكافرون فيعاملهم ربهم بعدله ولا ظلم.

قوله (أَلا إِنَّ لِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَلاَ إِنَّ وَعْدَ اللّهِ حَقٌّ..) (55) قال ابن عاشور في هذه الآية (تذييل تنهية الكلام المتعلق بصدق الرسول والقرآن وما جاء به من الوعيد وترقب يوم البعث ويوم نزول العذاب بالمشركين).

وقد اشتمل هذا التذييل على مجمل تفصيل ذلك الغرض، وعلى تعليله بأن من هذه شؤونه لا يعجز عن تحقيق ما أخبر بوقوعه.. وافتتح هذا التذييل بحرف التنبيه (ألا إِنَّ لِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) ، وأعيد فيه حرف التنبيه (أَلاَ إِنَّ وَعْدَ اللّهِ حَقٌّ) للاستيعاء لسماعه ، وللتنبيه على أنه كلام جامع هو حوصلة الغرض الذي سمعوا تفصيله آنفا ، وتأكيد الخبر بحرف "إِنَّ" في قوله (إِنَّ وَعْدَ اللّهِ حَقٌّ) للرد على المشركين أنهم جعلوا لله شركاء) [3]

قوله (.. وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ) (55) أي رغم أن ما ذكر في شأن الإله هو من المسلمات التي لابد من الإيمان بها ، إلا أن كثير من الناس قد تغافل عن هذه المُسَلَّمة ، ولم ينتبه لانشغاله بالدنيا والاطمئنان بها ، ما يعني أهمية سعي الدعاة إلى الله لإحياء هذه المفاهيم عند الناس وإيغالها في صدورهم ، والصبر على قومهم حتى ينتبهوا لذلك .

قوله (هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) (56) هذا هو آخر تعقيب علي منكري البعث ، فالإحياء والإماتة يدلان على القدرة المطلقة والقهر والقوة ، والرجوع إلى الله دليل على الحساب والجزاء ، بهذا الإجمال يبدو اختلاف عقيدة الإسلام عن غيرها من العقائد الباطلة التي خلت من الإيمان بوجوب الرجوع إلى الله ، فأهل الباطل لا يرجون لقاء الله ، ولا يرجون حسابا .

---

[1]) التحرير والتنوير ج11 ص 106
[2]) رواه البخاري ج17 ص 423 رقم 5241
[3]) التحرير والتنوير ج11 ص 107

المحور السابع
بيان وظيفة القرآن ، وفرح أولياء الله به
، وتعاسة المفترين علي الله الكذب

قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم **مَّوْعِظَةٌ** مِّن رَّبِّكُمْ **وَشِفَاء** لِّمَا فِي الصُّدُورِ **وَهُدًى وَرَحْمَةٌ** لِّلْمُؤْمِنِينَ (57) قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ **فَلْيَفْرَحُواْ** هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (58) قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلاَلاً قُلْ **آللّهُ أَذِنَ** لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ (59) وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ **يَفْتَرُونَ** عَلَى اللهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ (60) وَمَا تَكُونُ **فِي شَأْنٍ** وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ **تُفِيضُونَ** فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ **إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** (61) أَلا إِنَّ **أَوْلِيَاء اللهِ** لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (62) الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ (63) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (64)

وَلاَ يَحْزُنكَ **قَوْلُهُمْ** إِنَّ الْعِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (65) أَلا إِنَّ لِلّهِ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ **شُرَكَاء** إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (66) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ **لآيَاتٍ** لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (67) قَالُواْ **اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا** سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ (68) قُلْ إِنَّ الَّذِينَ **يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ** الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ (69) مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ) (70)

قوله (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ) (57) قال العلماء (يعني "القرآن")[1]، فهو خير موعظة من الله للناس ، ومن أراد ترقيق قلبه بموعظة فعليه بكتاب الله ، فهو خير واعظ ، والقلوب بحاجة إلى موعظة يومية ، وكل ساعة ولحظة ، ذلك أن الناس في الدنيا مشغولون بها عن الآخرة ، والشهوات تركن بالناس عن الجهاد ، والمصائب والابتلاءات تنسي الناس الذكر والعبادات ، وليس ثمة مخرج من ذلك كله إلا بما يذكرهم بالله ويعظهم ليسلموا من تلك البلايا والآفات ، ولذلك عندما سأل أعرابي رسول الله فقال (إِنَّ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ فَأَنْبِئْنِي مِنْهَا بِشَيْءٍ أَتَشَبَّثُ بِهِ؟) قَالَ (**لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ**)[2]..

ويلاحظ أن لفظ "**الموعظة**" موقعه من الإعراب (فاعل) للفعل (جاء) ، رغم أن الموعظة كلمات ، ولكن الله هو الذي يسوق المواعظ إلينا ، ولذلك عبر عنها بصورة حركية تلك التي تؤثّر في أصحابها، وتأخذ بأيديهم إلى الإيمان والعمل الصالح.

وقوله "..وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ.." هذا وصف آخر للقرآن ، يعني أنه يذهب ما في القلوب من كفر ونفاق وأمراض نفسية مستعصية كالحقد والغل والحسد والرياء وذياع الصيت والتباهي والتفاخر والغرور والكبر والاستحواذ ..الخ ، فالقرآن شفاء لما في الصدور من أمراض تعلقت بالشهوات وما يلتبس علي العقل من شبهات .

---

[1]) تفسير ابن أبي زمنين ج1 ص 277
[2]) رواه ابن ماجة ج11 ص 236 رقم 3783 وصححه الألباني : صحيح سنن ابن ماجة ج2 ص 317

يقول ابن القيم (جماع أمراض القلب هي أمراض الشبهات والشهوات ، والقرآن شفاء للنوعين : ففيه من البينات والبراهين القطعية ما يبين الحق من الباطل ، فتزول أمراض الشبه المفسدة للعلم والتصور والإدراك بحيث يرى الأشياء على ما هي عليه ، وليس تحت أديم السماء كتاب متضمن للبراهين والآيات على المطالب العالية .. مثل القرآن ، فإنه كفيل بذلك كله .. فهو الشفاء على الحقيقة من أدواء الشبه والشكوك ، **ولكن ذلك موقوف على فهمه ومعرفة المراد منه**)[1].

وقال ابن القيم (القرآنُ هو الشِّفاء التام مِن جميع **الأدواء القلبية والبدنية**، وأدواءِ الدنيا والآخرة، وما كُلُّ أحدٍ يُؤهَّل ولا يُوفَّق للاستشفاء به، وإذا أحسن العليل التداوىَ به، ووضعَه على دائه بصدقٍ وإيمان، وقبولٍ تام، واعتقادٍ جازم، واستيفاءِ شروطه، لم يُقاوِمْهُ الداءُ أبداً ، **وكيف تُقاوِمُ الأدواءُ كلامَ ربِّ الأرض والسماءِ** الذى لو نزل على الجبال لصَدَعَهَا أو على الأرض لقطعها، فما مِن مرضٍ من أمراض القُلُوبِ والأبدان إلا وفى القُرآن سبيلُ الدلالة على دوائه وسببه، والحِمية منه لمن رزقه الله فهماً فى كتابه)[2] .

وقوله (وَهُدًى) أي (**يهتدون به إلى الجنة**)[3]، فهي الغاية العليا ، والتي توصل جميع الغايات والمثل القيمة إليها ، قال ابن القيم (ويا لله العجب كيف كان الصحابة والتابعون – قبل وضع هذه القوانين واستخراج هذه الآراء والمقايس والأقوال – **مهتدين بالنصوص** أم كانوا على خلاف ذلك حتى جاء المتأخرون أعلم منهم وأهدي منهم ، هذا ما لا يظنه من به رمق من عقل أو حياء نعوذ بالله من الخذلان ، ولكن من أوتي فهما في الكتاب وأحاديث الرسول **استغنى بهما عن غيرهما** بحسب ما أوتيه من الفهم ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم)[4].

قوله (وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ) (57) قال ابن عاشور (هذا الوصف وهو الرحمة خاص بمن عمل بمقتضى الأوصاف الثلاثة الأُول فانتفع بها ، فكان القرآن رحمة له في الدنيا والآخرة)[5]، (**وخصص في الرحمة والفضل والهداية المؤمنين**، وهذا منتهى البلاغة وصحة التقسيم)[6].

لاسيما إذا التزم المسلم كتاب الله ، وتعلق قلبه بمساجد الله نال الرحمة لا محالة ، يقول النبي ﷺ (وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ **يَتْلُونَ** كِتَابَ اللَّهِ **وَيَتَدَارَسُونَهُ** بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ السَّكِينَةُ **وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ** وَحَفَّتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ وَذَكَرَهُمْ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ)[7].

قوله (قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ) (58) أي أن القرآن هو سبب تلك الفرحة التي تنشرح بها الصدور ، والانشغال والاشتغال به رحمة لأهله ، فهو رحمة للمؤمنين كما في الآية السابقة .

---

[1]) إغاثة اللهفان ج1 ص 44
[2]) زاد المعاد ج4 ص 352
[3]) تفسير ابن أبي زمنين ج1 ص 277
[4]) بدائع الفوائد ج3 ص 678
[5]) التحرير والتنوير ج11 ص 110
[6]) التحرير والتنوير ج11 ص 111
[7]) رواه مسلم ج13 ص 212 رقم 4867

فعن البراء قال في هذه الآية (فضل الله القرآن ورحمته أن جعلكم من أهله)[1] ، وقال رسول الله ﷺ (اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ)[2]، وعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ: " قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا " قَالَ:"إِذَا عَمِلْتَ خَيْرًا حَمِدْتَ اللَّهَ عَلَيْهِ فَافْرَحْ فَهُوَ خَيْرٌ مِمَّا تَجْمَعُونَ مِنَ الدُّنْيَا"[3] ، يعني أن فضل الله يتحقق بأن يكون العبد من أهل القرآن ، ليس ذلك حاصل بمجرد تلاوته ، بل يجب تطبيق القرآن عملا في حياة المسلم ، فيحمد الله على كل خير .

قوله (فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ) قال الرازي (هذا يفيد **الحصر**) ، (..ومعناه فبذلك فلتفرحوا يا أصحاب محمد هو خير مما يجمع الكفار).، يعني يجب أن لا يفرح الإنسان إلا بذلك ، قال ابن القيم (إن الله تعالى أمر عباده بالفرح بفضله ورحمته ، وذلك تبع للفرح والسرور بصاحب الفضل والرحمة ، فإن من فرح بما يصل إليه من جواد كريم محسن بر يكون فرحه بمن أوصل ذلك إليه أولى وأحرى)[4] .

فأهل القرآن في منزلة عالية عند الله تعالى ، قال رسول الله ﷺ (الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ لَهُ أَجْرَانِ)[5]

وقد ضرب لنا رسول الله ﷺ مثلا في فضل السعي لتعلم القرآن بمن يسعي ليغنم ناقتين كبيرتين من غير إثم ، فذلك أشبه بمن تعلم شيئا من القرآن ، فعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَنَحْنُ فِي الصُّفَّةِ فَقَالَ أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى بُطْحَانَ أَوْ إِلَى الْعَقِيقِ فَيَأْتِيَ مِنْهُ **بِنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ** فِي غَيْرِ إِثْمٍ وَلَا قَطْعِ رَحِمٍ فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ نُحِبُّ ذَلِكَ قَالَ أَفَلَا يَغْدُو أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ **فَيَعْلَمُ أَوْ يَقْرَأُ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ** خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ وَثَلَاثٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلَاثٍ وَأَرْبَعٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَرْبَعٍ وَمِنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنْ الْإِبِلِ)[6].

ولذلك يقول النبي ﷺ (**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**)[7]، ولذلك قيل أن (فاستحقاق أهل القرآن لهذه الخيرية لم يكن إلا لأجل قيامهم بواجبهم لما يجب عليهم من مسئولية كبرى نحو مجتمعهم....ومن الأمور المسَّلم بها عند العلماء والمربين المسلمين أن على المعلم"أن ينغمس في حياة مجتمعه،ويخالط الناس،ويشارك في كثير من الأعمال الاجتماعية والمشاريع الثقافية والخيرية،....فإن إعتزال الناس في المجتمع أشد فتكاً بنفس المعلم من أي شيء آخر)[8].

قال ابن القيم (ولا شيء أحق أن يفرح العبد به من فضل الله ورحمته التي تتضمن الموعظة وشفاء الصدور بالهدى والرحمة ، فقد أخبر سبحانه أن الموعظة تلك التي تتضمن الأمر والنهي مقرونا بالترغيب والترهيب هي شفاء للصدور ، فتعافيها من داء الجهل والغي والسفه ، وما جاءها من الهدى يثلج الصدور باليقين والقلب بالطمأنينة ، فتسكن النفس

---

[1]) رواه الطبراني في المعجم الأوسط ج5 ص 347 رقم 5512 وذكره ابن القيم في إغاثة اللهفان ج1 ص 31
[2])) رواه مسلم ج4 ص 231 رقم 1337
[3]) تفسير ابن أبي حاتم ج8 ص 51
[4]) التفسير القيم لابن القيم ج1 ص 573
[5]) رواه مسلم ج4 ص 219 رقم 1329
[6]) رواه مسلم ج 4 ص 229 رقم 1336
[7]) رواه البخاري ج15 ص 439 رقم 4639
[8]) د خالد باجحز : آثار تعليم القرآن على الفرد ج1 ص 39

والروح ، وبذلك تُجلب الرحمات ، فيندفع الشر ويقدم الخير والأنس بالله ، فذلك كله خير مما يجمعه الناس من أعراض الدنيا وزينتها ، وهذا الذي ينبغي أن يفرح به العبد)[1].

قال ابن القيم (**فالفرح بالله وبرسوله وبالإيمان وبالسنة وبالعلم وبالقرآن من أعلى مقامات العارفين**،قال الله تعالى(وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون)، وقال(والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك)، فالفرح بالعلم والإيمان والسنة **دليل على تعظيمه** عند صاحبه ومحبته له **وإيثاره له على غيره** ، فإن فرح العبد بالشيء عند حصوله له على قدر محبته له ورغبته فيه،فمن ليس له رغبة في الشيء لا يفرحه حصوله له ولا يحزنه فواته ، **فالفرح تابع للمحبة والرغبة** ، والفرق بينه وبين الاستبشار أن الفرح بالمحبوب بعد حصوله والاستبشار يكون به قبل حصوله إذا كان على ثقة من حصوله، ولهذا قال تعالى(**فرحين بما آتاهم الله من فضله** ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم)، **والفرح أعلى أنواع نعيم القلب ولذته وبهجته** والفرح والسرور نعيمه ، والهم والحزن عذابه، **والفرح بالشيء فوق الرضى به**، فإن الرضى طمأنينة وسكون وانشراح ،والفرح لذة وبهجة وسرور ، فكل فرح راض وليس كل راض فرحا، ولهذا كان الفرح ضد الحزن والرضى ضد السخط والحزن يؤلم صاحبه والسخط لا يؤلمه إلا إن كان مع العجز عن الانتقام) [2].

وقد ألمح أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى أن أسباب الفرح ترجع إلى فضل الله تعالى ، وشرح في ذلك موقفا عمليا يبين معنى فضل الله تعالى ورحمته ، فعَنْ صَفْوَانَ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: سَمِعْتُ أَيْفَعَ بْنَ عَبْدِ الْكَلاعِيِّ، يَقُولُ:"لَمَّا قَدِمَ خَرَاجُ الْعِرَاقِ إِلَى عُمَرَ خَرَجَ عُمَرُ وَمَوْلًى لَهُ، **فَجَعَلَ عُمَرُ يَعُدُّ الإِبِلَ**، فَإِذَا هُوَ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ، فَجَعَلَ عُمَرُ، يَقُولُ: **الْحَمْدُ لِلَّهِ**، وَيَقُولُ مَوْلاهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، هَذَا وَاللَّهِ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، فَقَالَ عُمَرُ: كَذَبْتَ لَيْسَ هَذَا هُوَ , يَقُولُ اللَّهُ "بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ "**وَهَذَا مِمَّا تَجْمَعُونَ**"[3] ، والمعنى الذي أراد عمر بن الخطاب إيصاله بتكذيب مولاه أن **مناط الفرح ليس زيادة الرزق بزيادة عدد الإبل ، ولكنه بأن يفرح بكتاب الله تعالى** ، فهذا هو الفضل والرحمة المشار إليهما في الآية ، فهو الحري أن يُفرح به .

قوله (قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلاَلاً قُلْ آللّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللّهِ تَفْتَرُونَ) (59) ذلك أن الذي لا يفرح بنعمة القرآن ، ينشغل بلذة الأجساد ظنا منه أنها تجلب له الفرح ، والحق أنها لا تجلب له إلا المكاره ، قال الرازي (يجب أن لا يفرح الإنسان بشيء من الأحوال الجسمانية ، ..فمداخل اللذات الجسمانية قليلة ، ..كما أن **اللذات الجسمانية لا تكون خالصة ألبتة بل تكون ممزوجة بأنواع من المكاره** ، ..كما أن اللذات الجسمانية لا تكون باقية ، فكلما كان الالتذاذ بها أكثر كانت الحسرات الحاصلة من خوف فواتها أكثر وأشد)[4] .

---

[1]) مختصر ما ذكر في التفسير القيم لابن القيم ج1 ص 474
2) { مدارج السالكين حـ 3 صـ 97 - صـ 99 }
3) تفسير ابن أبي حاتم ج8 ص 51
4) مفاتيح الغيب ج17 ص 95

وجراءة الإنسان في الإتيان بتشريعات تضاهي مناهج الله تعالى وأحكامه استطالت لميادين عدة ، ولكن الله تعالى أتى هنا بمثال واضح على أن هذه الجراءة نوع من الضلال والعصيان ، فضرب المثال في مجال الرزق أي الطعام ، وقس على ذلك كافة المجالات كالاقتصاد والسياسة والعسكرية والاجتماع .....الخ ، فما من قضية يتناولونها بالتنظيم خلافا لمنهج الله إلا وقد عانى الإنسان من ويلات أفعاله الكثير والكثير .

فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلُهُ: " قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلالا " قَالَ:"هُمْ أَهْلُ الشِّرْكِ كَانُوا يُحِلُّونَ الأَنْعَامَ مَا شَاءُوا وَيُحَرِّمُونَ مَا شَاءُوا"[1]، وعَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلُهُ: " فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلالا " "فِي الْبُحَيْرَةِ السَّائِبَةِ" ، وعَنِ الضَّحَّاكِ، فِي قَوْلِهِ: " أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلالا " : هُوَ الَّذِي قَالَ اللَّهُ "وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا" إِلَى قَوْلِهِ "سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ " [2] أي الذين يحرمون بعض الأنعام إرضاء للشياطين ، فيختارون منها ما يجعلونه لآلهتهم ،كالبحائر وأخواتها ، قال تعالى (وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هذه الأنعام خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ على أَزْوَاجِنَا) [الأنعام : 139]

فعلى سبيل المثال نجد أن الذي يبحث عن اللذة والسعادة والصحة في مجال التغذية ، يشرعن – لنفسه أشياء يستحلها ، ويحرم على نفسه وعلي غيره أشياء ، وفقا لهواه ، فيخترع حمية غذائية ثم يغيرها ، ففي ظنه أن ذلك هو الذي يجلب له الفرح واللذة ، فتجد هندوسي يحرم اللحم على نفسه ، ويعتمد على النباتات فقط ويسمي نفسه فيجترين (vegetarian) ، وآخر عكسه يعتمد على اللحوم والدهون ويترك البقوليات والحبوب والكربهيدرات ويسمي نفسه كيتودايت (Keto diet)، والله تعالى أحل للمسلمين الطيبات وحرم الخبائث ، فهذا هو منهج الإسلام بكل بساطة ودون تعقيد ، وقس على ذلك سائر الأمور ، ولذلك قيل (**ما تحت ظل السماء من إله يعبد من دون الله أعظم عند الله من هوى متبع**) [3].

---

[1]) تفسير ابن أبي حاتم ج8 ص 52

[2]) تفسير ابن أبي حاتم ج8 ص 52

3) رواه الطبراني في المعجم الكبير ج8 ص 103 رقم 7518

وهكذا يتقلب البشر في مناهج التغذية من أقصى اليمين إلى أقصى الشمال ، ومن أقصى الشمال إلى أقصى اليمين ، وتجد اليهود يحرمون الجمبري ، والنصارى يحرمون على أنفسهم أكل اللحم وما فيه روح ومنتجات الألبان الماشية فترة الصيام ..الخ ، لماذا يفعلون ذلك ولماذا يحرمون على أنفسهم طيبات ما أحل الله ؟ وآخرون يقومون بنظام الصيام المتقطع لمدة 12 ساعة مثلا ثم يعودون للصيام مرة أخرى لمدة 6 ساعات ثم يصومون 6 ساعات أخرى ، وأخرون يشددون على أنفسهم فيصومون 14 ساعة ثم 6 ساعات ، وهكذا تختلف أنظمة التغذية التي يعتمدونها لصحة أنفسهم ، وآخرون يحرمون أنفسهم من كل أنواع السكريات بسبب ما يسمى بالسكر من النوع الثاني ، ويتركون التمر والعسل بهذه الحجة ، ويتناولون أدوية تخفض السكر أو تقلل من امتصاصه أو تزيد من إفراز الأنسولين ، ولو أن أصحاب مرض السكر من النوع الثاني اهتموا بالحركة والعمل العام والدعوة والتزموا الصلوات الخمس في المسجد واهتموا بالمشي في سبيل الله وحافظوا على صيام الاثنين والخميس لكفاهم ذلك دون أن يكونوا بحاجة للعقاقير التي تغير من عمل الهرمونات أو تثبط الكبد عن الإفراج عن الجليكوجين ...الخ

وهكذا نجد أن مناهج البشر لوضع حلول لمشاكلنا الصحية في غاية الاختلاف حتى وجدنا مدرستين كل منهما تقوم على فلسفة مغايرة مدرسة شرقية تقودها الصين ، ومدرسة غربية تقودها أوروبا الغربية ، ولو نظرنا إلى منهج الإسلام في الطعام لوجدناه يتلخص في قوله تعالى (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (31) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) (الأعراف 32)

وأصحاب المدارس المختلفة في التغذية وإن كانت تقوم على أسس علمية إلا أننا نجد – أحيانا – فيها أشياء من التطرف أو الميل إلى الهوى ، فنجد أناس يصنعون أطعمة دايت حتى لا يحرمون أنفسهم من لذة الطعام مثل أرز دايت ، ومكرونة دايت وسكر دايت ، ولا يخفى ما في هذه الأطعمة من آثار ضارة على المدى البعيد حيث تؤدي إلى خفض الميكروبايوم البيكتريا النافعة في الأمعاء ، وهو ما يؤدي إلى القولون العصبي والانتفاخ ..الخ ، وهناك من يتجنب أكل الشحوم والدهون لتقليل الكوسترول الضار وللتخسيس ، والله خلق هذه الدهون لإنتاج الطاقة ، والطاقة لازمة للعمل الصالح ، فلو أكل المسلم الدهون بهذه النية لما أصابه ضرر من ذلك ، لاسيما وأن النظام الغذائي الإسلامي يعتمد على الزيتون كذلك وهو زيوت تقلل الكوسترول الضار .

ويزداد الطين بلة حينما نعلم وللأسف أن الذين يفترون هذه التراهات كثيرا من نجدهم هم أنفسهم أصحاب شركات التغذية الذين يروجون لمنتجاتهم التي هي أقرب إلى الضر منها إلى النفع ، فتجدهم يخترعون نوع من البروتين للاعبي كمال الأجسام وأنواع من المنشطات ليزيد نشاطهم البدني وبناؤهم العضلي ولكن ذلك يؤثر على وظائفهم الحيوية بالسلب في المدى البعيد ، ويخترعون نوع من البروتين يعتمد على بروتين الحشرات ، وعلى أشكال مختلفة من الديدان ، كل ذلك لترويج منتجاتهم ،وفي ذات الوقت يحرمون ذبح البقر كما في الهند تقديسا له ، فسبحان الله.

قوله (.. قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ..) (59) قال علماء الأصول (من ادعى تحليل شئ أو تحريمه بغير إذنه. فقد افترى عليه ، ولو كان عندهم مستند من العقل ، فالعقل لا يستقل بذاته بتحريم الأشياء أو تحليلها ما لم يستند إلى شرع منزل)[1] ، قال تعالى: "ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب" (النحل: 116).

فمثلا نجد أن الهندوس يعبدون البقر ويحرمون ذبحه ، ةفي ذات الوقت يقتلون المسلمين لجريمة أنهم يذبحون البقر ، أي معبودهم ، وهكذا نجد أن الشيطان قد تلاعب برؤوس القوم ، وجعلهم يقتتلون على فرية ليس لها أي أساس من الصحة ، وليس لهم دليل على صحتها من وحي صحيح من الله سبحانه .

قوله (..وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) (59) قال ابن كثير أي: (ما ظنهم **أن يُصنَع بهم** يوم مرجعهم إلينا يوم القيامة)[2] ، ذلك أن **الفرية أشد أنواع الكذب** ، فهي لا تقتصر على الإخبار بما ليس بصحيح ، وإنما تتضمن تلبيس الحق بالباطل لقصد غير مشروع ، فإذا كان الافتراء بهذا العظم من الجرم ، وإذا كان في حق الله تعالى كذلك فإنه أعظم وأعظم ، ما يعني أن تحليل ما حرمه الله أو تحريم ما أحله هو أعظم فرية يحاسب عليها صاحبها يوم القيامة .

فالتشريع حق خالص لله ، ولا يجوز أن ينازعه فيه أحد ، لاسيما إذا تناول مسائل التي حجز الله حق التشريع فيها لنفسه ، أي يستقل وحده بها ولم يسمح للبشر أن يجتهدوا فيها ، وهو ما يسميه العلماء **بالأمور التوقيفية** التي لا يجوز الاجتهاد فيها ، مثل حل الطيبات من الأطعمة والأشربة وتحريم الخبائث ، وكذلك حل الأنكحة الشرعية وتحريم الزنا ، والعبادات المحضة كالصلاة والزكاة والصيام والحج..وكذا المعاملات في أطر معينة كحل البيع وتحريم الربا ...الخ ، أما **المسائل التفصيلية** التي أجاز الشرع للناس أن يضعوا القواعد التي تنظم حياتهم بما لا يتعارض مع تشريع الله وحكمه ، وبما يتفق مع مقاصدها ، **فقد رسم لهم ضوابط** يتعين عليهم عدم الخروج عليها فيما يشرعونه لأنفسهم ممن أجاز الله له الاتفاق عليه ، يقول النبي ﷺ (**الْمُسْلِمُونَ عَلَى شُرُوطِهِمْ إِلَّا شَرْطًا حَرَّمَ حَلَالًا أَوْ أَحَلَّ حَرَامًا**)[3].

قوله (إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ) (60) قال الطبري (إن الله لذو تفضُّل على خلقه بتركه معاجلة من افترى عليه الكذب بالعقوبة في الدنيا ، **وإمهاله إياه** إلى وروده عليه في القيامة)[4].

قال ابن عاشور (وفي الكلام **قطع لعذر المشركين** ، **وتسجيل عليهم بالتمرد** بأن الله تفضل عليهم بالرزق والموعظة والإرشاد ، فقابلوا ذلك بالكفر دون الشكر وجعلوا رزقهم أنهم يكذبون في حين قابله المؤمنون بالفرح والشكر فانتفعوا به في الدنيا والآخرة)[5].

خلاصة المسألة أن المعدة بيت الداء ، ولو انتبه الناس للنظام الغذائي الإسلامي لوجدوه متوازنا ، ويقوم على فلسفة اختيار نوع الأكل بحسب نوع النشاط البدني والذهني ، أي الذي يتناسب معه ، والذين يخالفون هذا النظام لا يشبعون ، وتصيبهم الأمراض ، وليس ذلك إلا لاختيارهم نظام غذائي يخالف نظام الإسلام الذي يعتمد على الطيبات ، وعلى الحاجة للطعام ونوعه بما يتناسب مع النشاط اليومي

[1]) أبو المظفر منصور المزروي السمعاني : قواطع الأدلة في الأصول ج2 ص 55

2) تفسير ابن كثير ج4 ص 276

[3]) رواه الترمذي ج5 ص 199 رقم 1272 وصححه الألباني : صحيح وضعيف سنن الترمذي ج3 ص 352

4) تفسير الطبري ج15 ص 113

5) التحرير والتنوير ج11 ص 118

قوله (وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ) (61) بينت الأية ثلاثة أحوال للنبي ﷺ في حياته وعاداته باعتباره أسوة لنا نقتدي به في ذلك ، قال ابن جزي (والخطاب للنبي ﷺ ، والمراد هو وجميع الخلق ، ولذلك قال في آخرها : وما تعملون من عمل بمخاطبة الجماعة)[1] : – فالأول : إما أن يكون في شأن نفسه كالأكل والشرب والنوم ..وأمور العادات ، فعن هشام بن عروة عن أبيه قال : سألت عائشة رضي الله عنها ما كان النبي ﷺ يعمل في بيته قالت **يخصف نعله ويعمل ما يعمل الرجل في بيته)**[2]

والثاني : إما أن يكون في شأن ربه حيث يتلو القرآن ويتعبد له بالصلاة والدعاء .

والثالث : إما أن يكون في شأن الناس حيث السعي لخدمتهم ، وتلبية حاجاتهم ودعوتهم ، وإعانتهم سواء أخذ عليه مقابل مادي كأيام رعيه للغنم وتجارته بمال خديجة أو كان عملا تبرعيا ، مثل توزيع الصدقات ، فذلك كله الله شهيد عليه .

فحالما ينشغل الإنسان بهذه الأمور الثلاثة ، وإن كان فيها بعض العادات فإنه يؤجر على العادات بالنية الصالحة لله كما يؤجر على العبادات ، وكذلك يؤجر على الدعوة والعمل العام ، وتحقيق التوازن بين العبادة المحضة والعبادات التي يداخلها بها بعض حظوظ النفس وكذلك أعمال التبرع العام هو مقصد التشريع الإسلامي .

فعن عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ كُنْتُ أَصُومُ الدَّهْرَ وَأَقْرَأُ الْقُرْآنَ كُلَّ لَيْلَةٍ قَالَ فَإِمَّا ذُكِرْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَإِمَّا أَرْسَلَ إِلَيَّ فَأَتَيْتُهُ فَقَالَ لِي أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَصُومُ الدَّهْرَ وَتَقْرَأُ الْقُرْآنَ كُلَّ لَيْلَةٍ فَقُلْتُ بَلَى يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَلَمْ أُرِدْ بِذَلِكَ إِلَّا الْخَيْرَ قَالَ فَإِنَّ بِحَسْبِكَ أَنْ تَصُومَ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ قُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ إِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ قَالَ فَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَلِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَلِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا قَالَ فَصُمْ صَوْمَ دَاوُدَ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ فَإِنَّهُ كَانَ أَعْبَدَ النَّاسِ قَالَ قُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَمَا صَوْمُ دَاوُدَ قَالَ كَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا قَالَ وَاقْرَأْ الْقُرْآنَ فِي كُلِّ شَهْرٍ قَالَ قُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ إِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ قَالَ فَاقْرَأْهُ فِي كُلِّ عِشْرِينَ قَالَ قُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ إِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ قَالَ فَاقْرَأْهُ فِي كُلِّ عَشْرٍ قَالَ قُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ إِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ قَالَ فَاقْرَأْهُ فِي كُلِّ سَبْعٍ وَلَا تَزِدْ عَلَى ذَلِكَ فَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَلِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَلِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا قَالَ فَشَدَّدْتُ فَشُدِّدَ عَلَيَّ قَالَ وَقَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ إِنَّكَ لَا تَدْرِي لَعَلَّكَ يَطُولُ بِكَ عُمْرٌ قَالَ فَصِرْتُ إِلَى الَّذِي قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ فَلَمَّا كَبِرْتُ وَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ قَبِلْتُ رُخْصَةَ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ)[3]

قوله (..إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ..) (61) الإفاضة من **انصباب الماء وانسكابه بسرعة** إذا امتلأ الإناء ، فهو تعبير تصوير يدل على **سرعة الإقبال على تكاليف الله تعالى الشرعية بحيوية ونشاط ورضى وفرح** ، ويدل على سرعة استجابة الصحابة للمنهج فور أن يبلّغه رسول الله ﷺ لهم ، وحسن الإقبال على العمل التكليفي بشوق ولهفة وفرح ، وهو ما يترتب عليه الإخلاص في الأداء ، يقول الشعراوي (فكل هذه المعاني يؤول إليها اللفظ "تُفِيضُونَ فِيهِ" كما يفيض ماء الإناء إذا امتلأ لينزل ، أي : أن تقبلوا على أعمال التكليف بسرعة وانصباب وانسكاب)[4] .

---

[1]) التسهيل لعلوم التنزيل ج1 ص 667
[2]) رواه البخاري في الأدب المفرد ج1 ص 190 رقم 539 وصححه الألباني : صحيح الأدب المفرد ج 1ص215 رقم 418
3) رواه مسلم ج6 ص 41 رقم 1963
[4]) تفسير الشعراوي ج1 ص 3987

قوله (وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ) (61) هذه الآية دليل على سعة علم الله تعالى وإحاطته بكل شيء ، وأن الأحداث صغرت أو كبرت مسطورة عنده في كتاب القضاء والقدر ، فكل ذلك يدل على علم الله الأزلي ، قال سبحانه (فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ) (الزلزلة/7) ، والاستشهاد بعلم الله في هذا السياق له دلالة خاصة على أن المسلم يقصد من كل أعماله وجه الله تعالى ، وأنه الله سبحانه وحده هو حسيبه ، فلا يبتغي الأجر إلا منه .

وقال أبو حيان (**مناسبة هذه الآية لما قبلها** أنه تعالى لما ذكر جملة من أحوال الكفار ومذاهبهم والرد عليهم ، ومحاورة الرسول ﷺ لهم ، **وذكر فضله** تعالى على الناس وأن أكثرهم لا يشكره على فضله ، **ذكر** تعالى **اطلاعه** على أحوالهم وحال الرسول معهم في مجاهدته لهم ، وتلاوة القرآن عليهم ، وأنه تعالى عالم بجميع أعمالهم ، **واستطرد** من ذلك إلى **ذكر أولياء** الله تعالى ، ليظهر **التفاوت بين الفريقين** فريق الشيطان وفريق الرحمن)[1].

قوله (أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ)(62) الولاية تكون لله لا لغيره ، أما ولاية الله للعبد فهي خير ما يفرح به العبد ، قال رسول الله ﷺ (**إِنَّ لِلَّهِ أَهْلِينَ** مِنْ النَّاسِ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ هُمْ قَالَ **هُمْ أَهْلُ الْقُرْآنِ أَهْلُ اللَّهِ وَخَاصَّتُهُ**)[2]

والذي يفرح بذلك لا يخاف ولا يحزن ، قال ابن تيمية أي (لاَ خَوْفٌ عَلَيهِمْ مِمَّا يَسْتَقْبِلُونَهُ مِنْ أَهْوَالِ الآخِرَةِ ، وَلاَ يَحْزَنُونَ عَلَى مَا خَلَّفُوهُ وَرَاءَهُمْ فِي الدُّنْيَا) [3] .

فالولاية مرتبة عظيمة عند الله ، ومهما بلغت مرتبة الأولياء فإنها دون مقام النبوة ، ولذلك فإن من أصول الاعتقاد عند أهل السنة أنهم لا يفضلون أحداً من الأولياء على أحد من الأنبياء عليهم السلام، ويقولون : (نبي واحد أفضل من جميع الأولياء) [4]

قال ابن تيمية (وطريق الولاية في الكتاب والسنة هو المحافظة على الفرائض والحرص على النوافل، والتحقق بمقامات الإيمان، والتزين بلباس التقوى)[5].

ويكفي للاستشهاد بمنزلة الأولياء عند الله ما روي عن عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ لَأُنَاسًا مَا هُمْ بِأَنْبِيَاءَ وَلَا شُهَدَاءَ **يَغْبِطُهُمْ الْأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَكَانِهِمْ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى** قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ تُخْبِرُنَا مَنْ هُمْ قَالَ هُمْ قَوْمٌ **تَحَابُّوا بِرُوحِ اللَّهِ** عَلَى غَيْرِ أَرْحَامٍ بَيْنَهُمْ وَلَا أَمْوَالٍ يَتَعَاطَوْنَهَا فَوَاللَّهِ إِنَّ وُجُوهَهُمْ لَنُورٌ وَإِنَّهُمْ عَلَى نُورٍ لَا يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ وَلَا يَحْزَنُونَ إِذَا حَزِنَ النَّاسُ وَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ "أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ"[6].

---

[1]) البحر المحيط ج6 ص 341
[2]) رواه ابن ماجة ج1 ص 250 رقم 211 وصححه الألباني : صحيح سنن أبي ماجة ج1 ص 42 رقم 178
[3]) الفرق بين أولياء الله وأولياء الشيطان ج1 ص 1
[4]) شرح العقيدة الطحاوية للمصلح ج21 ص 5 تفريغ الشبكة الإسلامية
[5]) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ج1 ص 40
[6]) رواه أبو داود ج9 ص 404 رقم 3060 وصححه الألباني ج8 ص 27 رقم 3527

وعن أَبَي مَالِكٍ الأَشْعَرِيُّ، قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا قَضَى صَلاتَهُ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فَقَالَ:"إِنَّ لِلَّهِ عِبَادًا، لَيْسُوا بِأَنْبِيَاءَ وَلا شُهَدَاءَ، يَغْبِطُهُمُ النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ **عَلَى مَجَالِسِهِمْ، وَقُرْبِهِمْ مِنَ اللَّهِ**، فَجَثَى رَجُلٌ مِنَ الأَعْرَابِ، فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، **انْعَتْهُمْ لَنَا** عَلِّمْهُمْ لَنَا ؟ شَكِّلْهُمْ لَنَا، فَسُرَّ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِسُؤَالِ الأَعْرَابِيِّ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هُمْ نَاسٌ مِنَ النَّاسِ، وَنَوَازِعُ الْقَبَائِلِ، لَمْ تَصِلْ بَيْنَهُمْ أَرْحَامٌ مُتَقَارِبَةٌ، **تَحَابُّوا فِي اللَّهِ وَتَصَافَوْا بِصَفْوِ اللَّهِ لَهُمْ** يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ، فَيَجْلِسُونَ عَلَيْهَا، وُجُوهُهُمْ نُورٌ، وَثِيَابُهُمْ نُورٌ يَفْزَعُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلا يَفْزَعُونَ وَهُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ، وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ"[1].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِنَّ اللَّهَ قَالَ **مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ** وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي **يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ** فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ)[2].

قوله (الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ)(63) هذا تعريف بالولي بجملة مختصرة ، فجمع بين صدق الإيمان والتقوى في العمل [3]، قال ابن تيمية **(فَكُلُّ مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا تَقِيًّا كَانَ لِلَّهِ وَلِيًّا)**[4]، وعليه فإن الكرامات ليست من لوازم الولاية ، فكثير من الأولياء ليس لهم كرامات ، وإنما يؤيد الله بتلك الكرامات الولي متى احتاج لها ، بل إن كثير من الأولياء لا يؤبه لهم في نظر الناس كما قال النبي ﷺ **(رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ)**[5] ، قال ابن تيمية (وليس ذلك محصورا في رثاثة الحال ولا قذارة الثياب بل الولاية في كل مؤمن تقي كما قال (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون).

قال العلماء (فأولياء الله المتقون المحسنون هم الذين **آمنوا** بالله عز وجل وبإلهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته **وأفردوه بالعبادة** محبة وتذللا وانقياد وخوفا ورجاء ورغبة ورهبة وخشية وخشوعا ومهابة وتعظيما وتوكلا عليه وافتقارا إليه واستغناء به عما سواه **واتقوه** بامتثال أوامره ومحبة مرضاته وترك مناهيه وموجبات سخطه سرا وعلنا وظاهرا وباطنا قولا وعملا واعتقادا **واستشعرت** قلوبهم ونفوسهم إحاطة الله عز وجل بهم علما وقدرة ولطفا وخبرة بأقوالهم ونياتهم وأسرارهم وعلانياتهم وحركاتهم وسكناتهم وجميع أحوالهم كيف عملوا وأين عملوا ومتى عملوا فكان عملهم خالصا لله موافقا لشرعه مناطا بما جاءت به رسله ونطقت به كتبه مستحضرين ذلك بقلوبهم نافذة فيه بصائرهم فأخلصوا لله العمل وراقبوه مراقبة)[6].

---

[1]) تفسير ابن أبي حاتم ج8 ص 57
[2]) رواه البخاري ج20 ص 158 رقم 6021
[3]) الشيخ اسحق الحويني : صفات أولياء الله

https://www.youtube.com/watch?v=jKpcf3eH-i8

[4]) الفتاوى الكبرى ج1 ص 206
[5]) رواه مسلم ج13 ص 60 رقم 4754
6) حافظ بن أحمد حكمي : معارج القبول ج3 ص 1000

قوله (..لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) (64) عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ (لَهُمْ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ) قَالَ هِيَ **الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ** يَرَاهَا الْمُسْلِمُ أَوْ تُرَى لَهُ)[1]، أي هذا في الدنيا .

وقيل هي بركة العمل الصالح يراه في الناس فيقتدون به ، كما في حديث أَبِي ذَرٍّ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ قُلْتُ لَهُ الرَّجُلُ **يَعْمَلُ الْعَمَلَ لِلَّهِ فَيُحِبُّهُ النَّاسُ عَلَيْهِ قَالَ ذَلِكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ**)[2]، فيكون حاله كمن سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها ، فتلك من المبشرات حتى يثبت على الطاعة ويداوم عليها ، وذلك متى التزم الإخلاص في العمل ولم يشوبه رياء .

والمعنى أن **الله لا يترك أولياءه في حيرة من أمرهم لاسيما في مواطن الفتن** ، فإنه سبحانه يرشد عباده المؤمنين إلى ما فيه خير في حياتهم عن طريق الرؤيا الصالحة ، **فعندما تشتد الفتن** قد يصير الحليم حيرانا ، **فيكون المؤمن بحاجة إلى ما يرشده للحق** ، ويثبته عليه ، فتكون رؤياه بمثابة بشرى له كي يظل على الحق ويثبت عليه

ولما كانت الرؤيا من البشرات للمؤمن ، فإنها تتضمن من وجه آخر تحزين لمن هو عدو للمؤمن ، ولذلك فإن من آداب التعامل مع الرؤيا الصادقة أن لا يحدث بها إلا من يحب ، كما حصل لنبي الله يوسف لما حكى رؤياه لأبيه ، (قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ) (يوسف 5) ، قال رسول الله ﷺ (**الرُّؤْيَا الْحَسَنَةُ مِنْ اللَّهِ** فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يُحِبُّ ، فَلَا يُحَدِّثْ بِهِ إِلَّا مَنْ يُحِبُّ)[3].

لكن الرؤى **لا يؤخذ منها حكم** ، فلا يجب فعل ما أرشدت إليه أو ترك ما حذرت منه، ما لم يكن الفعل واجبا أو محرما بالشرع ، قال العلماء (**ولا يلزم من صحة الرؤية التعويل عليها في حكم شرعي لاحتمال الخطإ في التحمل وعدم ضبط الرائي**[4]) ، ولذلك قال نبي الله يوسف للذي ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك ، فنبي الله يوسف يعبر الرؤى وآخر قوله فيما انتهى إليه التعبير سماه القرآن ظن .

أما إذا تضمنت الرؤيا شيء يكرهه ، فليحذر أن يحدث بها أحدا [5]، قال رسول الله ﷺ (..وَإِذَا رَأَى مَا يَكْرَهُ فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّهَا وَمِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَلْيَتْفِلْ ثَلَاثًا وَلَا يُحَدِّثْ بِهَا أَحَدًا فَإِنَّهَا لَنْ تَضُرَّهُ)[6].

فعَنْ أَبِي سَلَمَةَ قَالَ كُنْتُ أَرَى الرُّؤْيَا أُعْرَى مِنْهَا غَيْرَ أَنِّي لَا أُزَمَّلُ – أي لا يتغطى لشدة تقلبه وانزعاجه – حَتَّى لَقِيتُ أَبَا قَتَادَةَ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ الرُّؤْيَا مِنْ اللَّهِ وَالْحُلْمُ مِنْ الشَّيْطَانِ فَإِذَا حَلَمَ أَحَدُكُمْ حُلْمًا يَكْرَهُهُ فَلْيَنْفُثْ عَنْ يَسَارِهِ ثَلَاثًا وَلْيَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّهَا فَإِنَّهَا لَنْ تَضُرَّهُ) [7].

---

[1]) رواه ابن ماجة ج11 ص 372 رقم 3888 وصححه الألباني : صحيح ابن ماجة ج2 ص 338 رقم 3146
[2]) رواه ابن ماجة ج12 ص 271 رقم 4215 ورواه مسلم ج13 ص 97 رقم 4780
[3]) رواه البخاري ج21 ص 429 رقم 6522
4) العطار في حاشيته على "شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع" (2/ 467)
[5]) الشيخ سعد الخثلان :
https://www.youtube.com/watch?v=VXVUR7Mf4Sk
[6]) رواه مسلم ج 11 ص 348 رقم 4195
[7]) رواه مسلم ج11 ص 348 رقم 3195

وعن أَبي سَلَمَةَ يَقُولُ لَقَدْ كُنْتُ أَرَى الرُّؤْيَا فَتُمْرِضُنِي حَتَّى سَمِعْتُ أَبَا قَتَادَةَ يَقُولُ وَأَنَا كُنْتُ لَأَرَى الرُّؤْيَا تُمْرِضُنِي حَتَّى سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ الرُّؤْيَا الْحَسَنَةُ مِنْ اللَّهِ فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يُحِبُّ فَلَا يُحَدِّثْ بِهِ إِلَّا مَنْ يُحِبُّ وَإِذَا رَأَى مَا يَكْرَهُ فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّهَا وَمِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَلْيَتْفِلْ ثَلَاثًا وَلَا يُحَدِّثْ بِهَا أَحَدًا فَإِنَّهَا لَنْ تَضُرَّهُ) [1].

ولكن يجوز أن يحكيها لأهل الصلاح لتعبيرها ، كما حكى سالم رؤياه لرسول الله ﷺ ، فعَنْ سَالِمٍ عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ كَانَ الرَّجُلُ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ إِذَا رَأَى رُؤْيَا قَصَّهَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَتَمَنَّيْتُ أَنْ أَرَى رُؤْيَا فَأَقُصَّهَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَكُنْتُ غُلَامًا شَابًّا وَكُنْتُ أَنَامُ فِي الْمَسْجِدِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَرَأَيْتُ فِي النَّوْمِ كَأَنَّ مَلَكَيْنِ أَخَذَانِي فَذَهَبَا بِي إِلَى النَّارِ فَإِذَا هِيَ مَطْوِيَّةٌ كَطَيِّ الْبِئْرِ وَإِذَا لَهَا قَرْنَانِ وَإِذَا فِيهَا أُنَاسٌ قَدْ عَرَفْتُهُمْ فَجَعَلْتُ أَقُولُ أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ النَّارِ قَالَ فَلَقِيَنَا مَلَكٌ آخَرُ فَقَالَ لِي لَمْ تُرَعْ فَقَصَصْتُهَا عَلَى حَفْصَةَ فَقَصَّتْهَا حَفْصَةُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللَّهِ لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنْ اللَّيْلِ فَكَانَ بَعْدُ لَا يَنَامُ مِنْ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا)[2].

أما البشرى في الآخرة فقد يقصد بها عند المعاينة ، أي قبل الموت بلحظات ، وقيل أن المؤمن يرزق رؤيا صالحة قبل موته ليستعد للقاء الله [3]، وقد علم النبي ﷺ بدنو أجله قبل موته ، حيث يرى المؤمن ما يبشره بلقاء الله ، وأنه أوشك أن يستريح من نصب الدنيا ، فعَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (الْمُؤْمِنَ إِذَا **حَضَرَهُ الْمَوْتُ بُشِّرَ بِرِضْوَانِ اللَّهِ وَكَرَامَتِهِ** فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ فَأَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ **وَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ**)[4] .

فعن الزهري وقتادة رضي الله عنه في قوله (لهم البشرى في الحياة الدنيا) قالا : (البشارة عند الموت)[5]، ولذلك علامات ، قال رسول الله ﷺ (إذا أراد الله بعبد خيرا **عسله** قيل : يا رسول الله ﷺ وما عسله ؟ قال : **(يفتح له عملا صالحا ثم يقبضه عليه)**[6]، فالتوفيق للعمل الصالح قبل الموت من المبشرات قبل الإقبال على الآخرة ، وهي آخر البشريات في عالم الدنيا ،وقبيل الدخول لعالم الآخرة .

ثم تأتيه البشرى مرة أخرى بعد الموت ، وبعدما ترد روحه لجسده وهو لا يزال في القبر في الحياة البرزخية قال رسول الله ﷺ (**إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنْ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنْ الْآخِرَةِ** نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنْ السَّمَاءِ بِيضُ الْوُجُوهِ كَأَنَّ وُجُوهَهُمْ الشَّمْسُ مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ عَلَيْهِ السَّلَام حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُولُ أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ قَالَ فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ فَيَأْخُذُهَا .. .. **فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ** فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ مَنْ رَبُّكَ فَيَقُولُ رَبِّيَ اللَّهُ فَيَقُولَانِ لَهُ مَا دِينُكَ فَيَقُولُ دِينِيَ الْإِسْلَامُ فَيَقُولَانِ لَهُ مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ فَيَقُولُ هُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَيَقُولَانِ لَهُ وَمَا عِلْمُكَ فَيَقُولُ قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ فَيُنَادِي مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ أَنْ صَدَقَ عَبْدِي فَأَفْرِشُوهُ مِنْ الْجَنَّةِ وَأَلْبِسُوهُ مِنْ الْجَنَّةِ وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ قَالَ فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ قَالَ وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ حَسَنُ الثِّيَابِ طَيِّبُ الرِّيحِ فَيَقُولُ **أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ هَذَا يَوْمُكَ** الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ

---

[1]) رواه البخاري ج21 ص 429 رقم 6522
[2]) رواه البخاري ج4 ص 280 رقم 1054
[3]) الشيخ سعد الخثلان : SNfSU3i94https://www.youtube.com/watch?v=_u
[4]) رواه البخاري ج20 ص 165 رقم 6026
5) وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم : انظر تخريج السيوطي : الدر المنثور ج5 ص 254
6) رواه الطبراني في المعجم الكبير ج8 ص 110 رقم 7538 وصححه الألباني : صحيح وضعيف الجامع الصغير ج1 ص 307

فَيَقُولُ لَهُ مَنْ أَنْتَ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالْخَيْرِ فَيَقُولُ أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ **فَيَقُولُ رَبِّ أَقِمْ السَّاعَةَ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي**)[1]

قوله (..لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) (64) أي أن هذه البشرى بسعادة الدارين ،وذلك هو الفوز العظيم ، فيجمع الله لأوليائه بين سعادة الدنيا وسعادة الآخرة ، وهو وعد من الله ، لا يخلف الله وعده [2]، فالمسلم يستأنس بما يبشره الله به من خير ، ويظل مستأنسا بتلك البشريات حتى يلقى الله سبحانه .

فهذه البشريات هي الدافع الذي يقوي حركة المؤمن للجهاد في سبيل ربه مضحيا بكل ما معه لأجل مرضاته ، قال تعالى (الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (20) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (21) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (التوبة 22) .

قوله (وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) (65) فأهل الولاية لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، فقلوبهم مطمئنة بذكر الله ، لا تؤثر فيها الأكدار والأحزان ، ولا ينقص من عزتها شيء من المصائب والابتلاءات ، قال تعالى (لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ) (آل عمران 186).

ولم تصرح الآية بما يحزنه من قولهم تحقيرا له ، ومعلوم أنه أصابه كثير من الأذى القولي ولكنه صبر عليهم ، فنزلت الآية لتواسيه في ذلك ، تطييبا عليه ﷺ ، فلم تذكره بما كانوا يقولون ، لينتهي عن الحزن أيسر وأسرع من حال تذكيره بذلك ، ليشغل باله بما هو أهم ، فلا يلقي بالا للأذى القولي الصادر من المشركين .

ومن أمثلة ذلك الأذى ما حكاه الله عن المنافقين في قوله (يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ **لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ**) (المنافقون7) ، فقولهم هذا وتعييره أنه ليس من أهل المدينة الأصليين ، وتهديدهم بطرده منها بعد الغزو لن ينقص من عزة المسلم بربه شيء ، فهو يستمد العزة منه وحده ، قال تعالى (**وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ** وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ)(المنافقون 7) .

إذن لابد أن يتمتع الدعاة إلى الله بحالة نفسية مستقرة ومطمئنة لا يهزها أو يؤثر فيها شيء من أقوال السفهاء وافتراءاتهم واتهاماتهم الباطلة ، فقد سُئل أحد الصالحين : ماتظن الناس يقولونَ فيك ؟ قال : أني لميت وإنهم لميتون وإني لوحدي محاسب وإنهم لمحاسبون ، فما لي ومايقولون ؟

---

[1]) رواه أحمد ج37 ص 490 رقم 17803 وصححه الألباني : الجامع الصغير ج1 ص 256 رقم 2556

[2]) في هذا المعنى أسعد حومد أيسر التفاسير ج1 ص 1439

قوله (أَلا إِنَّ لِلّهِ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ ..) (66) فالعبد المسلم إذا وضع في ذهنه هذا المعنى ، وأن قدرة الله سبحانه وملكه وسع السماوات والأرض وما فيهن فإنه ولا شك لن يحزنه شيء من هذه الدنيا ، وسوف يتسع صدره لكل الأحداث فيها .

قوله (..وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ شُرَكَاء إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ) (66) هذه الآية عينت توصيفا دقيقا لحال المشركين ، فهم بداءة يتبعون غير سبيل المؤمنين ، المؤمنون يدعون الله ، وهم يدعون غيره ، المؤمن يستعين بالله ويتوكل عليه ، وهم يستعينون بغيره ويتوكلون على غير الله ، فالمشرك يظن أنه يتوكل على شريك لله في ملكه ، والله تعالى له الملك خالصا له وحده ، ولذلك يكشف الله لهم عن حقيقة ما يعبدون من دونه ، وماهية ما يتبعون ، فهم يتبعون الوهم المبني على الظن الخاطئ ، وأمور الاعتقاد لابد وأن تبنى على اليقين ، فضلا عن أنهم يتخرصون أي يكثرون من الظن الخاطئ المبني على التكهن والتخرص والتخمين ، يقول النبي ﷺ **(إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ)**[1]، فهؤلاء القوم يتوهمون أنهم يستمدون القوة والعزة من شريك مع الله تعالى ، ولا يفطنون إلى ضعف ما يشركون به وهوانهم وفقرهم وحاجتهم ، والنتيجة الحاصلة من عبادتهم عكس ما يظنون ، حيث تزيدهم الولاية لغير الله تعالى ضعفا وهوانا ورهقا ، كما قال تعالى **(وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا)** (الجن 6) .

قال ابن عاشور في الكلام – هنا – (تصريح بهوان، شأنهم عند الله وعند رسوله ومن التعريض باقتراب حلول الغلبة عليهم يخامرهم بعض الشك في صدق الرسول وأن ما توعدهم به حق، ثم يغالطون أنفسهم ويسلون قلوبهم بأنه إن تحقق ذلك سيجدون من آلهتهم وساطة في دفع الضر عنهم ويقولون في أنفسهم: لمثل هذا عبدناهم، وللشفاعة عند الله أعدناهم, فسيق هذا الكلام لقطع رجائهم منهم بالاستدلال على أنهم دون ما يظن بهم)[2].

قوله (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ) (67) موضع هذه الآية في هذا السياق القصد منه الاستشهاد بقدرة الله تعالى على أنه ليس بحاجة لشريك في ملكه ، فهو يصرف ملكه ويدبره كيف يشاء ، وظاهرة تعاقب الليل والنهار دليل على انتظام الكون وفق مراد الله ، فلا يشذ عن تدبير أحد ، ولا يشاركه في ملكه أحد ، وإلا لتعطلت هذه الظاهرة لاختلاف الشركاء

يقول الطبري (الله الذي لا تصلح الألوهة إلا له، ولا تنبغي العبادة لغيره، الذي صفته أنه جعل لكم أيها الناس الليل سكنا لتسكنوا فيه، فتهدءوا من التصرّف والاضطراب للمعاش، والأسباب التي كنتم تتصرفون فيها في نهاركم (وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا) يقول: وجعل النهار مبصرا من اضطرب فيه لمعاشه، وطلب حاجاته، نعمة منه بذلك عليكم)[3].

ويقول صاحب الظلال (إن السكون بالليل ضرورة لكل حي ، ولا بد من فترة من الظلام تسكن فيه الخلايا الحية وتستكن لتزاول نشاطها في النور ، ولا يكفي مجرد النوم لتوفير هذا السكون، بل لا بد من ليل، لا بد من ظلام ،

---

[1]) رواه البخاري ج16 ص 110 رقم 4747
[2]) التحرير والتنوير ج11 ص 129
[3]) تفسير الطبري ج21 ص 408

فالخلية الحية التي تتعرض لضوء مستمر تصل إلى حد من الإجهاد تتلف معه أنسجتها لأنها لم تتمتع بقسط ضروري لها من السكون)[1] .

وقال ابن عاشور (آية يونس مسوقة مساق الاستدلال والامتنان فخاطب بها جميع الناس من مؤمن وكافر فجاءت بصيغة الخطاب، وجعلت دلالتها لكل من يسمع أدلة القرآن فمنهم مهتد وضال ،ولذلك جيء فيها بفعل (يَسْمَعُونَ) المؤذن بالامتثال والإقبال على طلب الهدى)[2] ، أي (تلك الآيات لمن يسمع سماع قبول واستجابة لا من يسمع الصوت ولا يفكر فيه ولا يتدبر معانيه)[3].

قوله (قَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ) (68) هذه هي أشد صور الشرك بالله تعالى والافتراء عليه ، بأن يُنسب إليه سبحانه النقص ، فيفترى عليه أنه بحاجة للولد ، وهو سبحانه بائن من خلقه ، تعالى الله عما يقولون ، هو الغني ، ولا حاجة له للصاحبة ولا للولد ، وكل شيء هو له .

فالذي له ملك السماوات والأرض وما فيهما هل ينقصه شيء ؟ وهل يكون بحاجة للولد ؟ بل هو غني عن ذلك سبحانه ، ففي الأثر (قال الله تعالى: إني والجن والإنس في نبأ عظيم! أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر غيري)[4].

قوله (..إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ) (68) وليتهم في هذا الافتراء قد ارتكنوا إلى علم موثق من صاحب سلطان ، وإنما هو مجرد تهكن وتخرص واتباع للظن كما سلف ذكره ، بل هو تقول على الله بغير علم .

بهذا يكشف لنا القرآن عن منهجية المشركية في التفكير ، فهي لا تعتمد على الاستيثاق من المعلومة ، بل إن كل قول متوهم أو مشكوك فيه إذا صادف أدمغة فارغة يكون في مرتبة العلم الموثوق فيه ، حتى وإن كان في مجال العقيدة التي لا ينبغي فيها إلا الحق واليقين .

قوله (قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ) (69) أي أن هذا الافتراء من باب المكر ، والكذب الذي لا يفلح صاحبه ، فلا يحيق المكر السيء إلا بأهله ، **فكلما أرادوا أن ينتقصوا من حقوق الله تعالى بافتراء الكذب عليه ، كلما لحقهم هم النقص والعيب** ، وتعالى الله مما يصفون

قوله (مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ) بيان لسبب افترائهم على الله تعالى ، وأنهم يفعلون ذلك لأجل متاع الدنيا القليل والزائل ، وليس لمجرد الخطأ في التخرص والتقدير ، فهذا إن جاز في

---

[1]) في ظلال القرآن ج6 ص 269
[2]) التحرير والتنوير ج19 ص 315
[3]) أيسر التفاسير للجزائري ج2 ص 141
4 كنز العمال ج16 ص 3 رقم 43672 ، وقال ابن باز (هو من أخبار بني إسرائيل التي قال فيها النبي ﷺ حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ولكن معناه صحيح،) https://binbaz.org.sa/fatwas/13753/

حق بعض الناس أن يتبعوا غيرهم بغير علم ، في مسائل المعاملات التجارية ، فإنه لا يجوز في حقهم في مجال الاعتقاد في الله ، لكن أصحاب هذه الفرية يفعلون ذلك عن عمد وقصد ، يشترون الدنيا بالآخرة ، (وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (85) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ) (البقرة 86) .

يهونون صورة الإله في أذهان الناس بأن ينسبوا له النقص ليهون عليهم حكمه وأمره ، ويعظمون شأن الدنيا في أعين الناس ، ليكثر تكالبهم عليها ، فتروج سلعتهم ، ويبيعون لهم الوهم ، وبالطبع ينكرون أمر الآخرة ، في رغبة منهم أن ينتصر أصحاب الدنيا على أصحاب الآخرة ، هذا ظنهم ، ولكنهم لا يفلحون أبدا ، وهذا وعد الله ولا مبدل لكلماته ، وتلك هي بشرى الله للمؤمنين ، ألا يفلح الكافرون ، ومرجعهم إليه ليذيقهم العذاب الشديد لكفرهم بالله وافترائهم عليه .

المحور الثامن

المنهج الدعوي لأهل الولاية في تحرير الناس من عبادة غير الله وإنجاء المؤمنين

لم تمض سبع آيات عن حديث القرآن عن أهل الولاية ، وحال المفترين على الله الكذب حتى عادت مرة أخرى للحديث عن أولياء الله ، حيث الأنبياء والمرسلين ، فالولاية لفظ أعم ، والنبوة أخص ، فكان الحديث عن سيرة الأنبياء نوع من الحديث عن أهل الولاية لتظل حياتهم وسيرتهم بمثابة الدرس الذي تتعلمه الأجيال المتعاقبة ، فقد عني هذا المبحث بعدة أحداث في حياة الرسل تدور جميعها حول **تركيز أولويات الدعوة علي تركيز المجهود الدعوى على إيصال الإيمان للناس ، مهما طال بهم الزمان واشتد بهم العناد** وكبرت عليهم النصيحة ، -ولنا في نبي الله **نوح** أسوة حسنة – فالدعوة لابد وأن تستمر بلا انقطاع ، يحملها من لا ينشغل بإعراض المشركين ، فالجهد الدعوى ينبغي أن يستمر لا ينقطع ، يزيد ولا يقل أبدا.

ومن أولويات الدعوة -كذلك- **تحرير الناس من كل العراقيل التي تحول بينهم وربهم** ، بداية من إبطال كل صور الصد عن سبيل الله **لاسيما السحر** الذي يحول دون وصول الحقائق لقلوب الناس ، بل ليؤدي إلى قلب الحقائق إلى زيف وباطل ، وهذا الزيف يوهم الناس فيظنوه حقا وليس هو إلا باطلا ، فكان جهد موسى عليه السلام في أول مبدأ دعوته **التوجه لمصدر التشويش الذهني والتضليل الإعلامي** والصد عن سبيل الله فتوجه مباشرة إلى فرعون ليبطل سحره .

فإذا نجح في ذلك اتجه **للخطوة الثالثة** في الدعوة والتي تتمثل في ضرورة **الالتفاف الحثيث حول القلة المؤمنة وتثبيتها على الحق** وإخبارها بأن مواجهة الباطل لابد منها لتستعد لهذه المواجهة وإن لم يكن الوقت مواتيا في تلك المرحلة لإعلان ذلك .

ثم إذا جاء وقت المواجهة عرضا وليس سعيا ، كما قال النبي ﷺ (لا تتمنوا لقاء العدو ولكن إذا لقيتموه فاثبتوا) ، ويحصل ذلك بانفعال الباطل على أهل الحق ليظلمهم ، فعندئذ لابد وأن يتحرك أتباع الرسل موسى وعيسى ومحمد بقومهم لمواجهة الباطل في الأرض والميعاد الذي حدده الله له ، فتكون النتيجة دوما نجاة المؤمنين وهلاك الكافرين .

وليس ذلك هو نهاية القصة ، بل لابد من **جنى ثمار هذه الدعوة** والحركة المباركة ، حيث **الثراء الفكري** ، واتساع الأفق ، **والانفتاح على الآخر** ،وحرية التعبير ، وتبادل الثقافات حتى يتاح لأهل الكتاب مناظرتنا ومناظرتهم ، وإيكال مسألة الإيمان والكفر لله ، فالعقائد لا تخضع للتنظيم ، فالقاعدة فيها الحرية المطلقة ، وإنما يمكن مناقشة الفكر بالفكر والرأي بالرأي ليؤمن من يؤمن ويكفر من يكفر .

وفي ذات الوقت لابد وأن نؤمن بأن الدعوة المباركة لابد وأن تؤتي ثماره حتى أثناء سيرها في مواجهة الباطل ومحاربته ، وفي أشد صور التضييق ، فقد استطردت السورة في حكاية قصة الصراع والتحدي الذي دار بين موسى وفرعون ، واستعانة فرعون بالسحرة والجن لتحدى موسى ، وتضليل الناس عن عبادة ربهم ، وكيف أن الله تعالى أبطل سحر

فرعون وأيد عبده ورسوله بالمعجزات ، وأثناء ذلك **أشارت إلى إيمان السحرة أنفسهم لما رأوا المعجزة على يديه نبيهم** ، وأشارت كذلك إلى **انضمام طائفة من ذرية من بني إسرائيل للمؤمنين في السر على خوف من فرعون وملئه** ، فالدعوى تؤتي ثمارها أثناء سيرها بتوريثها للأجيال المتعاقبة .

كما أشارت الآيات من وجه أخرى إلى أن موسى في هذه المرحلة من الدعوة قد ضاق به صدره من تكبر فرعون وقومه على عباد الله بنعم الله التي أغدقها عليهم ، فدعا على قومه بالسخط وذهاب البركة ، لكن لم يتركهم كما فعل نبي الله يونس بل ظل مرابطا في مكانه يدعو إلى الله ، فاستجاب الله له ونجاه من فرعون وأغرقه وقومه ليكون لمن خلفه عبرة وأية ، وأورث بني إسرائيل الأرض التي بوأها لهم .

وقد عقبت الآيات على هذه القصة بأنها متداولة عند أهل الكتاب كذلك، ولا ينكرها أحد منهم.

وعلى النقيض من ذلك يحكي الله تعالى قصة نبي الله يونس الذي هجر قومه لما ضاق صدره بهم ، فلما هجرهم آمنوا ، فنفعها إيمانهم ولم ينزل الله بهم عذابه ، ليتعلم الرسول من ذلك درسا ، أن مسألة الإيمان والكفر بيد الله تعالى ، وليس عليه أن ينشغل بذلك ، وليس عليه أن يكرههم على الإيمان (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ) (100) ، فالقدر المشترك في هذه القصص جميعا أن الله تعالى يهلك المكذبين وينجي المؤمنين ، فأنى لأهل هذا الزمان من الاعتبار بمن قبلهم من الأزمان الغابرة ، وفي تفصيل هذه الحكايات ستة مقاطع على النحو التالي :-

المقطع الأول : صبر نبي الله نوح على قومه لما كبر عليهم تذكيرهم بآيات الله
المقطع الثاني : تمهيد الطريق للدعوة بإبطال الأسحار وعمل المفسدين (في قصة موسى وفرعون)
المقطع الثالث : الالتفاف الحثيث حول المؤمنين ثالث أولويات الدعوة(تابع المرحلة التأسيسة لدعوة نبي الله موسى)
المقطع الرابع : المنهج الحركي للدعوة(تابع قصة موسى وفرعون)
المقطع الخامس : التثبت من الأحكام قبل تطبيقها من أظهر ثمار المنهج الحركي
المقطع السادس : إيكال أمر إيمان الناس إلى الله ، والتسليم لحكم الله فيهم إما يعذبهم أو ينجيهم

المقطع الأول

صبر نبي الله نوح على قومه لما كبر عليهم تذكيرهم بآيات الله

قال تعالى (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللّهِ فَعَلَى اللّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُواْ إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ (71) فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (72) فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَئِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (73) ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَآؤُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلوبِ الْمُعْتَدِينَ) (74)

تناولت هذه الآيات قصة نوح عليه السلام ، وقد أوضحت كيف أن قومه قد ضجروا من دعوته وسأموا منه أن ظل يدعوهم إلى الله ويذكرهم بآياته عمرا مديدا ، وفي ذات الوقت استمر هو يدعوهم ليل لنهار دون فتور أو تعب حتى ضاقت به الأسباب ، ولم يبق غير توكله علي الله ، فقد وصل بهم الضجر أن أحسوا بالغم من ملازمته لهم ونصيحته الدائمة ، فأصروا على العناد ، وأسروا عداوتهم له ، وكادوا يدبرون شيئا عليه ، فلما دلت قرائن الحال على محاولة انقلابهم عليه والغدر به أمرهم جميعا أن يظهروا ما عندهم ويكشفوا عداوتهم له ، وأخبرهم أنه لا يعاب عداوتهم ، فعليه أن يجمعوا أمرهم ويستعينوا بشركائهم في المعصية ليظهروا تلك العداوة فيما بينه وبينهم ، ولينفذوا أمرهم بشأنه ، ولقضوا فيه أمره ما يقضوا ، فتلك جميعا أحكام لا وزن لها عند الله الذي يتوكل عليه ، ويفوض أمره إليه ، فحال المتوكل على ربه الثقة فيه والطمأنينة بقضائه وقدره .

ثم لامهم أن أجمعوا على فعل السوء به بالمكر والخديعة – أي بتقليل أنصاره بنفيهم وطردهم خارج البلاد – أو بالغدر والخيانة – بالقتل والرجم – ، وهو لم يطلب منهم أجرا ، وإنما احتسب كل جهد دعوى بذله في سبيل الله ، فالله وحده عنده الأجر العظيم (وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ) (الشعراء 109) ، فعلام العناد معه ومحاولة الكيد به .

ورغم ذلك ظل مستمسكا بدينه ، متوكلا على ربه ، يؤدي ما كلفه به ربه من العبادات مستظهرا لشعائر الإسلام ، ولا يبالي بمن خالفه وعصاه ، وهو يعلم أنه وإن كان وحده فإن عليه واجب أ، يكون أول من أعلن للناس إسلامه وشعائر دينه ، وهو يعلم أن الله سبحانه سوف ينصر أولياءه ، ولن يتركهم ، بل ينجيه وفريق من آمن به ، ويغرق الكافرين المعاندين معه .

وهكذا تظل دعوة الله ماضية يتوارثها جيل بعد جيل ، فيكتب الله لهذه الدعوة النجاة دائما ، كلما مضى زمن نبي خلفه نبي بعده ، وهكذا تستظهر الدعوة موقف الفريقين ، فريق آمن بدعوة الرسل وفريق مكذب بها طبع على قلوبهم الكفر لأنهم كانوا معتدين .

قوله (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللّهِ فَعَلَى اللّهِ تَوَكَّلْتُ..) (71) أمر الله نبيه أن يتلو على قومه قصة نبي الله نوح ، وفينبئهم بأخباره ، لأن فيها العظة والعبرة ، فيقيسوا حالهم

بحال قومه ، فلا يظلوا يعاندونه مثلما عاند قوم نوح نبيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ، لأن نهاية القصة معروفة للجميع ، وهي نجاة المؤمنين وهلاك الكافرين .

وقد استظهرت القصة في بدايتها اعتزاز المسلم بربه وتوكله عليه ، في ظل استثقالهم له ، فبالكاد يتحملون دعوته ، قال ابن عاشور (استعير الكبر لوصف معنى أقوى من أمثال نوعه) ، والمقصود (بيان المشقة والحرج)[1] ، كما في قوله (كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ) [الشورى 13] وقوله: (وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ) [الأنعام 35] .

وهكذا تستظهر الآيات مدى قبول قوم نوح ملازمته لهم وإقامته عندهم على مضض ، فمبدأ المواطنة عند هؤلاء لا يتسع لاختلاف الدين والعقيدة ، فقد أمروه بأن يطرد المؤمنين الذين آمنوا معه ، فما كان منه إلا أن رفض مساومته عليهم ، فقال (وَمَآ أَنَاْ بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّيَ أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (هود 29) وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ) (هود 30) كما هددوا برجمه لمجرد أنه مسلم يدعو ربه ، يتمسك بخلق المعروف وينبذ المنكر وأخلاق الجاهلية ، (قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ) (الشعراء 116) ، فما كان منه إلا أن استنصر هذا النبي الولي بربه ، (فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ) (القمر 10) ، فاستجاب الله له بعدما وصلت الدعوة لآخر مراحلها في المواجهة بين الحق والباطل ، لينصر الله أولياءه وينجيهم ، ويكفر من حقت عليه كلمة العذاب .

قوله (..فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُواْ إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ) (71) أمرهم بأن يظهروا ما يكيدونه عليه ، فالموقف الآن محتدم بينه وبينهم ، ولا مجال فيه للموارية ، بعدما وصل الأمر لمساومته على طرد المؤمنين من بلادهم ، وسلب أموالهم ، وتهديده بالرجم ، فصرح لهم بكل وضوح أنه لا يخشاهم ولا يخشى شركاءهم ، لأنه قد توكل على الله وفوض أمره إليه ، فأهل الحق لا يخشون اجتماع أهل الباطل عليه ولو كانوا ألف راية ، متى رفع هو راية لا إله إلا الله ، يقول النبي ﷺ في حرب آخر الزمان (ثُمَّ هُدْنَةٌ تَكُونُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ بَنِي الْأَصْفَرِ فَيَغْدِرُونَ فَيَأْتُونَكُمْ تَحْتَ ثَمَانِينَ غَايَةً تَحْتَ كُلِّ غَايَةٍ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا)[2]، أي يأتون بجيش قوامه تقريبا مليون جندي ، من أكثر من ثمانين دولة تتحد على المسلمين كل منها يرسل كتيبة من اثنا عشر ألف جندي مدرب محترف مسلح بأحدث الأسلحة ، ولكن المسلمون لا يهابونهم .

فهم يتنصرون عليه بشركاءهم ، وهو يتنصر عليهم بالله ، إذن لابد أن يظهر الحق في موقف المفاصلة والمواجهة ، ويستبين من ولي من ؟ من كان على الحق ومن كان على الباطل ، (أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ) (يونس 62) ، فلا عودة للوراء أو التصالح ، وقد استبان من الكفر أسوأ ما فيه من تدبير بالقتل والرجم لأهل الحق والدعوة ، قال تعالى (وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاء إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ) (الأنفال 58) .

---

[1]) التحرير والتنوير ج11 ص 138

[2]) رواه البخاري ج10 ص 443 رقم 2940

إنها المباهلة والتحدي بين الحق والباطل ، ليستنصر كل منهما بإلهه ، فيستبين أيهما الذي على صواب ، وهي كذلك ملاعنة كما في قوله (فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ) (آل عمران 61) .

قوله (فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ) (72) بين لهم أنه لم يطلب منهم أجرا فيغرمون ، وإنما يلتمس أجره من الله ، فعلام هذا التهديد وهو لم يفعل ما يستوجب ذلك غير أنه أسلم وجهه لله تعالى .

وهكذا يبدو تجرد الدعوة في كل موقف من المنافع المادية والمناصب الدنيوية والزعامة والرياسة السياسية ، فهو لا يدعو إلا لله ، وليس له هم إلا رضاه ،(فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَ غُ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ) (آل عمران 20).

قوله (فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَئِفَ..) (73) ، فالذي حصل بعد ذلك أن سبقهم الله تعالى بتنفيذ وعده له ووعيده لهم لما أصروا على تكذيبه ، حيث نجاه وأغرقهم ، فلم ينج غير المؤمنين ، إذ لم تنفعهم النذارة .

وهكذا يستبدل الله قوما بآخرين ، ويستخلفهم ليعملوا لدينه ، أي يستعملهم في القيام بأداء واجب الدعوة في سبيله بعدما نكث عن حمله المعاندين لأنبيائهم ورسلهم ، وقد ضاقت الدنيا على هؤلاء المؤمنين حتى حملوا في الفلك المشحون ، وهكذا تكون النجاة في أضيق الأماكن وأشحنها ، فالجهاد —ولو بالكلمة– له متطلبات ، وهو عمل شاق حتى ولو فيه النجاة ، ليكون بعد ذلك الفرج والسلام والبركة ، قال تعالى (قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ) (هود 48)

قوله (.. وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ) (73) هذا الغرق هو انتهاء أجل هذه الأمة ، وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ (الأعراف 34) ، فهم هالكون هالكون سواء بالغرق أو بغيره وقد انتهى أجلهم ، ولكن الله جعل الغرق نهايتهم حتى يشهد على هلاكهم الأجيال المتعاقبة ، ولتكون قصة تتدارس بعدهم ،وعبرة لمن خلفهم .

قوله (ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَآؤُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ..) (74) وهكذا تكرر الأحداث مع كل رسول وقومه المكذبين ، حيث لم تخل أمة من رسول ، ولم تغل يداه عن آية يؤيده الله بها تكون بينة على صدقه ، وحجة على قومه ، ولكن قومه عاندوه واعتدوا فما كان من أمرهم إلا أن طبع الله على قلوبهم بالكفر .

قوله (..فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ) (74) (**صيغة النفي المقترنة بلام الجحود** تدل على **المبالغة** في **انتفاء الإيمان** عنهم بأقصى أحوال الانتفاء ، ودلت صيغة الجحود على أن الرسل حاولوا هداية قومهم للإيمان محاولات متكررة دون جدوى)[1] ، ولفظ (كذبوا به من قبل) يؤكد سبق التكذيب منهم لنفي الإيمان عنهم ، لأن الذي يكذب الرسل ويكذب البينات الواضحات لن يؤمن بغيرها ، فمن كان عادته التكذيب لا يبحث عن الحق وجاءه ، ولن يقر به وإن استدل عليه بالآيات البينات .

قوله (..وَكَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلوبِ الْمُعْتَدِينَ) (74) ففيه تفنن في الحكاية للعبرة ، ذلك أن (**الاعتداء**) **افتعال** من عدا عليه، أي ظلمه ، فقد كذبوا الرسل واعتدوا على الصادقين **بلمزهم** بالكذب)[2] ثم المساومة **لطردهم** كما تقدم وتهديدهم **بالرجم** .

قال الشعراوي (بيَّن سبحانه أنه قد طبع علي قلوب المعتدين ، فالاعتداء قد وقع منهم أولاً ، ومعنى الاعتداء أنهم لم ينظروا في آيات الله تعالى ، وكفروا بما نزل إليهم من منهج ، فهم أصحاب السبب في الطبع على القلوب بالاعتداء والإعراض ، وجاء الطبع لتصميمهم على ماعشقوه وألفوه من الشرك ،)[3]، والحق سبحانه وتعالى هو القائل في الحديث القدسي « **أنا أغنى الشركاء عن الشرك** » أي أنهم لما استغنوا غنه استغنى عنهم ،**ولو أنهم ما استغنوا عن الله** واستشعروا حاجتهم له وفقرهم إليه ، وسألوه بإخلاص ، **لما وكلهم لأنفسهم حتى نتغلق قلوبهم** ، ويُطبع عليها بالكفر .

---

[1]) التحرير والتنوير ج11 ص 145
[2]) التحرير والتنوير ج11 ص 145
[3]) تفسير الشعراوي ج1 ص4038

المقطع الثاني
تمهيد الطريق للدعوة بإبطال الأسحار وعمل المفسدين
(في قصة موسى وفرعون)

قال تعالى (ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (75) فَلَمَّا جَاءهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ (76) قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (77) قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاء فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ (78) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (79) فَلَمَّا جَاء السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَى أَلْقُواْ مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (80) فَلَمَّا أَلْقَواْ قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (81) وَيُحِقُّ اللّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (82)

ألمحت الآيات إلى أن أول ما يحول دون قبول دعوة الإسلام عادة التكبر التي تلازم الملوك والأمراء ، فهؤلاء هم أول من يصدون عن سبيل الله مخافة أن يفقدوا ملكهم ،وأن يشاركهم فيه الضعفاء ورعاع الناس ، مثلما وقف فرعون وملأه في طريق موسى وهارون ليمنعوهما من أن يوصلا القول للناس ، فالاستكبار الذي تمكن من قلوبهم حضهم على الإجرام ، إذ لم يقتصر الأمر على مجرد الاتصاف بالكبر ، وهي صفة ذميمة ، بل **أضحى للكبر أثارا مادية ملموسة** تمثلت في الجرم الذي يأتونه بسبب هذا الاستكبار .

وكما سبق القول فإن **الافتراء على أهل الدعوة** هو أشد صور الإجرام التي صدرت منهم ، فإنهم كعادة المكذبين يتهمون نبيهم موسى عليه السلام ، فيقولون أن ماجاء به من الآيات ليس إلا سحر مبين ، بل ومعلوم عندهم مصدرها ، في حين أنهم **هم الذين يلجئون إلى السحر ليحولوا بين الناس والإيمان بالله تعالى** .

وهكذا يبدو أن السحرة ومن يستعينون بهم هم الذين يفترون على أهل الحق بهذه الفرية ، والله تعالى يستعمل أهل الحق ليبطلوا سحر الساحرين وحقد الحاقدين ، من هنا نرى قوة أهل الحق أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هو يحزون ، وفي المقابل نرى خوف فرعون وحزنه وقلق السحرة واضطراب الساحرين .

وكان من دعاء النبي ﷺ الذي يدعو به لدفع الضر والأذى ما يدل على استعانته وتوكله على ربه :-

- «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ، مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَّةٍ » .
- أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ، مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وَذَرَأَ وَبَرَأَ» .
- «بِسْمِ اللهِ الَّذِي لَا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ»

قوله (ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا)(75) أي لابد في كل زمان من قصة تدور أحداثها بين أناس يمثلون الحق وآخرين يمثلون الباطل ، ولابد أن تحصل المواجهة بين أهل الحق وأهل الباطل ، قال

رسول الله ﷺ (**لَا يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي أُمَّةٌ قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ**)[1].

وقد أيد الله هذه الدعوة في زمن فرعون ، ووقت علوه وعتوه ، برسولين (موسى) الذي يتمتع بقوة الشخصية ، و(هارون) الذي يتمتع بحسن البيان ، ليكمل كلاهما النقص الذي في الآخر ، وهكذا كلما كانت الدعوة جماعية كانت أقوى في البيان وإيصال القول للناس ، قال رسول الله ﷺ (**عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ** ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ وَهُوَ مِنْ الِاثْنَيْنِ **أَبْعَدُ** مَنْ أَرَادَ بُحْبُوحَةَ الْجَنَّةِ فَلْيَلْزَمْ الْجَمَاعَةَ)[2] .

كما أيدهما الله –ابتداء– بآيتين إحداهما فيها الرهبة ، والأخرى فيها الطمأنية كما ذكر الله في قوله (فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ) (القصص 32) ، ثم لم يقف تأييد الله لهما عند هاتين الآيتين ، فلم تكن آية واحدة أو آيتين ، بل تكررت الآيات حتى تقطع عذر الكافرين ، فلا يبقى لهم بعد ذلك حجة ، قال سبحانه (**وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا** وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) (الزخرف 48)

قوله (فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ) (75) فمن العجيب أن نرى آيات الله تقابل بمثل هذا الكبر والإجرام ، (**وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ** فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ) ، وهكذا يبدو أنهم لن يؤمنوا متى ظلوا مكذبين للآيات ، غير مستبصرين .

قوله (فَلَمَّا جَاءهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ) (76) المقصود بـ "**العندية**" في قوله "بالحق من عندنا" هو "بإذن الله" و"بأمر الله" و"بفضل الله"، وعندما نعلم أن الحق جاء من عند الله سبحانه يعز علينا أن يكذب به المكذبون ، ويفترون على صاحب الحق أنه ساحر ، وعلى عمله بأنه سحر مبين ، كيف يطلقون هذه الفرية ومصدر هذه الآيات **من عند الله مباشرة** ، فإذا ذكر الله أن هذه الآيات من عنده ، فذلك دليل على أن مجادلتهم فيها ضرب من الاستكبار والعناد .

ودليل كذلك على أنهم يعاندون لمجرد العناد مع علمهم ويقينهم أنها من عند الله ، ولذلك لما وقع الرجز عليهم سألوا موسى أن يدعو ربه بأن يكشف عنهم عذاب الله ، لعلمهم أن هذه الآيات – أي الدم والقمل والضفادع – من عنده سبحانه ، ورغم ذلك يكذبون ، ويفترون عليه بفرية السحر ، قال سبحانه (وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ **قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ** وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (134) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ) (الأعراف 135)

قوله (قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ) (77) استنكر موسى فريتهم أن اتهموه بالسحر وهم يعلمون أنه الحق ، قال ابن عاشور (لما رأوا المعجزات التي هي حق ثابت وليست بتخيلات وتمويهات،

---

[1]) رواه البخاري ج11 ص 472 رقم 3369
[2]) رواه الترمذي ج8 ص 69 رقم 2091 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة ج1 ص 792 رقم 430

وعلموا أن موسى صادق فيما ادعاه، **تدرجوا من مجرد الإباء المنبعث عن الاستكبار إلى البهتان المنبعث عن الشعور بالمغلوبية)**[1]، أي الشعور بالهزيمة ، وانعدام الكرامة ما حملهم على تكذيبه ، والفرية عليه ، وهو يناقض سؤالهم أن يكشف الضر عنهم لما زاد غلبهم وهوانهم .

فسبحان الله يطلقون عليه لفظ الساحر وفي ذات الوقت يطلبون منه أن يدعو ربه بأن يكشف الضر عنهم ، ولذلك قالوا (**وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ** بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (49) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ) (الزخرف 50)

فالشعور بالانهزام والخزلان يولد ضغطاً نفسياً هائلاً .وللهروب من هذا الألم، يلجأ العقل الباطن إلى حيل دفاعية مثل "الإسقاط النفسي" و"الكذب كاستراتيجية للبقاء"

فالإسقاط النفسي :(Projection) حيلة دفاعية ينسب فيها الشخص مشاعر العجز أو النقص أو الذنب الكامنة بداخله إلى الآخرين ليتخلص من الشعور الداخلي بالهزيمة عبر اتهام غيره بها

يقول عالم النفس سيجموند فرويد مؤسس التحليل النفسي(الإسقاط النفسي يشير إلى حيلة لا شعورية من حيل دفاع الأنا بمقتضاها ينسب الشخص إلى غيره ميولاً وافكاراً مستمدة من خبرته الذاتية يرفض الاعتراف بها لما تسببه من ألم وما تثيره من مشاعر الذنب، فالإسقاط بهذه المثابة وسيلة للكبت أي أسلوب لاستبعاد العناصر النفسية المؤلمة عن حيز الشعور ويضيف فرويد أن العناصر التي يتناولها الإسقاط يدركها الشخص ثانية بوصفها موضوعات خارجية منقطعة الصلة بالخبرة الذاتية الصادرة عنها اصلاً، فالإدراك الداخلي يلغى ويصل مضمونه إلى الشعور عوضاً عنه في شكل ادراك صادر عن الخارج بعد أن يكون قد لحقه بعض التشويه) [2]، فالكاذب يتهم الصادقين بالكذب ، والساحر يتهم أولياء الله بالسحر ، والمرائي يتهم المخلصين بالرياء ...وهكذا .

كذلك عند التعرض للخزلان يصعب على العقل الاعتراف بالواقع المؤلم ، فيقوم باختلاق أكاذيب وتلفيق اتهامات؛ لتبرير الفشل، واستعادة التوازن النفسي المفقود، بما يسمى بـ (**التبرير والدفاع عن الذات**) **(Rationalization)**

كذلك **تشويه الحقيقة هرباً من المواجهة :** أي تزييف الحقائق وتكذيب الآخرين هو محاولة بائسة للتعامل مع الصراع العاطفي وعدم الارتياح، حيث يسعى الشخص لإثبات ذاته المكسورة وإلقاء اللوم على المحيطين به .

قوله (...وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ) (77) فلو كان ما جئت به سحراً ، فكيف أفلحت في إبطال سحركم وهزيمة سحرتكم ؟ إذ لا يفلح الساحرون ، بل لابد وأن يلحق الساحر خسران وعدم فلاح ، ما يعني أن أهداف الساحر لا تتحقق دوما ، فإن أراد بسحره أن يؤذي غيره ، فإنه لا يفلح ولو بدا في الظاهر أنه قد مسه الضر ، فإذا كان غرضه من هذا الإيذاء أن يجزع العبد ويسخط فإنه سوف يخيب سعيه ، ولن يتحقق ، بل يزداد العبد صبرا ، وينال ثوابا ، مثلما كان حال نبي الله أيوب ، مسه الضر ، ولم يجزع ، بل صبر واحتسب حتى كشف الله عنه ضره ، وجزاه وعوضه الله ضعف ما فقده ، فأرجع له أهله ومثلهم معه .

---

[1]) التحرير والتنوير ج11 ص 148

[2]) Sigmund Freud, Case Histories II (PFL 9) p. 132

قوله (قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاء فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ) (78) لما أفحمهم بالحجة قالوا مراوغين (أجئتنا لتفلتنا..الآية) ، أي تركوا فرية اتهامه بالسحر ، وتطرقوا لفرية جديدة ، وهي اتهامه **بالباطل بأنه جاء ليقلب نظام الحكم عليهم** ، فاتهموهما بأنهما يسعيان إلى طلب الزعامة عليهم ليسلبا ملكهم ، ويغيرا عاداتهم وتقاليدهم التي ورثوها وألفوها من آبائهم ، فقالوا (وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاء فِي الأَرْضِ) ، أي يقلبا موازين القوى ، فهم بتلك الفرية **يستدعون كل رجال الأعمال وأصحاب رؤوس الأموال والنفوذ ليتضافروا مع فرعون في مواجهة موسى وهارون** ، كل ذلك ليتشبث الناس بباطلهم .

قوله (..وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ) (78) أعلنوا كفرهم بهما أمام الناس استنكارا عليهما ، ليصدوهم عن اتباعهما ، ولذلك أعلنوا كفرهم بهما وعدم إيمانهم بدعوتهما بحجة أنهما يريدا أن ينازعا الملك من كبراء القوم .

ولذلك حذر النبي ﷺ من الكلمات المنمقة والمعسولة التي تسحر عقول الناس ، فقال ﷺ (**إِنَّ مِنْ الْبَيَانِ لَسِحْرًا**)[1]، فهذا الحديث له وجهان أحدهما مذموم ، وآخر محمود ، والسياق هنا يختص بالوجه المذموم أي عندما يلتبس الحق بالباطل بمثل هذا البيان ، كما في قوله ﷺ (**فَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ** » ، فالمناسبة التي ذكر فيها هذا القول ما روي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ **لَأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قَيْحًا خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْرًا** ، قَالَ أَبُو عَلِيٍّ بَلَغَنِي عَنْ أَبِي عُبَيْدٍ أَنَّهُ قَالَ وَجْهُهُ أَنْ يَمْتَلِئَ قَلْبُهُ حَتَّى يَشْغَلَهُ عَنْ الْقُرْآنِ وَذِكْرِ اللَّهِ فَإِذَا كَانَ الْقُرْآنُ وَالْعِلْمُ الْغَالِبَ فَلَيْسَ جَوْفُ هَذَا عِنْدَنَا مُمْتَلِئًا مِنْ الشِّعْرِ وَإِنَّ مِنْ الْبَيَانِ لَسِحْرًا قَالَ كَأَنَّ الْمَعْنَى أَنْ يَبْلُغَ مِنْ بَيَانِهِ أَنْ يَمْدَحَ الْإِنْسَانَ فَيَصْدُقَ فِيهِ حَتَّى يَصْرِفَ الْقُلُوبَ إِلَى قَوْلِهِ ثُمَّ يَذُمَّهُ فَيَصْدُقَ فِيهِ حَتَّى يَصْرِفَ الْقُلُوبَ إِلَى قَوْلِهِ الْآخَرِ فَكَأَنَّهُ سَحَرَ السَّامِعِينَ بِذَلِكَ) [2].

من هنا يستبين مدى الجهد الواجب على الدعاة إلى الله بذله لتخليص الناس من تأثير السحر أيا كان نوعه ، وإبطاله بالاستعانة بالله وحده ، وكسر انقيادهم وتبعيتهم لغير الله سبحانه ،وإفهامهم أن الحق ليس بكثرة متبعيه ، وإنما يعرف الحق وإن لم يتبعه أحد ، قال الإمام علي بن أبي طالب "**لا تستوحشوا طريق الحق لقلة سالكيه**" ، قال الفضيل بن عياض "**الزم طرق الهدى ولا يضرك قلة السالكين، وإياك وطرق الضلالة ولا تغتر بكثرة الهالكين**" .

قوله (..وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ) (79) يدل على أن فرعون لما أحس بالضعف النفسي أمام موسى استنفر كل ساحرة الأرض ، أي كل ساحر عليم وخبير بفنون السحر ليستعين بهم في مواجهة موسى المؤيد بالحق من عند الله .

وهكذا تتكرر دوما طريقة أهل الباطل في محاربة أهل الحق حينما ينهزمون من الجولة الأولى ، فيستدعون أهل الشر من كل مكان ليقوموا معا بتعاويذهم السحرية وأعمالهم الشريرة لمواجهة أهل الحق ، ما يدل على أن أهل الباطل

---

[1]) رواه البخاري ج16 ص 114 رقم 4749

[2]) رواه أبو داود ج13 ص 197 رقم 4356 وصححه الألباني : صحيح وضعيف سنن أبي داود ج11 ص 9

يجتمعون بباطلهم على أهل الحق لمجرد أنهم أهل حق ، وأنى لهم أن يفلحوا في ذلك ، وقد أيد الله عباده وجنده المخلصين .

فكما فشل الأحزاب في محاربة رسول الله ﷺ في غزوة الخندق ، وفشل الاتحاد الكنسي الكاثوليكي والأرثوذكسي ضد محمد الفاتح ، ... فكذلك سوف يجتمعون ويبذلون جهدهم ويمولون حملاتهم ثم يفشلون ، كما قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ **لِيَصُدُّواْ** عَن سَبِيلِ اللّهِ **فَسَيُنفِقُونَهَا** ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ **حَسْرَةً** ثُمَّ **يُغْلَبُونَ** وَالَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ) (الأنفال 36)

قوله (.. فَلَمَّا جَاء السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَى أَلْقُواْ مَا أَنتُم مُّلْقُونَ) (80) هنا بدأت المبارزة والمواجهة ، وقد بدا على موسى ثقته في ربه ، فهو غير متردد ولا يخاف كيد أعدائه ، وقد ظهر أمامهم ب**مظهر المستهين بقوتهم وقدرتهم أمام قدرة الله العظيم وقوته** ، وهو المؤيد بالله ، والله معه ، ولذلك وجب عليه أن يستهين بحشد أعدائه ، فذلك دليل على يقينه بالله .

دعاهم أن يلقوا كيدهم وإفكهم ، وهو يعلم يقينا أن الله سيبطله ، لماذا ؟ لأن موسى في هذا الموقف قد وقف موقف صاحب الحق المؤيد بالآيات من عند الله ، وهم وقفوا موقف أهل الباطل الذين حشدهم فرعون لتأييد باطله ، وليس هناك فريق ثالث عالق بين الفريقين ، فإذا تحققت المواجهة بهذه الصورة **فلابد وأن ينتصر الحق وإن تمثل في اثنين فقط** ، موسى وهارون ، ولابد وأن يندحر الباطل وإن تمثل في حشود هائلة من السحرة والخبراء في فنون السحر لتأييد الملك الذي يسانده حشود هائلة من الجنود كالأوتاد ، فإذا تحققت هذه الصورة من المواجهة فحتما تكون هي لحظة انتصار الحق وانقلاب السحر على الساحر ، ولذلك كشفت الحالة النفسية لموسى في هذا الموقف عن **استخفافه بأهل الباطل** لعلمه أن الله اختاره ليكون أهلا لرسالته في مواجهة أهل الشر.

قوله (فَلَمَّا أَلْقَواْ قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ) (81) قال ابن عاشور (وإنما كان السحرة مفسدين لأن **قصدهم تضليل عقول الناس** ليكونوا **مسخرين لهم** ولا يعلموا أسباب الأشياء ، فيبقوا تابعين طائعين لما تأمرهم به السحرة ، ولا يهتدوا إلى إصلاح أنفسهم سبيلا ، أما السحرة الذين خاطبهم موسى عليه السلام فإفسادهم أظهر لأنهم يحاولون إبطال دعوة الحق والدين القويم وترويج الشرك والضلالات)[1]

قوله (..مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ..) (81) المقصود من الكلام تعريف كيدهم وشرهم بأن أقصى ما يفعلون من شر لا يعدو أن يكون سحرا ، والسحر في حقيقته طريقة لاستدعاء قوى الشر لتزيف الحقائق أمام الناس ، أي تسحر أعينهم ، ولذلك يستعين الساحر بالجن والشياطين ليخيل للناس ما ليس بحقيقي أنه حقيقي ، وهو زيف وباطل ، لكن أشد أنواع السحر هو الكلام المعسول الذي يبدو وكأنه صادق ولكنه في الحقيقة زيف وباطل .

قوله (..إِنَّ اللّهَ سَيُبْطِلُهُ) (81) تأكيد على أن كل الله يبطله الله تعالى ، ولا يبقى ، بل يضعف أثره حتى يتلاشى ، فأعمال السحر لا تفلح ، لا في صرف الناس عن الإيمان ، ولا في شيء مما يبغونه من متاع الدنيا ، ولذلك جاء

[1]) التحرير والتنوير ج11 ص 155

استعمل الله نبيه موسى عليه السلام يبطل أعمالهم بإذنه ، كما استعمل عيسى ليشفي الأبرص ، واستعمل ذا القرنين ليسد على جوج ومأجوج ، وهكذا يستعمل الله عباده المؤمنين ليبطلوا كيد الكائدين .

والمقصود بإبطاله إفساد أثره ، أي (يمحقه بالكلية ، **فلا يبقى له أثرٌ أصلاً** ،ويظهر بطلانُه للناس)[1]، انظر إلى كبير السحرة والدجالين ، دجال آخر الزمان ، أقصى ما يفعله بالناس لا يعدو أن يكون سحر تخييل ، يدخل المؤمن النار فإذا به يجدها جنة ، ويدخل الناس الجنة فيجدونها نارا ، فقد أبطل الله سعيه ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (الدَّجَّالُ أَعْوَرُ الْعَيْنِ الْيُسْرَى جُفَالُ الشَّعَرِ **مَعَهُ جَنَّةٌ وَنَارٌ فَنَارُهُ جَنَّةٌ وَجَنَّتُهُ نَارٌ**) [2].

وعن حذيفة عَنْ النَّبِيِّ أَنَّهُ قَالَ فِي الدَّجَّالِ (إِنَّ مَعَهُ مَاءً وَنَارًا فَنَارُهُ مَاءٌ بَارِدٌ وَمَاؤُهُ نَارٌ فَلَا تَهْلِكُوا)[3]

وعن النبي ﷺ قال (إِنَّ الدَّجَّالَ يَخْرُجُ وَإِنَّ مَعَهُ مَاءً وَنَارًا فَأَمَّا الَّذِي يَرَاهُ النَّاسُ مَاءً فَنَارٌ تُحْرِقُ وَأَمَّا الَّذِي يَرَاهُ النَّاسُ نَارًا فَمَاءٌ بَارِدٌ عَذْبٌ فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَلْيَقَعْ فِي الَّذِي يَرَاهُ نَارًا فَإِنَّهُ مَاءٌ عَذْبٌ طَيِّبٌ) [4]

وعَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا مَعَ الدَّجَّالِ مِنْهُ مَعَهُ نَهْرَانِ يَجْرِيَانِ أَحَدُهُمَا رَأْيَ الْعَيْنِ مَاءٌ أَبْيَضُ وَالْآخَرُ رَأْيَ الْعَيْنِ نَارٌ تَأَجَّجُ فَإِمَّا أَدْرَكَنَّ أَحَدٌ **فَلْيَأْتِ النَّهْرَ الَّذِي يَرَاهُ نَارًا** وَلْيُغَمِّضْ ثُمَّ لْيُطَأْطِئْ رَأْسَهُ فَيَشْرَبَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مَاءٌ بَارِدٌ وَإِنَّ الدَّجَّالَ مَمْسُوحُ الْعَيْنِ عَلَيْهَا ظَفَرَةٌ غَلِيظَةٌ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَافِرٌ يَقْرَؤُهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ كَاتِبٍ وَغَيْرِ كَاتِبٍ) [5]

فلا أحد يرى هذه الحقيقة الكاذبة للساحر إلا مؤمن ، ولا يقدر على إبطال السحر إلا الله سبحانه ، فهو وحده القادر على ذلك ، ولذلك فإن الذين يعالجون الناس من السحر وسيلتهم في العلاج هي الاستعانة بالله وحده ، لقوله تعالى (**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**) (الفاتحة 5) ، ولو كان المعالج يستعين بغير الله بطل علاجه ولم ينفع .

ولذلك كل وسائل علاج السحر بغير الاستعانة بالله تعالى هي وسائل باطلة في ذاتها ، فمن يستعين بالجن لعلاج السحر بطل سعيه ، لأن يستعين في إزالة الباطل بالإتيان بباطل مثله ، حتى وإن أوهمه الجني أنه جني مسلم ويريد المساعدة ، ذلك لأنه لا يأمن كذبه ، وقد أبطل الشرع استعانة الإنسي بالجني دون قيد أكان مسلما أو كافرا ، قال تعالى (وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ **يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا**) (الجن 6) .

قوله (إِنَّ اللّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ) (81) قال الزمخشري (لا يثبته ولا يديمه ، ولكن يسلط عليه الدمار)[6]، قال ابن عاشور (والمراد بإصلاح عمل المفسدين الذي نفاه أنه لا يؤيده ، وليس المراد نفي تصييره صالحا، لأن ماهية الإفساد لا تقبل أن تصير صلاحا حتى ينفى تصييرها كذلك عن الله، وإنما إصلاحها هو إعطاؤها الصلاح، فإذا نفي الله إصلاحها فذلك بتركها وشأنها، **ومن شأن الفساد أن يتضاءل مع الزمان حتى يضمحل**) [7].

---

[1]) تفسير أبي السعود ج3 ص 299
[2]) رواه مسلم ج14 ص 163 رقم 5223
[3]) رواه مسلم ج14 ص 163 رقم 5224
[4]) رواه مسلم ج 14ص 164 رقم 5225
[5]) رواه مسلم ج 14ص 162 رقم 5225
[6]) الكشاف ج3 ص 43
[7]) التحرير والتنوير ج11 ص 154

قال السعدي (فيُسْتدل بذلك على أن كل أمر فيه صلاح للعباد في أمر دينهم ودنياهم، وكل أمر يعين على ذلك فإنه داخل في أمر الله وترغيبه، وأن **كل فساد وضرر وشر، فإنه داخل في نهيه والتحذير عنه**، وأنه يجب تحصيل كل ما يعود إلى الصلاح والإصلاح، بحسب استطاعة العبد)[1]، كما قال شعيب عليه السلام (إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ) [هود: 88] .

قوله (وَيُحِقُّ اللهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ) (82) فيه دليل على أن السحر إفساد وتمويه لا حقيقة له ، فالحق هو ما يحقه الله بكلماته ، والله يحق الحق ويبطل الباطل ، ولا يصلح عمل المفسدين ، (أما ما يفعله أصحاب الحيل فمحمول على الاستعانة بالآلات والأدوية — الكيمياء – أو الاستعانة بالخيالات)[2] التي تصور الأشياء على غير حقيقتها تصويرا زائفا ، فيستجيب العقل البشري له بما يسمى بتخيل الصور والأوهام ، كما في قوله (يخيل إليهم من سحرهم أنها تسعى) أي إنها لا تسعى في الحقيقة وليست بحية ، بل هي مجرد عصي يخيل لهم أنها تتحرك فيحسبونها حية تسعى ، فأهل الحق يعلمون ذلك فيسكنون ويطمئنون ، **وأهل الزيف وأتباع الباطل يخافون ويحزنون ، ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون** .

بل **ينكشف زيف المجرمين سريعا عندما يشتد حقدهم** وحنقهم على أهل الإيمان ، فيقذف الله الحق علي الباطل فيدمغه ، فإذا هو زاهق ، ولذلك زيلت الآية بقوله (وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ) أي مهما تشبث المجرمون بباطلهم فإن الله يدمغهم ، أي يصيبهم بمصيبة في أدمغتهم ، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله .

قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عمار بن الحارث، حدثنا عبد الرحمن -يعني الدَّشْتَكِيّ -أخبرنا أبو جعفر الرازي، عن لَيْث -وهو ابن أبي سليم -قال: بلغني أن هؤلاء الآيات شفاء من السحر بإذن الله تعالى، تقرأ في إناء فيه ماء، ثم يصب على رأس المسحور: الآية التي من سورة يونس (فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ) ، والآية الأخرى: (فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [الأعراف : 118 -122] ، وقوله (إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى) [طه : 69][3].

---

[1]) القواعد الحسان في تفسير القرآن ص 30
[2]) تفسير السراج المنير ج1 ص 1502 ، وتفسير البيضاوي ج3 ص 47
[3]) تفسير ابن كثير ج4 ص 287

المقطع الثالث

الالتفاف الحثيث حول المؤمنين ثالث أولويات الدعوة

(تابع المرحلة التأسيسة لدعوة نبي الله موسى)

قال تعالى (فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (83) وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ (84) فَقَالُواْ عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (85) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (86) وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (87) وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ (88) قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلاَ تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ (89)

قوله (فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ) (83) يجدر التنويه إلى أن الفئة التي آمنت بموسى كانت **الفئة المستضعفة في المجتمع الفرعوني** ، فهي لا تستطيع مجابهة فرعون ولا الوقوف أمام جبروته ، ورغم ذلك اختارت هذه الفئة الإيمان ، وتركت ما كان يجبرها فرعون وقومه على فعله من أعمال الكفر ، وهي تدرك مخاطر هذا الطريق ، وأن فرعون قادر على فتنتهم في دينهم ، ولذلك كان حالهم مثل أصحاب الكهف حين قالوا (وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (19) إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا) (الكهف 20) .

والإيمان في السر خوفا من الفتنة في الدين ليس علامة ضعف إيمان ،بل هو فقه حال وواقع ، وعلامة لرؤية واستشراف المستقبل ، وأخذ بأسباب شرعية دون اعتماد عليها ، أي الحفاظ على بذرة الإسلام حتى تنبت في ظروف مهيأة لذلك ، فهو أخذ بالرخصة الواردة في قوله تعالى (**إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ** وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) (النحل 106)

قال رسول الله ﷺ "إن الله جل وعلا يسأل العبد يوم القيامة حتى إنه ليقول له: ما منعك إذا رأيت المنكر أن تنكره؟ فإذا لقن الله عبدا حجته يقول: **يا رب وثقت بك وفرقت من الناس** – أي خفت من الناس "[1]

وَقِيلَ (**إِنْ زَادَ وَجَبَ الْكَفُّ ، وَإِنْ تَسَاوَيَا سَقَطَ الْإِنْكَارُ**)[2] قال السفاريني (إِنْ زَادَ) يَعْنِي الأَذَى عَلَى الْمُنْكَرِ وَجَبَ الْكَفُّ , (وَإِنْ تَسَاوَيَا سَقَطَ الإِنْكَارُ) (يَعْنِي وُجُوبَهُ)[3]

ولذلك هاجر المسلمون من مكة إلى الحبشة فراراً بدينهم وتخلصاً من أذى قريش ، فدل ذلك على جواز دفع البلاء والأذى وعدم الاستسلام له بالهجرة من دار الكفر دون معاندة معهم ، لأن نفس المسلم ليست ملكه وإنما هي ملك لله ، فلا يجوز إتلافها بلا فائدة تعود إلى الإسلام ، بل على المسلم أن يقود نفسه كقائد الجيش عندما يقود جيشه فيكر ويفر في الوقت المناسب ، ومعيار ذلك موضوعي وليس شخصي .

---

[1]) رواه ابن حبان ج16 ص 369 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة المجلدات ج3 ص 3 رقم 929
[2]) محمد بن مفلح المعروف بشمس الدين المقدسي الآداب الشرعية ج1 ص 200
[3]) محمد بن أحمد السفاريني : غذاء الألباب شرح منظومة الآداب ج1 ص 165

لكن **التوسع في الأخذ بهذه الرخصة قد يؤدي إلى الإضرار بالأجيال المستقبلة** ، إذ يجد الأبناء أن أباءهم يطيعون فرعون ، ويعلنون الكفر ويكتمون إيمانهم ، فيقلدونهم ، ولكنهم يكونون أكثر طوعا لفرعون من أبائهم ، حتى إذا جاء جيل الأحفاد وجدوا أجدادهم وأباءهم على دين فرعون ، فيقل إيمانهم وتمسكهم بشعائرهم ، فإذا جاء أبناء الأحفاد لم يبق من يؤمن بدين إلا دين فرعون ، وهكذا تحصل الفتنة وتزداد ضراوتها بين جيل وآخر حتى يحصل الكفر التام في الجيل الرابع ، وهو عين ما يحدث الآن في بعض البلدان الأفريقية أو الأسيوية ، فالأخذ بالرخصة أو العزيمة لا يكون بحسب الأهواء والأمزجة ، ولكنه بحسب تقدير كل حالة على حدة ، يقول النبي ﷺ **(لَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ قَالُوا وَكَيْفَ يُذِلُّ نَفْسَهُ قَالَ يَتَعَرَّضُ مِنْ الْبَلَاءِ لِمَا لَا يُطِيقُهُ)**[1].

وذلك هو **مكمن الخوف الحقيقي لتلك الفئة المؤمنة** ، فهو خوف على دين الإسلام أن ينقطع امتداده عبر الزمان والمكان بتلك الحيلة الخبيثة ، ويخشون أن يكونوا هم سبب هذه الفتنة لو لم يجهروا بدينهم فيصير حال أحفادهم على مثل ذلك أو أنهم يجهروا بإيمانهم فيحصل ما كانوا يخشون منه من أن يقعوا جميعا في الفتنة .

قوله (وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ) (83) العلو والاستكبار والاسراف في المعصية صفات ذميمة اتصف بها فرعون ، وقد أشار القرآن لها باعتبارها المعوق الأساسي للدعوة الإسلامية ، قال رسول الله ﷺ **(أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ قَالُوا بَلَى قَالَ كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ)**[2]، قال النووي (العتل هو الجافي الشديد الخصومة بالباطل وقيل الفظ الغليظ ، وأما الجواظ فهو الجموع المنوع وقيل كثير اللحم المختال فى مشيته ، وأما المتكبر والمستكبر فهو صاحب الكبر وهو بطر الحق وغمط الناس)[3]

فالذي يستعلي على غيره ، ويسرف في المعاصي لابد من إزاحته من طريق الدعوة إن لم يمن الله عليه بالهداية ، لأنه يقف بعلوه صادا عن سبيل الله ، وبإسرافه مهدرا لحقوق الناس وأموالهم ومصالحهم ، ولذلك قيل **ما وجد فقير إلا بظلم غني** ، روي عن الإمام علي رضي الله عنه: (إن الله سبحانه وتعالى فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء، **فما جاع فقير إلا بما منع به غني**، والله تعالى جده سائلهم عن ذلك يوم القيامة)[4].

قوله (وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ (84) فَقَالُواْ عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا) جاء خطاب موسى لقومه الذين آمنوا به على خوف من فرعون وملائه وظاهر حالهم أنهم يملكون من أسباب القوة ما يدفعون به بطش فرعون عنهم إلا الاستعانة بالله تعالى والتوكل عليه ،وكفى بالله وكيلا ، فالدعاء هو أقوى سلاح للمؤمن يستعين به على أعدائه ، يقول النبي ﷺ **(إِنَّ الدُّعَاءَ يَنْفَعُ مِمَّا نَزَلَ وَمِمَّا لَمْ يَنْزِلْ فَعَلَيْكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِالدُّعَاءِ)**[5]، فإذا أخبر النبي ﷺ بأن الدعاء ينفع فلابد أن ينفع لمن أخلص قلبه لله .

---

[1]) رواه ابن ماجة ج12 ص 21 رقم 4006 وصححه الألباني : صحيح ابن ماجة ج2 ص 369 رقم 3243
[2]) رواه مسلم ج14 ص 4 رقم 5092
[3]) شرح النووي ج17 ص 188
[4]) نهج البلاغة ، ابن حمدون : التذكرة الحمدونية ج 2 ص 464 ، الزمخشري : ربيع الأبرار ص 420 ، تفسير حقي ج10 ص 357
[5]) رواه الترمذي ج11 ص 459 رقم 3471 وصححه الألباني صحيح الترمذي : ج3 ص 177 رقم 2813

وهكذا يستعين المسلم على الساحر والسحرة بالدعاء والتوكل على الله ، عن أبي موسى قال : كان رسول الله ﷺ إذا خاف قوما قال (**اللهم إنا نعوذ بك من شرورهم وندفعك في نحورهم**)[1].

قوله (فَقَالُواْ عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (85) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ...) (86) من حرصهم على هداية قومهم ، جعلوا في مقدمة دعاءهم ألا يكونوا سببا في فتنة قومهم وإن كانوا ظالمين ، ثم سألوا الله النجاة برحمته من قومهم الكافرين ، وكذلك سأل نبي الله إبراهيم ربه فقال (إلا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (4) **رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا** وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (الممتحنة5) .

فقد **يظن الناس أن حالة الاستضعاف ملازمة للمؤمنين** ، فينصرفوا عن الإقبال على الإيمان بسبب ذلك ، فعَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ " لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ" يَقُولُ:"لا تُعَذِّبْنَا بِأَيْدِي قَوْمِ فِرْعَوْنَ، وَلا بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدَكَ، فَيَقُولُ قَوْمُ فِرْعَوْنَ: **لَوْ كَانُوا عَلَى حَقٍّ مَا عُذِّبُوا**، وَلا سُلِّطْنَا عَلَيْهِمْ فَيُفْتَنُونَ بِنَا"[2]، يقول ابن الجزي (فيقولون : لو كان هؤلاء على الحق ما عذبناهم فيفتنون بذلك)[3] .

ومن جهة أخرى فقد يضيق الصبر بالمؤمنين لعناد قومهم معهم فيدعون عليهم ، فسألوا الله ألا يكون عناد قومهم وإيذاءهم لهم سبب لضيق صدرهم وحزنهم منهم ، ومن ثم يرفعون أكف الضراعة للدعاء عليهم ، وتمنوا أن تحصل هداية قومهم على أيديهم ، لا أن يكونوا حجة عليهم ، فيفتنوا في دينهم ويكفروا بالله بسبب عنادهم معهم .

قوله (...وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ) (87) تتميز مرحلة سرية الدعوة بالاهتمام بالجانب التربوي للمسلم ، فليس معنى أنهم يسرون إسلامهم أن تتوقف عباداتهم وشعائر الإسلام ، بل لابد وأن يمارس المسلمون عباداتهم لربهم بما يتناسب مع طبيعة تلك المرحلة ، ولذلك جعل الله تعالى بيوتهم قبلة أي مساجد يسجدون فيها لله ويقيمون الصلاة ، فالعبادة من الأسباب الموصلة لله ، (**وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ** إِنَّ اللّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) (البقرة 115).

فعبادة الله في الرخاء تجد صداها وقت الشدة ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ "**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْتَجِيبَ اللَّهُ لَهُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَالْكَرْبِ فَلْيُكْثِرْ الدُّعَاءَ فِي الرَّخَاءِ**"[4]، وعن أبي الدرداء قال : "**ادع الله يوم سرائك يستجيب لك يوم ضرائك** "، وفي الحديث " **تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة** " .

قال ابن كثير والمعنى المراد : (الاستعانة على ما هم فيه من الضر والشدة والضيق بكثرة الصلاة) [5] ، كما قال تعالى (واستعينوا بالصبر والصلاة) [البقرة 45] وكان رسول الله ﷺ (إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى)[6].

---

1) رواه الطبراني في المعجم الصغير ج2 ص 184 رقم 996 ورواه ابو داود ج4 ص 335 رقم 1314 والنسائي وأحمد وصححه الألباني : الجامع الصغير ج1ص844 رقم 8835

[2]) تفسير ابن أبي حاتم ج8 ص 79

[3]) التسهيل علوم التنزيل ج1 ص 675

[4]) رواه الترمذي ج11 ص 238 رقم 3304

[5]) البداية والنهاية ج1 ص 312

[6]) رواه أبو داود ج4 ص 88 رقم 1124 وصححه الألباني صحيح وضعيف سنن أبي داود ج3 ص 319

وقد أرشدهم الله إلى أن يجتمعوا في بيوتهم ، وليصلوا ويعبدوا ربهم في بيوتهم ليتجنبوا أن يراهم جنود فرعون ، وذلك بعدما حال فرعون دون اجتماعهم على العبادة وممارسة شعائرهم ، فعن مجاهد في قوله عز وجل واجعلوا بيوتكم قبلة ، قال : كانوا لا يصلون إلا في البيع ، فقيل لهم : صلوا في بيوتكم من مخافة فرعون)[1] ، وذلك من باب الحيطة والحذر ، ودفع منكر متوقع على جموع المسلمين بالتضحية بمصلحة شرعية يمكن تحقيق مقاصدها بوسائل أخرى ، فعَنْ مُجَاهِدٍ، فِي قَوْلِهِ: " وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً " قَالَ:"**كَانُوا لا يُصَلُّونَ إِلا فِي الْبَيْتِ حِينَ خَافُوا مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ، فَأُمِرُوا أَنْ يُصَلُّوا فِي بُيُوتِهِمْ)**[2] ، وعن ابن عباس (وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً) قال (**أمرُوا أن يتخذوها مساجد)**[3].

فالإسلام يحض المسلمين أن الصلاة جماعة وعلى وجه العموم الجماعة في كل العبادات لتعم بركتها كصيام شهر رمضان جماعة وجمع الزكاة وتوزيعها عمل جماعي مؤسسي ....الخ ، فذلك أقوى على دفع وسوسة الشيطان ، **فالشيطان أبعد من الجماعة عن الواحد** ، صحيح أن العبادة الفردية مطلوبة ، لكن أثر الجماعية في العبادة أكثر تأثيرا على المجموع حيث **يتقوى الضعيف بالقوي** ، يقول النبي ﷺ (**صَلَاةُ الْجَمَاعَةِ تَفْضُلُ صَلَاةَ الْفَذِّ بِسَبْعٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً)** [4] ، ولذلك أرشدهم للاجتماع على العبادة في بيوتهم عوضا عن الاجتماع في المسجد (المحاريب، البيع ،والصلوات) مخافة بطش فرعون .

وقوله (وأقيموا الصلاة) معطوف على قوله (واجعلوا بيوتكم قبلة) **للإرشاد إلى صلاة الجماعة ولو في السر ولو في البيوت** ، فإقامة الصلاة دليل السعي لتحقيق تمامها ، ذلك أن **ما لا يدرك كله لا يترك كله** ، فإذا تعذرت الصلاة في المسجد وكانت البيوت بديلا عن المساجد في ظروف معينة وأحوال الضرورة ، فينبغي الحفاظ على ما بقي من مظاهر هذه الشعيرة ، وهي صلاة الجماعة ، ولذلك شرعت إقامة الصلاة .

ولكل ملة طريقة في إعلان إقامة الصلاة ، ولا ندري شيء في شريعة موسى يتعلق بذلك[5] ، لكن يبدو من السياق أنه شرع لهم الإقامة لذات العلة التي شرع لهم الصلاة في بيوتهم تأكيدا علي قاعدة (**سددوا وقاربوا**) ، أي بلا أذان أو ضرب بالناقوس ، إكتفاء بإقامتها للحاضرين ، بذلك يستشعر أهل الحق بقرب النصر ، وقد أقاموا شعيرة من شعائر الإسلام ، وما تعذر إقامته سوف يأتي يوم ويقومون فيه شعائر الله دون نقصان ، وعندئذ يزداد إقبال الناس على المشروع الإسلامي ، فيتنحى أهل الشر ، ويورث الله الأرض لمن يشاء من عباده ، وليتبوؤا مكانة الخلافة التي أمرهم الله بها.

---

[1]) التفسير من سنن سعيد بن منصور ج3 ص 438 رقم 1019

2) تفسير ابن أبي حاتم ج8 ص 81 ، قَالَ سُفْيَانُ: أَعْطَوا مَا أُعْطِيَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَبَوْا أَنْ تُجْعَلَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطُهُورًا"وَرُوِيَ عَنْ أَبِي مَالِكٍ، وَقَتَادَةَ نَحْوُ ذَلِكَ.

[3]) تفسير ابن كثير ج4 ص 289 ومثله عند ابن أبي حاتم في تفسيره ج8 ص 81 رقم 11366 عن ابن عباس

[4]) رواه البخاري ج3 ص 34 رقم 609

5) أما في شريعتنا فقد ورد عن عَبْدُ اللَّهِ بْنُ زَيْدٍ قَالَ لَمَّا أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالنَّاقُوسِ يُعْمَلُ لِيُضْرَبَ بِهِ لِلنَّاسِ لِجَمْعِ الصَّلَاةِ طَافَ بِي وَأَنَا نَائِمٌ رَجُلٌ يَحْمِلُ نَاقُوسًا فِي يَدِهِ فَقُلْتُ يَا عَبْدَ اللَّهِ أَتَبِيعُ النَّاقُوسَ قَالَ وَمَا تَصْنَعُ بِهِ فَقُلْتُ نَدْعُو بِهِ إِلَى الصَّلَاةِ قَالَ أَفَلَا أَدُلُّكَ عَلَى مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ فَقُلْتُ لَهُ بَلَى قَالَ فَقَالَ تَقُولُ اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ قَالَ ثُمَّ اسْتَأْخَرَ عَنِّي غَيْرَ بَعِيدٍ ثُمَّ قَالَ وَتَقُولُ إِذَا أَقَمْتَ الصَّلَاةَ اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ قَدْ قَامَتْ الصَّلَاةُ قَدْ قَامَتْ الصَّلَاةُ اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَلَمَّا أَصْبَحْتُ أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا رَأَيْتُ فَقَالَ إِنَّهَا لَرُؤْيَا حَقٌّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ فَقُمْ مَعَ بِلَالٍ فَأَلْقِ عَلَيْهِ مَا رَأَيْتَ فَلْيُؤَذِّنْ بِهِ فَإِنَّهُ أَنْدَى صَوْتًا مِنْكَ فَقُمْتُ مَعَ بِلَالٍ فَجَعَلْتُ أُلْقِيهِ عَلَيْهِ وَيُؤَذِّنُ بِهِ قَالَ فَسَمِعَ ذَلِكَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَهُوَ فِي بَيْتِهِ فَخَرَجَ يَجُرُّ رِدَاءَهُ وَيَقُولُ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُ مِثْلَ مَا رَأَى فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ) رواه أبو داود ج2 ص 93 رقم 421 وصححه الألباني : صحيح وضعيف سنن أبي داود ج 2 ص406 رقم 512

قوله (..وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) تأتي البشرى في مثل هذه الظروف والتضييق الشديد على منافذ الدعوة الإسلامية لتسرية النفوس ورفع الحالة المعنوية التي يعيشها القلة المؤمنة وهم مبتلون بالخوف ، **لتبشرهم بأن حالة الخوف والترقب الشديد التي يمرون بها لن تظل أمد الدهر** ، قال تعالى (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ **لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم** فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ **وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ** الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ **وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا** يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) (النور 55) ، فلن يظل حالهم على ذلك طويلا ، ولسوف يمن الله عليهم بإعلان إسلامهم وهزيمة عدوهم ،ولسوف يصلون في الساحات والميادين كما حصل حين صلى أحفادهم أتباع النبي محمد ﷺ صلاة الجمعة والعيدين ، فلولا ثبات هذه الفتنة ما توارث هذا الدين إلى يومنا هذا .

قوله (وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ) (88) هذا هو القسم الثاني من دعاءهم ، وقد تضمن الدعاء على قوم فرعون بأمرين :-

الأول هلاك أموالهم حتى لا يتقووا بها على المسلمين ، ويصدوا عن سبيل الله ، قال ابن عاشور (سأل الله أن **يخلق ضد الأسباب** التي أغرت فرعون وملأه وغشيت على قلبه بالضلال) ، والمقصود أنهم ولحرصهم على هداية قومهم سألوا الله أن يكون نزول البلاء بهم سببا لأن يرجعوا إلى الله ، وذلك أخف من أن يظلوا على الكفر مطمئنين بالدنيا ولا يرجون الآخرة.

والثاني أن يشدد الله على قلوبهم ، فيكون إمهالهم استدراج لهم حتى تظهر آية الله بأن يمكن الفئة المستضعفة من القصاص منهم ، فيكون ذلك سببا في إيمان قومهم ، لو كان الله قدر لهم ذلك ، والمعنى: (أنه يدعو عليهم بالأنكاد والأحزان التي تجعل قلوبهم في ضيق وحرج أي اجعلهم في عناء وبلبلة بال ما داموا في الكفر)[1].

قال ابن عاشور (والمقصود التذكير بما لحق صالحي الأمم السالفة من الأذى والاضطهاد كما لقي صالحو النصارى من مشركي الرومان في عصور المسيحية الأولى، وقد قص القرآن بعض ذلك في سورة البروج ، وحُكْمها سار في حال كل من يتمسك بالحق بين قوم يستخفون به من المسلمين) .

أما من لم يستجب لداعي الإيمان ، فإن الدعاء يتضمن ألا يصير حالهم بعد إهمال الإيمان اختيارا إلى الإيمان اضطرارا حال الموت ، كحال فرعون لما أدركه الغرق فلم يقبل منه ، قال تعالى (**حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ** قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، **آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ** ، فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ) (يونس90-92) ، فإن كان ذلك حاصل ولابد ، فالدعاء هنا يتضمن ألا يموتوا حتى يؤمنوا اضطرارا بعدما رفضوا الإيمان اختيارا .

[1]) التحرير والتنوير ج11 ص 166

قوله (وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ) فالاستنصار بالله على الكفار المحاربين في **موطن المواجهة** ، وعلي الظالمين **حال تلبسهم بالظلم** ، وإيذاءهم للمسلمين واجب شرعا ، فالدعاء عليهم في هذا الحال **دليل التبرأ منهم** ، لاسيما في موقف المفاصلة والمواجهة .

قال القرطبي (وقد استشكل بعض الناس في هذه الآية ، فقال: كيف دعا عليهم وحكم الرسل استدعاء إيمان قومهم؛ فالجواب أنه لا يجوز أن يدعو نبي على قومه إلا بإذن من الله، **وإعلام أنه ليس فيهم من يؤمن ولا يخرج من أصلابهم من يؤمن**)[1] ؛ دليله قوله لنوح عليه السلام: (**أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ**) [هود: 36] وعند ذلك قال: (**رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً**) الآية [نوح: 26]، من ذلك نفهم أن فرعون وقومه كانوا حجر عثرة يجب إزالته لإيصال القول للناس ، وقد أخبر الله نبيه موسى بأنهم لن يؤمنوا إلا عند الغرق ، فيكون غرقهم آية للناس ، وقد زال عنهم ما كان يكرههم على الكفر ، فكونهم لا يؤمنون بعد ذلك ، فإنهم لا يعذرون ، وقد زال عنهم الإكراه علي الكفر ، وكأن المعنى فلا يؤمن الناس حتى يرون عذاب فرعون بأعينهم وهو الغرق ، أما قبل ذلك فإنهم مكرهون على الكفر لسطوة فرعون وبطشه .

أما في حال القتال والمبارزة والمواجهة فإن الدعاء على الكافرين والظالمين واجب ، وقد دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب عند المواجهة ، فعن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي أَوْفَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْأَحْزَابِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ فَقَالَ اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ سَرِيعَ الْحِسَابِ **اللَّهُمَّ اهْزِمْ الْأَحْزَابَ اللَّهُمَّ اهْزِمْهُمْ وَزَلْزِلْهُمْ**)[2] ، وكذلك دعا خبيب بن عدي على المشركين حينما أرادوا قتله، فقال **اللَّهُمَّ أَحْصِهِمْ عَدَدًا وَاقْتُلْهُمْ بَدَدًا وَلَا تُبْقِ مِنْهُمْ أَحَدًا** ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ –:

فَلَسْتُ أُبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا عَلَى أَيِّ جَنْبٍ كَانَ لِلَّهِ مَصْرَعِي
وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ وَإِنْ يَشَأْ يُبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ)[3]

فذلك **جائز في حال المواجهة مع الباطل في قتال ، وهو متلبس بالكفر**، فيجوز الدعاء عليهم بالموت أو القتل ، فيموت على ذلك لحفظ دماء المسلمين من أن تهدر .

ويبدو –كذلك – من السياق أن هذا الدعاء **بقصد طلب القصاص لأنفسهم** منهم انتقاما منهم وشفاء لما في صدورهم من أذيتهم الشديدة لهم ، فالدعاء على فرعون وجنوده تضمن في ذاته دعاء لغير جنود فرعون ، وإن ارتكب إثما مثلهم ، فإن الدعاء تضمن بمفهوم المخالفة إيمانه بالله بعدما يرى بعينه مقتل فرعون وجنوده وغرقهم ، فتزول عنهم حجة الاستكراه على الظلم والكفر والإجرام .

أما فرعون وجنوده فقد آمنوا ولكن حال الغرغرة ، فلم ينتفعوا بإيمانهم ، إذ آمن لما أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ ، (قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ) .

---

[1]) تفسير القرطبي ج8 ص 375
[2]) رواه البخاري ج10 ص 82 رقم 2716
[3]) رواه البخاري ج12 ص 384 رقم 3690

أما الدعاء علي الأعداء بقصد اللعن والبقاء على الكفر ، فهذا ليس من الإسلام جملة واحدة ، فقد عوتب النبي ﷺ في ذلك ، فعن ابْنُ مَسْعُودٍ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَيْهِمْ بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُفَ وَقَالَ اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِأَبِي جَهْلٍ وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ دَعَا النَّبِيُّ ﷺ فِي الصَّلَاةِ **اللَّهُمَّ الْعَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا** حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ **(لَيْسَ لَكَ مِنْ الْأَمْرِ شَيْءٌ)**[1]

أما من دعا من بني إسرائيل بغير تلك النية – أي تخليص الدعوة من العوائق توطئة لإيصال القول للناس – فإنه مع التأكيد علي عدم مشروعية ذلك – أي عدم مشروعية الدعاء عليهم بأن يظلوا على الكفر – ، فإنه يدل على مدى الذل والهوان والقهر والبطش الذي تعرضوا له من آل فرعون حتى تمكن الغل منهم ، ولكن ذلك ليس من صفات أهل الولاية والاستخلاف في الأرض .

قوله (قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا) نسب الدعاء لموسى وهارون رغم اشتراك قومهما معهما في الدعاء ، لأنهما كانا يقودان قومهما بالدعاء وهم يأمنون ، ولذلك استجاب الله لهما ، فما من نبي إلا له دعوة مستجابة ، ولذلك يقول النبي ﷺ **(لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ يَدْعُو بِهَا وَأُرِيدُ أَنْ أَخْتَبِئَ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي فِي الْآخِرَةِ)**[2].

والإجابة من الله لعبده – والذي صدق فيه هذا الوصف – والذي يدعوه بإخلاص – واجبة ، قال تعالى (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ **أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ** فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ) (البقرة186) ، ولذلك قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ **(إِنَّ رَبَّكُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا)**[3]، (فإذا كان الله تعالى لا يرد يد من يرفعها إليه صفرا ، وهو له عاص ولأمره تارك ، وعن أداء حقوقه مقصر أو معرض ، فما ظنك بمن يرفع يديه إلي الله مفتقرا إليه متذللا له معتذرا إليه مقبلا عليه يسأله سؤال المضطر ، ويدعوه دعاء المحتاج ، ويتضرع لعفوه تعرض من لا يستأهل لنفسه حالا ، فلا يرجو إلا فضله ، ولا يعتمد إلا على كرمه ، سبحانه هو الكريم ذو الفضل العظيم)[4] .

قوله (..فَاسْتَقِيمَا وَلاَ تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ) أي **فاستقيما على مواصلة الدعاء والتوكل على الله ، ولا تتبعان سبيل الذين ييأسون من الاستجابة** ،قال البيضاوي "فاستقيما" فاثبتا على ما أنتما عليه من الدعوة وإلزام الحجة ، ولا تستعجلا فإن ما طلبتما كائن ولكن في وقته)[5]

وقال الألوسي (أي استقيما على معرفتكما **مقام السؤال** وهو مقام الرضوان والبسط ليستجاب لكما بعد إذا دعوتما فإن من لم يعرف مقام السؤال قد يوقعه في غير مقامه **فيسيء الأدب** فلا يستجاب له)[6] ، يقول النبي ﷺ **(يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ** يَقُولُ دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي)[7].

---

[1]) رواه البخاري ج19 ص 499
[2]) رواه البخاري ج19 ص 360 رقم 5829
[3]) رواه أبو داود ج4 ص 287 رقم 1273 صححه أبو داود ج5 ص 226 (قلت: حديث صحيح، وحسنه الترمذي، وصححه ابن حبان (877) ، والحاكم والذهبي) .
4) بحر الفوائد المسمى بمعاني الأخيار للكلاباذي ج1 ص 353 رقم 237 مع بعض التصرف
[5]) تفسير البيضاوي ج3 ص 54
[6]) تفسير الألوسي ج8 ص 105
[7]) رواه البخاري ج19 ص 416 رقم 5865

وقال الرازي (والمعنى : لا تتبعان سبيل الجاهلين الذين يظنون أنه متى كان الدعاء مجاباً كان المقصود حاصلاً في الحال ، فربما أجاب الله تعالى دعاء إنسان في مطلوبه ، إلا أنه **إنما يوصله إليه في وقته المقدر ، والاستعجال لا يصدر إلا من الجهال)** [1].

[1]) تفسير الرازي ج8 ص 339

المقطع الرابع
المنهج الحركي للدعوة
(تابع قصة موسى وفرعون)

قال تعالى (وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90) آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (91) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (92) وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُواْ حَتَّى جَاءهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (93)

قوله (وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا...) (90) تحرك موسى بمن آمن معه مقصيا لهم عن سطوة فرعون ونفوذه مجتنبين أذاه ، راغبين في سعة رزق ربهم ، مستيقنين بوعده ، واثقين من نصره لهم ، **وبالرغم من أن موسى انتهج هذا النهج ليتجنب الصدام مع آل فرعون** ، إلا أن آل فرعون لم يعجبهم ذلك ، فلم يترك فرعون لموسى الفرصة لأن يخرج من أرض مصر بسلام ، **وكان من الممكن أن يكتفي بنصر متوهم** ، ويتباهى به أمام الناس ، فيظهر لهم أنه استطاع أن يطرد موسى ومن آمن معه من مصر ، ويحافظ على العادات والتقاليد التي ألفوها ، **ولكنه أبى إلا أن يلحق بهم** ، فأتبعهم اتباع العادي على فريسته ، ليدل ذلك على أن الكفر يسعى لتدمير الإسلام في أي مكان ، حتى ولو خرج بعيدا عن حدود مملكته ، فلا ينبغي لأهل الإسلام تقديم تنازلات لأجل المساومة على دعوتهم ، وهم يعلمون أن أهل الكفر لن يرضهم ذلك .

والعجيب **إصرار فرعون** على أن يلحق بموسى **بعدما رأي معجزة شق البحر** وقد تجاوزه موسى ببني إسرائيل ، فأبى فرعون إلا أن يتبعه ويتجاوز البحر ليلحق بموسى ، لكن الله تعالى جعل مكره في نحره وكيده في تدبيره ، فأغرقه حيث أدرك موسى ومن معه ، وعندئذ تكشفت الحقائق وعلم فرعون أن له إلها يقبض الروح ،وقد حانت لحظة قبض روحه ، فآمن بعدما رأي عذاب الغرق ، فلم ينفعه إيمانه إذ ذاك.

قوله (..حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90) آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) (91) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَمَّا أَغْرَقَ اللَّهُ فِرْعَوْنَ قَالَ (آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ) فَقَالَ جِبْرِيلُ **يَا مُحَمَّدُ فَلَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا آخُذُ مِنْ حَالِ الْبَحْرِ فَأَدُسُّهُ فِي فِيهِ مَخَافَةَ أَنْ تُدْرِكَهُ الرَّحْمَةُ**)[1].

وذكر الحاكم في المستدرك في قوله (آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ) ، قال رسول الله ﷺ (**إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ**) [2]، أي مالم تبلغ روحه حلقومه ، فتكونَ بمنزلةِ الشيءِ الذي يُتَغَرْغَرُ بِهِ)[3] ، قال ابن كثير أي: (هذا حكم الله في جميع) : (مَنْ تاب عند معاينة العذاب: أنه لا يقبل)[4].

---

[1]) رواه الترمذي ج10 ص 374 رقم 3032 السلسلة الصحيحة : ج5 ص 26 رقم 2015
[2]) رواه ابن ماجة في سننه ج12 ص 304 رقم 4243 وصححه الألباني : صحيح ابن ماجة ج2 ص 418 رقم 3430
[3]) غريب الحديث لابن الجوزي ج2 ص 152

قوله (.. فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ)(92) عن قتادة قال (لما غرق الله تعالى فرعون **لم تصدق طائفة من الناس بذلك ، فأخرجه الله تعالى ليكون عظة وآية**)[1]، قال العثيمين (أرعب فرعون بني إسرائيل ، فلو لم يتبين لهم أنه غرق بنفسه لكانت أوهامهم تذهب كل مذهب، لعله لم يغرق، لعله يخرج إلينا من ناحية أخرى، فأقر الله أعين بني إسرائيل بأن شاهدوا جسمه غارقاً في الماء)[2]، وهكذا يتأكد للناس سنة الله تعالى في الظالمين ، ونصره للمؤمنين ، ولكن كثير من الناس عن هذه الآية لغافلين .

قوله (وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ) استبدل الله تعالى قوما بآخرين ، فبعدما أهلك قوما جاء بمن ليسوا أمثالهم ، وهنا قد منَّ الله على المستضعفين – من بني إسرائيل – بالفضل والرزق ، قال سبحانه (فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * **كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ**) (الشعراء/57-59)

ولم يكن تفضيل الله لهم وامتنانه عليهم بالفضل من باب المكر بهم ، بل هو تمكين لهم لتصديقهم موسى ، واتباعه ونصرته ، قال الله تعالى (**وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا** الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ) [الأعراف: 137] .

قوله (فَمَا اخْتَلَفُواْ حَتَّى جَاءهُمُ الْعِلْمُ) أي انقلب حال بني إسرائيل بعد ذلك ، من الإيمان إلى الكفر اغترارا بفضل الله عليهم ، وتمكينهم وتفضيلهم على العالمين بالكتاب – أي التوراة – فإنهم لما أحسوا بهذا الفضل لم يزيدوا في الشكر ، وتتابعت الأجيال حتى جاءهم رسول الله ﷺ محمد بالعلم أي القرآن الكريم ، فلما جاءهم به اختلف أهل الكتاب في شأنه ، قيل : (يريد اختلافهم في دينهم وقيل : اختلافهم في أمر محمد ﷺ)[3] ، والمعنيان متقاربان ، لقوله ﷺ (وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ **لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ** بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ)[4].

يقول الشيخ أبو بكر الجزائري (يريد أن بني إسرائيل الذين أكرمهم ذلك الإكرام العظيم **كانوا قبل مبعث النبي ﷺ متفقين على دين واحد منتظرين النبي المنتظر المبشر به في التوراة** الذي سينقذ بني إسرائيل مما حل بهم من العذاب والاضطهاد على أيدي أعدائهم الروم ، فلما جاءهم وهو العلم وهو القرآن والمنزل عليه محمد ﷺ اختلفوا ، فمنهم من آمن به ، ومنهم من كفر) [5].

قوله (إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) أحال الله القضاء بين أهل الكتاب إلى يوم القيامة ، وذلك لأن منهم من لم تبلغه الدعوة صحيحة ، فلعل منهم من يحتج بتحريف التوراة والإنجيل ، وكذلك منهم من يحتج

---

[4]) تفسير ابن كثير ج7 ص 160
[1]) تفسير الصنعاني ج2 ص 297 تفسير القرآن لعبد الرزاق ج3 ص 146 رقم 1132
[2]) تفسير القرآن للعثيمين ج8 ص 12
[3]) التسهيل لعلوم التنزيل ج1 ص 678
[4]) رواه مسلم ج1 ص 365 رقم 218
[5]) أيسر التفاسير للجزائري ج2 ص 149

بأن صورة الإسلام قد بلغته مشوهة ، لاسيما ما سمعه عن النبي ﷺ من افتراءات المستشرقين ، ولم تبلغه الدعوة صحيحة .

فلعل هؤلاء يختبرون كما في الحديث عن رسول الله ﷺ قال: "**أربعة يحتجون يوم القيامة** رجل أصم ورجل أحمق ورجل هرم ورجل مات في الفترة

فأما الأصم فيقول: يا رب لقد جاء الإسلام وما أسمع شيئا

وأما الأحمق فيقول: رب قد جاء الإسلام ، والصبيان يحذفونني بالبعر

وأما الهرم, فيقول: رب لقد جاء الإسلام وما أعقل,

وأما الذي مات في الفترة فيقول: رب ما أتاني لك رسول

فيأخذ مواثيقهم ليطيعنه فيرسل إليهم رسولا أن ادخلوا النار قال: فوالذي نفسي بيده لو دخلوها كانت عليهم بردا وسلاما"[1].

[1]) رواه ابن حبان في صحيحه ج16 ص 357 رقم 7357 وصححه الألباني : الجامع الصغير ج1 ص89 رقم 883

المقطع الخامس

التثبت من الأحكام قبل تطبيقها من ثمار المنهج الحركي

قال تعالى (فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (94) وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِ اللّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (95)

أرشدت هذه الآيات إلى منهج الإسلام في التثبت من الأخبار والأقوال ، فهو منهج موضوعي علمي بحت لا اعتبار فيه لعمل القلب ، وبناء على هذا المنهج وضع علماء الإسلام **علم الإسناد للتثبت من الوحي** سواء لفظا ومعنى وهو القرآن الكريم أو معنى وهو أحاديث الرسول ﷺ حيث إن اللفظ له ﷺ ، وذلك بافتراض – فرض جدلي نظري– وهو أن النبي ﷺ لو شك فيما أوحي إليه ، هل هو من الله عن طريق الأمين جبريل عليه السلام أم هو من الجن وتلبيس إبليس عليه ، فإنه لكي يقطع الشك باليقين عليه أن يسأل أهل العلم من قبله أمثال ورقة بن نوفل ، فهو كان من الأحبار ولديه علم بالكتاب قبل أن يحرف ، **ليطمئن قلبه على أن ما يوحى إليه من عند الله** ، وأنه ليس به مس أو سحر .

قال السعدي في شأن دعوة القرآن للنبي أن يستشهد بشهادة أهل الكتاب (فإن قيل: إن كثيرًا من أهل الكتاب من اليهود والنصارى، بل ربما كان أكثرهم ومعظمهم كذبوا رسول الله وعاندوه، وردوا عليه دعوته ، **والله تعالى أمر رسوله أن يستشهد بهم، وجعل شهادتهم حجة لما جاء به**، وبرهانًا على صدقه، فكيف يكون ذلك؟ فالجواب عن هذا، من عدة أوجه:منها: أن الشهادة إذا أضيفت إلى طائفة أو أهل مذهب أو بلد ونحوهم، فإنما إنما **تتناول العدول الصادقين منهم**)[1] .

وهذا ما حصل بالفعل ، ففي حديث عائشة عن النبي ﷺ لما نزل عليه قوله تعالى (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ) قالت (فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَقَالَ **زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي** فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ فَقَالَ لِخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي فَقَالَتْ خَدِيجَةُ كَلَّا وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ وَتَحْمِلُ الْكَلَّ وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ وَتَقْرِي الضَّيْفَ وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ **وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ** بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ وَكَانَ امْرَأً قَدْ **تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ** وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ **فَيَكْتُبُ مِنْ الْإِنْجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ** مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ يَا ابْنَ عَمِّ اسْمَعْ مِنْ ابْنِ أَخِيكَ فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَبَرَ مَا رَأَى فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ **هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى** يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ قَالَ نَعَمْ لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ **تُوُفِّيَ وَفَتَرَ الْوَحْيُ**)[2].

---

[1]) تفسير السعدي ج1 ص 373

[2]) رواه البخاري ج1 ص 5 رقم 3

قال ابن كثير (وهذا شرط، أي قوله " فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ "، **والشرط لا يقتضي وقوعه)** [1]، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: " فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ " قَالَ:"**لَمْ يَشُكَّ رَسُولُ اللَّهِ وَلَمْ يَسْأَلْ)**[2]، فالرسول ﷺ منزه عن أن يكون قد وقع في قلبه شك في أمور العقيدة ، ولكن الثابت هو أنه شك في أن الذي جاءه هو الوحي ولذلك سأل ورقة بن نوفل ، وكان ذلك في بداية نزول الوحي عليه ، وذلك أمر منطقي أن يتثبت ، لكنه لما استيقن التزم صراط ربه المستقيم ، وذلك قوله (ووجدك ضالا فهدى) أي لم يكن يعرف الطريقة الصحيحة لعبادة ربه فأرشده الله لذلك ، وذلك قوله (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ، صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ) (الشورى52-53) ، قال الرازي (القلب في دار الدنيا لا ينفك عن الأفكار المستعقبة للشبهات إلا أنه عليه الصلاة والسلام **كان يزيلها بالدلائل)**[3] ، **فالقلب لا يستيقن من الخبر إلا بعد الاختبار والسؤال والتحقيق** ،فإذا استيقن فإن اليقين لا يزول بالشك .

وهذا إن جاز في حق النبي ﷺ فجوازه في حق الصحابة ومن تبعهم أولى [4]، فجاز لهم أن يسألوا أهل الكتاب عما يعرفوه عن الإسلام ، لا باعتبارهم متشككين في دينهم ، فحاشا أن يتشكك المرء من دينه ، وإنما هو نوع من الشك الذي سماه القرآن ليتحقق "اليقين" ، **فالشك هو المرحلة الأولى للوصول إلى اليقين** ، بمعنى أن **الشك منهج بحثي افتراضي علمي** ، وذلك حتى يثبت للمرء حقيقة ما يبحث عنه بالأدلة ، لأن الشارع الحكيم يريد أن يغلق مداخل الشيطان ، فيحيله إلى هذا المنهج الافتراضي في التعليم حتى يقطع عن الشيطان كل حيلة له .

والاستفسار من أهل الكتاب من باب تعضيد الأدلة القرآنية بالأدلة التوراتية والإنجيلية ، ذلك أنه بسؤال أهل الكتاب سواء العلماء منهم أو المضللين تستبين الحقائق ، فمن علم منهم الحق ولم يكتمه شهد به وجاء بالأدلة التي تعضد القرآن الكريم ، **أما المضلل منهم فإنه بإجابته يفصح عن التحريف الذي طال كتبه**م والتشويه الذي نال من عقيدتهم ، فيقارن ذلك بالإسلام فيجد الكمال والجمال ،كما يقول المتنبي "**وبضدها تتبين الأشياء**".

وكذلك قول دوقلة المنبجي :-

فالوَجْهُ مثلُ الصُّبحِ مُبْيَضٌّ ... والشَّعْرُ مثلُ الليلِ مُسْوَدُّ

ضِدَّانِ لما استجمعا حَسُنَا ... والضِّدُّ يُظْهِر حُسنَهُ الضِّدُّ

فإذا التزم المؤمن هذا المنهج في الإثبات عندئذ ينتهي إلى الحقيقة ، وهي قوله (لَقَدْ جَاءكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ) فيقع في قلبه يقين بهذا المعنى .

---

[1]) تفسير ابن كثير ج3 ص 322

2) تفسير ابن أبي حاتم ج8 ص 96

[3]) تفسير الرازي ج2 ص 32

4) قال العلماء (أصحاب رسول الله ﷺ هم الذين رأوا النبي عليه الصلاة والسلام وسمعوا كلامه ، وأما التابعون فقد رأوا من رأى النبي ﷺ وسمع كلامه، أي: أن أعين الصحابة رأت النبي ﷺ ، وأما التابعون فلم يروا النبي ﷺ ولكنهم رأوا الأعين التي رأت النبي ﷺ ورضي الله تعالى عن الصحابة)

فمن ثمار المنهج الحركي للدعوة الإسلامية تحقق العدالة عن طريق التثبت من الأخبار ، وفي مقدمتها التثبت من الخبر عن الله تعالى ، **فإذا تسنى للأمة أن تتثبت من دينها بأسلوب منهجي ومنطقي وعلمي** ، تسنى لها أن تتثبت من كل شيء ، أما إذا لم يلتزم الناس هذا المنهج البحثي في أمر دينهم ، فإنهم سوف يتبعون مناهج أخرى تلقي بهم إلى ظلمة المماراة بالباطل ، والجدال المذموم حتى يصلوا إلى **مرحلة التكذيب بآيات الله تعالى** ، وهم قبل ذلك لم يكونوا يريدون أن يفعلوا ذلك ، لكنهم فعلوه بعدما أهملوا الالتزام بمنهج القرآن في البحث والاستقراء والتثبت .

ونحن في هذا الزمان إذا أردنا أن نلتزم المنهج الحركي الذي أشارت إليه سورة يونس فليس علينا أن نسأل أهل الكتاب لنرى بأعيننا كيف تتبين الأشياء ،وقد علمنا أنه قد انتهى زمنهم وحرفت كتبهم ، ولم يبق منهم شيء ، **ولكن علينا أن نسأل أهل القرآن الذين تعلموا علم التفسير** ، **وأهل الحديث الذي تعلموا علم الحديث** ، **ومثلهم أهل اللغة والسير والفقه** ، **لنتعلم ما أوحي إلى نبينا ﷺ** ، فإن مجالسة العلماء ضرب من تلقي العلم ومدارسته .

فعن سليمان بن موسى أنه قال : كان يقال : **لا تأخذوا القرآن من مُصحَفي** ، **ولا العلم من صُحَفي** ، أي الذي يتعلم القرآن من المصحف ولا يتلقاه من شيخ أو الذي يقرأ العلم من الصحف ولا يدرسه مع عالم ، قال ثور بن يزيد : لا يفتي الناس صحفي ، ولا يقرئهم مصحفي

وقال الشاعر :-

ومن بطون كراريس روايتهم ..... لو ناظروا باقلا يوما لما غلبوا

والعلم إن فاته إسناد مسنده ..... كالبيت ليس له سقف ولا طنب

من هنا وضع علماء الإسلام علم الإسناد والمسانيد ، روى مسلم عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ قَالَ: " **إِنَّ هَذَا الْعِلْمَ دِينٌ فَانْظُرُوا عَمَّنْ تَأْخُذُونَ دِينَكُمْ**"[1]، وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ **(تَسْمَعُونَ وَيُسْمَعُ مِنْكُمْ وَيُسْمَعُ مِمَّنْ سَمِعَ مِنْكُمْ)**[2]، وعَنِ ابْنِ سِيرِينَ قَالَ: " لَمْ يَكُونُوا يَسْأَلُونَ عَنِ الإِسْنَادِ فَلَمَّا وَقَعَتِ الْفِتْنَةُ قَالُوا **سَمُّوا لَنَا رِجَالَكُمْ فَيُنْظَرُ إِلَى أَهْلِ السُّنَّةِ فَيُؤْخَذُ حَدِيثُهُمْ وَيُنْظَرُ إِلَى أَهْلِ الْبِدَعِ فَلاَ يُؤْخَذُ حَدِيثُهُمْ**".

وقَالَ الْحَاكِم النيسابوري: (فلولا الإسناد وطلب هَذِهِ الطائفة لَهُ، وكثرة مواظبتهم عَلَى حفظه لدرس منار الإِسْلاَم، ولتمكن أهل الإلحاد والبدع فِيْهِ بوضع الأحاديث، وقلب الأسانيد، فإنَّ الأخبار إذا تعرت عن وجود الأسانيد فِيْهَا كانت مبتراً)[3].

وقَالَ عَبْد الله بن المبارك: **(الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء)**[4]

وقد أسند الْخَطِيْب في كتاب" شرف أصحاب الْحَدِيْث"[5] إلى مُحَمَّد بن حاتم بن المظفر قَالَ: (إنّ الله أَكْرَمَ هَذِهِ الأمة وشرّفها وفضّلها بالإسناد، وليس لأحد من الأمم كلها، قديمهم وحديثهم إسنادٌ، وإنما هِيَ صحف في أيديهم وَقَدْ خلطوا بكتبهم أخبارهم، وليس عندهم تمييز بَيْنَ ما نزل من التوراة والإنجيل مِمَّا جاءهم بِهِ أنبياؤهم، وتمييز بَيْنَ ما ألحقوه

---

[1]) صحيح مسلم ج1 ص 11 رقم 26 ، 27

[2]) رواه أبو داود ج10 ص 75 رقم 3174 وصححه الألباني : صحيح أبي داود ج4 ص389 رقم 1784

[3]) قواعد التحديث: 201

4) مقدمة صَحِيْح مُسْلِم 12/1، وطبعة فؤاد عَبْد الباقي 15/1، وشرف أصحاب الْحَدِيْث: 41 (78)، والإلماع: 194.

5) شرف أصحاب الْحَدِيْث: 40 (76)

بكتبهم من الأخبار الَّتِيْ أخذوا عن غَيْر الثقات. وهذه الأمة إنما تنُصّ الْحَدِيْث من الثقة المعروف في زمانه المشهور بالصدق والأمانة عن مثله حَتَّى تتناهى أخبارهم، ثُمَّ يبحثون أشد البحث حَتَّى يعرفوا الأحفظ فالأحفظ، والأضبط فالأضبط والأطول مجالسةً لِمَنْ فوقه ممن كَانَ أقل مجالسةً. ثُمَّ يكتبون الْحَدِيْث من عشرين وجهاً وأكثر حَتَّى يهذبوه من الغلط والزلل ويضبطوا حروفه ويعدوه عداً.فهذا من أعظم نعم الله تَعَالَى عَلَى هَذِهِ الأمة)[1]

[1]) جمال بن محمد السيد : ابن القيم الجوزية وجهوده في خدمة السنة ج1 ص 333 ، الجامعة الإسلامية ، المدينة المنورة
فتح المغيب في شرح ألفية الحديث للعراقي ، للسخاوي ج3 ص 3

المقطع السادس

إيكال أمر إيمان الناس إلى الله ، والتسليم لحكم الله فيهم إما يعذبهم أو ينجيهم

(والاستشهاد بقصة قوم يونس)

قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ **لاَ يُؤْمِنُونَ** (96) وَلَوْ جَاءتْهُمْ **كُلُّ آيَةٍ** حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ * فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ **آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا** إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (98) وَلَوْ شَاء رَبُّكَ **لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ** كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ (99) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن **تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ** وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ (100) قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ **لاَّ يُؤْمِنُونَ** (101) فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (102) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُواْ كَذَلِكَ **حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ** (103)

قوله (إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ)(96) قال قتادة: أي (الذين حق عليهم غضب الله وسخطه بمعصيتهم لا يؤمنون)[1] ، ونظيره قوله (كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)(يونس33) ، فالمخلوقات كلها لابد وأن تؤمن بالله طوعا أو كرها ، والله يرضى لهم الإيمان اختيارا ، ولا يرضى لهم الإيمان اضطرارا أي عند معاينة ملك الموت وقد أوشك على الهلاك ، كإيمان فرعون لحظة الغرق ، والمعنى إذن أنهم لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم أي الموت .

قال ابن تيمية (وَهَذَا خَبَرٌ عَنْ الْمُسْتَقْبَلِ وَأَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)[2] ، أي في علم الله الأزلي ، وقال ابن تيمية أَيْ (حَقَّ عَلَيْهِمْ مَا قَالَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَكَتَبَهُ وَقَدَّرَهُ . فَجَعَلَ الْمُوجَبَ هُوَ التَّقْدِيرُ السَّابِقُ وَهُوَ قَوْلُهُ . وَالْقَوْلُ وَإِنْ كَانَ قَدْ يَكُونُ خَبَرًا مُجَرَّدًا بِمَا سَيَكُونُ وَقَدْ يَكُونُ قَوْلًا يَتَضَمَّنُ أَشْيَاءَ كَالْيَمِينِ الْمُتَضَمِّنَة لِلْحَضِّ وَالْمَنْعِ . فَقَدْ ذَكَرَ فِي مَوَاضِعَ تَقَدُّمَ الْيَمِينِ كَقَوْلِهِ (وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي) وَنَحْوُ ذَلِكَ[3] .

قال ابن تيمية (وَمِمَّا اتَّفَقَ عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتُهَا مَعَ إيمَانِهِمْ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ وَأَنَّ اللَّهَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَأَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ وَأَنَّهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَأَنَّ الْعِبَادَ لَهُمْ مَشِيئَةٌ وَقُدْرَةٌ يَفْعَلُونَ بِمَشِيئَتِهِمْ وَقُدْرَتِهِمْ مَا أَقْدَرَهُمْ اللَّهُ عَلَيْهِ مَعَ قَوْلِهِمْ إنَّ الْعِبَادَ لَا يَشَاءُونَ إلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ . كَمَا قَالَ : { إنْ هُوَ إلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ } { لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ } { وَمَا تَشَاءُونَ إلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ } .

وَالْقُرْآنُ قَدْ أَخْبَرَ بِأَنَّ الْعِبَادَ يُؤْمِنُونَ وَيَكْفُرُونَ وَيَفْعَلُونَ وَيَعْمَلُونَ وَيَكْسِبُونَ وَيُطِيعُونَ وَيَعْصُونَ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيَحُجُّونَ وَيَعْتَمِرُونَ وَيَقْتُلُونَ وَيَزْنُونَ وَيَسْرِقُونَ وَيَصْدُقُونَ وَيَكْذِبُونَ وَيَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ وَيُقَاتِلُونَ وَيُحَارِبُونَ فَلَمْ يَكُنْ مِنْ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ مَنْ يَقُولُ : إنَّ الْعَبْدَ لَيْسَ بِفَاعِلِ وَلَا مُخْتَارٍ وَلَا مُرِيدٍ وَلَا قَادِرٍ . وَلَا قَالَ أَحَدٌ مِنْهُمْ : إنَّهُ

---

[1]) تفسير القرطبي ج8 ص 383
[2]) مجموع الفتاوى ج8 ص 493
[3]) مجموع الفتاوى ج16 ص 592

فَاعِلٌ مَجَازًا بَلْ مَنْ تَكَلَّمَ مِنْهُمْ بِلَفْظِ الْحَقِيقَةِ وَالْمَجَازِ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ الْعَبْدَ فَاعِلٌ حَقِيقَةً وَاَللَّهُ تَعَالَى خَالِقُ ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ .

والسَّلَفُ وَالْأَئِمَّةُ كَمَا أَنَّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ وَأَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ وَأَنَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ أَفْعَالِ الْعِبَادِ وَغَيْرِهَا وَهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى إثْبَاتِ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ وَأَنَّهُ لَا حُجَّةَ لِأَحَدِ عَلَى اللَّهِ فِي تَرْكِ مَأْمُورٍ وَلَا فِعْلِ مَحْظُورٍ . فَهُمْ أَيْضًا مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ اللَّهَ حَكِيمٌ رَحِيمٌ وَأَنَّهُ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ وَأَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ .

وقد رد ابن تيمية على شبهة تكليف أبي لهب بالإيمان رغم علم الله السابق بعدم إيمانه ، بأن الله لا يكلف العبد إلا بما هو مقدور ، وأوضح أن أبا لهب كان قادراً على الإيمان والتصديق لو أراد، وأن علم الله المسبق بعدم إيمانه لا يمنع من قدرته عليه، ولا يُعد تكليفاً بالجمع بين النقيضين.

وَاَللَّهُ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى إحْدَاثِ إرَادَةٍ لِلْعَبْدِ وَلِاخْتِيَارِهِ وَجَعْلِهِ فَاعِلًا بِقُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ فَهُوَ أَعْلَى وَأَقْدَرُ مِنْ أَنْ يَجْبُرَ غَيْرَهُ وَيُكْرِهَهُ عَلَى أَمْرٍ شَاءَهُ مِنْهُ ؛ بَلْ إذَا شَاءَ جَعَلَهُ فَاعِلًا لَهُ بِمَشِيئَتِهِ كَمَا أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَجْعَلَهُ فَاعِلًا لِلشَّيْءِ مَعَ كَرَاهَتِهِ لَهُ فَيَكُونُ مُرِيدًا لَهُ حَتَّى يَفْعَلَهُ مَعَ بُغْضِهِ لَهُ.

كَمَا قَدْ يَشْرَبُ الْمَرِيضُ الدَّوَاءَ مَعَ كَرَاهَتِهِ لَهُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا) وَقَالَ : (وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا) فَكُلُّ مَا يَقَعُ مِنْ الْعِبَادِ بِإِرَادَتِهِمْ وَمَشِيئَتِهِمْ فَهُوَ الَّذِي جَعَلَهُمْ فَاعِلِينَ لَهُ بِمَشِيئَتِهِمْ سَوَاءٌ كَانُوا مَعَ ذَلِكَ فَعَلُوهُ طَوْعًا أَوْ كَانُوا كَارِهِينَ لَهُ فَعَلُوهُ كَرْهًا وَهُوَ سُبْحَانَهُ لَا يُكْرِهُهُمْ عَلَى مَا لَا يُرِيدُوهُ كَمَا يُكْرِهُ الْمَخْلُوقُ الْمَخْلُوقَ حَيْثُ يُكْرِهُهُ عَلَى أَمْرٍ وَإِنْ لَمْ يُرِدْهُ وَلَيْسَ هُوَ قَادِرًا أَنْ يَجْعَلَهُ مُرِيدًا لَهُ فَاعِلًا لَهُ لَا مَعَ الْكَرَاهَةِ وَلَا مَعَ عَدَمِهَا ؛ فَلِهَذَا يُقَالُ لِلْعَبْدِ : إنَّهُ جَبَرَ غَيْرَهُ عَلَى الْفِعْلِ وَاَللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ وَأَقْدَرُ مِنْ أَنْ يُقَالَ بِأَنَّهُ جَبَرَ بِهَذَا الْمَعْنَى)[1].

قوله (وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ) (97) فهؤلاء لا ينتفعون بشهادة أهل الكتاب ولا بما يصلهم من أسانيد ، فالعلم يصل إليهم ولا يحول دون وصوله إليهم شيء ، ولكنهم لا يؤمنون بهذا العلم ،ولا بتلك الآيات استكبارا ، فلم يزدهم ذلك إلا نفورا ، قال ابن عاشور (والمعنى: أنهم لا يؤمنون إلا حين لا ينفعهم الإيمان، لأن نزول العذاب هو ابتداء مجازاتهم على كفرهم، وليس بعد الشروع في المجازاة عفو)[2].

والمثال على ذلك فرعون وملئه ، قدر الله عليهم الغواية والضلال ، فعلم الله سابق لا يخطئ أبدا ، والله لم يظلمهم بما قدره عليهم ، فقد أقام عليهم الحجة فأرسل لفرعون موسى وهارون لعله يتذكر أو يخشى ، قال تعالى (اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ، فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى) (طه43-44) ، فنفذ قدر الله وحقت كلمته أن لا يؤمن فرعون حتى يدركه الغرق ، فلم ينتفع بإيمانه إذاك ، حيث آمن بما هو مشاهد وليس بما هو غائب.

فإيمانهم – إن جاز التعبير– فرعون جاء بعدما عاين العذاب ، ظل على استكباره ممتنعا عن الإيمان حتى حصل له الغرق فقال (آمنت بالذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المؤمنين) فلم يقبل إيمانه لحظة الغرغرة ، لأنه قد حقت عليه كلمة ربه (**سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ** وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ)(الأعراف

[1]) يراجع كتاب ابن تيمية مجموع الفتاوى ج8 ص 459 – 474
[2]) التحرير والتنوير ج11 ص 179

146) قال ابن عاشور (فهم لا تجدي فيهم الحجة لأنهم أهل مكابرة، وليسوا طالبين للحق لأن ..، فالذين لم يؤمنوا بما يجيء من الآيات هم ممن علم الله أنهم لا يؤمنون،... وهذا مسوق مساق التأييس من إيمانهم)[1].

قال الشنقيطي (صرح تعالى في هذه الآية الكريمة، أن من حقت عليه كلمة العذاب، وسبقت له في علم الله الشقاوة لا ينفعه وضوح أدلة الحق، وذكر هذا المعنى في آيات كثيرة)[2]، كقوله تعالى: (وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ) [يونس101]، وقوله: (وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا) [القمر 2]، وقوله: (وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ) [الأنعام 4]، وقوله: (وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ) [الرعد 105]، وقوله: (سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ) [البقرة 6]، والآيات بمثل ذلك كثيرة

وقد أشار الرازي إلى أنه لفهم مدلول هذه الآية –ومثيلتها – لابد وأن نقرأها مع الآية التي تليها ، أي الآية التي تحكي عن **قصة إيمان قوم يونس لما تركهم نبيهم** ، حيث تحقق **الفرض العكسي لحالة كفر فرعون** الذي آمن عند الموت فلم ينتفع بإيمانه ، فهذا الفرعون لم يؤمن رغم أن الآيات جاءته من كل مكان ، فكان الاستكبار علة عدم إيمانه ، وها هم قوم يونس آمنوا رغم أن نبيهم تركهم يائسا منهم ، فالإيمان وعدم الإيمان يجب إيكاله لله ، وليس أحد من البشر يعلم ذلك ، وفي ذلك **تأكيد على أن مهمة الرسل هي البلاغ وحسب** ، وليس عليهم انتظار حصول الإيمان ، يقول النبي ﷺ **(يَمُرُّ النَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلُ وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلَانِ وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّهْطُ وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ)**[3].

قوله (فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ) (98) ذكر ابن كثير في تفسيره أن المعنى هلا كانت قرية آمنت من الأمم السالفة ، أي دون معاندة مع رسولهم ، ولكن أحوال القرى كان كما قال الله تعالى فيهم **(يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)** [يس: 30]، **(كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ)** [الذاريات:52]، وقال (الغرض أنه لم توجد قرية آمنت بكمالها بنبيهم ممن سلف من القرى، إلا قوم يونس، وهم أهل نِينَوى ، وما كان إيمانهم إلا خوفا من وصول العذاب الذي أنذرهم به رسولهم، بعد ما عاينوا أسبابه، وخرج رسولهم من بين أظهرهم ..فاضرعوا إلى الله .. وسألوا الله تعالى أن يرفع عنهم العذاب الذي أنذرهم به نبيهم ، فعندها رحمهم الله، وكشف عنهم العذاب)[4].

قوله (..لَمَّآ آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا..) وفي ذلك تأكيد على معنى أن الإيمان بالله ينفع في رد العذاب وكشف ما نزل منه ، لاسيما وقد روي في القصص (أن يونس عليه السلام أنذرهم بالعذاب ، فلما رأوه قد خرج من بين أظهرهم علموا أن العذاب –قد– ينزل بهم فتابوا وتضرعوا إلى الله تعالى فرفعه عنهم)[5].

---

[1]) التحرير والتنوير ج11 ص 179
[2]) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ج2 ص 161
[3]) رواه البخاري ج18 ص 38 رقم 5311
[4]) تفسير ابن كثير ج4 ص 297
[5]) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ج1 ص 679

فقد **أمنوا في غياب نبيهم عنهم** ، ما يعني أن مسألة الإيمان لا تتوقف على جهد الأنبياء والدعاة إلى الله ، بل هي مرهونة بإرادة الله تعالى سبحانه حقا وعدلا ، وما على الرسول إلا البلاغ ، يقول النبي ﷺ (عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ فَجَعَلَ النَّبِيُّ وَالنَّبِيَّانِ يَمُرُّونَ مَعَهُمْ الرَّهْطُ وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ حَتَّى رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ قُلْتُ مَا هَذَا أُمَّتِي هَذِهِ قِيلَ بَلْ هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ قِيلَ انْظُرْ إِلَى الْأُفُقِ فَإِذَا سَوَادٌ يَمْلَأُ الْأُفُقَ ثُمَّ قِيلَ لِي انْظُرْ هَا هُنَا وَهَا هُنَا فِي آفَاقِ السَّمَاءِ فَإِذَا سَوَادٌ قَدْ مَلَأَ الْأُفُقَ قِيلَ هَذِهِ أُمَّتُكَ) [1]، إذن تقدير عدد المؤمنين هو أمر سوف يُكشف لنا يوم القيامة ، أما في الدنيا فليس علينا إلا البلاغ.

قوله (..وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ) (98) وذلك كقول نوح لقومه (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ، **يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ، وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا** ، مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا) (نوح 10-13) ، وذلك كقوله سبحانه (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ **لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ** وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ) (الأعراف96).

قوله (وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا..) (99) قال أبو حيان أي (لو شاء **لقسرهم على الإيمان ، ولكنه لم يفعل ، وبنى الأمر على الاختيار**)[2]، أي علقه على المشيئة الكونية ، وقد علم قدرا أن بعضهم لا يستحقون فلم يطبعهم على الإيمان ، قال تعالى (**ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها**) [السجدة : 13]

قال أهل العلم (ولو شاء أن لا يُعصى ما خلق إبليس ، فكُفر الكافرين وإيمان المؤمنين وإلحاد الملحدين وتوحيد الموحدين وطاعة المطيعين ومعصية العاصين كلها بقضائه سبحانه وتعالى وقدره وإرادته ومشيئته ، أراد كل ذلك وشاءه وقضاه ، ويرضى الإيمان والطاعة ويسخط الكفر والمعصية ولا يرضاها ، قال الله عز وجل (إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ) [الزمر 7])[3] **أي لا يرضاه شرعا وإن كان قد وقع كونا ورضاه بمشيئته الكونية وإن خالفت مشيئته الشرعية** .

قوله (.. أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ) (99) فالنبي ﷺ كان حريصا على إيمان قومه ، حرصا كاد أن يُظن أنه يقتل نفسه أسفا عليهم ، وهم يعاندونه ، وكأنه يريد إكراههم على الإيمان ، فقال الله (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا) (الكهف 6) ، ونظير ذلك قوله تعالى (**إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ**) ، وقد أخبر النبي ﷺ على مدى حرصه على إيمان قومه ، فقال ﷺ (إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ النَّاسِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي تَقَعُ فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا **فَجَعَلَ يَنْزِعُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا** فَأَنَا آخُذُ بِحُجَزِكُمْ عَنْ النَّارِ وَهُمْ يَقْتَحِمُونَ فِيهَا)[4] قال ابن حجر في الشرح (عند مسلم فيغلبوني النون مثقلة لأن أصله فيغلبونني والفاء سببية والتقدير أنا آخذ بحجزكم لأخلصكم من النار فجعلتم الغلبة مسببة عن الأخذ)[5] فالأخذ والمغالبة يدلان على أنه يحاول بكل محاولة أن يبعدهم عن سبب دخول النار وهو الكفر ،

---

[1]) رواه البخاري ج17 ص 473 رقم 5270
[2]) البحر المحيط ج1 ص 45
[3]) محمد بن عبد الرحمن الخميس : اعتقاد أهل السنة شرح أصحاب الحديث ص 60 وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف بالسعودية
[4]) رواه البخاري ج20 ص 127 رقم 6002
[5]) فتح الباري ج11 ص 319

ويضطرهم للإيمان ولو من باب المغالبة ، ولكنهم يرون النار جنة فيتهافتون إليها كتهافت الفراش على النار ، قال تعالى (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء **وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**) (القصص 56) .

قال ابن القيم (**وإيمان القسر والإلجاء لا يسمى إيمانا ، ولهذا يؤمن الناس كلهم يوم القيامة** ، ولا يسمى ذلك إيمانا لأنه عن الجاء واضطرار ، قال تعالي "ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها" ، وما يحصل للنفوس من المعرفة والتصديق بطريق الإلجاء والاضطرار والقسر لا يسمى هدى ، وكذلك قوله " **أفلم ييأس الذين امنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا** " ، فقولكم لم يبق طريق إلى الإيمان إلا بالقسر باطل ، فإنه بقي إلى إيمانهم طريق لم يُرهم الله إياه ، وهو مشيئته وتوفيقه وإلهامه وإمالة قلوبهم إلى الهدى وإقامتها على الصراط المستقيم ، وذلك أمر لا يعجز عنه رب كل شيء ومليكه بل هو القادر عليه كقدرته على خلقه ذواتهم وصفاتهم ودرائهم ، ولكن منعهم ذلك لحكمته وعدله فيهم ، وعدم استحقاقهم وأهليتهم لبذل ذلك لهم)[1].

قوله (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ ..) (100) أَيْ (إلاَّ بما سبق لها في قضاء الله وقدره)[2] ،وفي ذلك إرشاد للنبي ﷺ ومن معه من أصحابه أن لا يعجلوا على الناس ويستبطئوا إيمانهم ،فموعد إيمانهم لم يحن بعد إلا أن يأذن الله بذلك ، فالله سبحانه يدرك ما في القلوب والعقول، **ويعلم من يستحق الإيمان فضلا، ومن لا يستحقه عدلا**.

فقد واسى الله نبيه فقال (**فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ** إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ)(فاطر 8) ، أي : فلا تجهد نفسك عليهم حزن ألا يؤمنوا ، فذلك بأمر الله ومشيئته ، فهداهم بيد الله وحده ، وليس عليك غير البلاغ ، وليس عليك الانتظار لأن يؤمنوا ، ولذلك عطف على هذه الآية قوله (ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون) أي أن ثمة **أناس محرومون من الهداية والإيمان ، لأنهم تلبسوا بالرجس ، ولأنهم لم يعملوا عقولهم في التفكر في الآيات** ، فعلام إذن انتظار إيمانهم ، فهو أمر بيد الله وحده .

قوله (وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ)(100) وقال الألوسي : (وَيَجْعَلُ الرجس) أي (الكفر) كما في قوله تعالى : (**فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ**) [التوبة : 125] ، ، وقد وصفهم الله بالرجس لتبشيع حالهم ، أنهم كفروا رغم أن الله تعالى جعل الإيمان في طريقهم واضحا بينا، وقد جاءتهم البينات من عند الله .

والكفر شامل لكل شر ، أما تخصيص معنى بذاته من معاني الكفر ففيه أقوال كلها صحيحة ، ولا تخلو من فائدة ، قال الماوردي **المراد بالرجس** فيه خمسة تأويلات [3]:

أحدها : أن الرجس السخط ، قاله ابن عباس[4] .

الثاني : أنه العذاب ، قاله الفراء .

---

[1]) التفسير القيم لابن القيم ج1 ص 150
كما منع السفل خصائص العلو ، ومنع الحار خصائص البارد ، ومنع الخبيث خصائص الطيب ، ولا يقال فلم فعل هذا فإن ذلك من لوازم ملكه وربوبيته ومن مقتضيات أسمائه وصفاته ، وهل يليق بحكمته أن يسوي بين الطيب والخبيث والحسن والقبيح والجيد والرديء ، ومن لوازم الربوبية خلق الزوجين وتنويع المخلوقات وأخلاقها

[2]) الوجيز للواحدي ج1 ص 331

[3]) النكت والعيون ج2 ص 185

[4]) حديث رقم 11449 تفسير ابن أبي حاتم ج8 ص 105

الثالث : أنه الإثم ، قاله سعيد بن جبيرٍ [1].

الرابع : أنه ما لا خير فيه ، قاله مجاهد [2].

الخامس : أنه الشيطان ، قاله قتادة [3]،وتأوله البعض بأنه عمل الشيطان كقوله (رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ)

قوله (..الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ) (100) المراد بالذين لا يعقلون (**الذين لا تهتدي عقولهم إلى إدراك الحق ولا يستعملون عقولهم بالنظر في الأدلة**)[4] ، قال ابن عاشور (علم أن حالة الإيمان حالة من يعقلون)[5]، فيكون المعنى المراد (ويوقع الكفر على الذين لا يعقلون ، والمراد نفي العقل السليم) ، **والمقصود أنهم عطلوا الملكات والقدرات الربانية عن إدراك الأدلة وفي مقدمتها إعمال العقل ولهذا استحقوا الكفر** .

قوله (قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ..) (101) دعوة القرآنية للناس جميعا لإنعاش العقل بالنظر والتدبر ، أي لأن تتفتح عقولهم بما تراه أعينهم ، وما يعرض أمامهم من آيات الله الدالة عليه ، ما يعني أن **النظر والتأمل وإعمال العقل في آيات الله هو طريق الإيمان به** ، والكبر كفيل هو وحده بأن لا تعمل العقول وظيفتها في التفكر والتدبر والتأمل في تلك الآيات ، ونظيره قوله تعالى: (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ) وقوله (أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْأِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ)

يقول سيد قطب (إن المخاطبين بهذا القرآن أول مرة ، لم يكن لديهم من المعرفة العلمية بما في السماوات والأرض إلا القليل ، ولكن الحقيقة الواقعة التي طالما أشرنا إليها مراراً وتكرارا ، هي أن بين الفطرة البشرية وبين هذا الكون الذي نعيش فيه لغة خفية غنية! وأن هذه الفطرة تسمع لهذا الكون .. وتسمع منه الكثير! **والمنهج القرآني في تكوين التصور الإسلامي في الإدراك البشري يتكئ على ما في السماوات والأرض** ، ويستلهم هذا الكون؛ ويوجه إليه النظر والسمع والقلب والعقل ... والنظر إلى ما في السماوات والأرض يمد القلب والعقل بزاد من المشاعر والتأملات؛ وزاد من الاستجابات والتأثرات؛ وزاد من سعة الشعور بالوجود؛ وزاد من التعاطف مع هذا الوجود . . وذلك كله في الطريق إلى امتلاء الكينونة البشرية بالإيقاعات الكونية الموحية بوجود الله ، وبجلال الله ، وبتدبير الله ، وبسلطان الله ، وبحكمة الله ، وعلم الله . . .)[6]

قوله (..وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ) (101) تقرير لحقيقة من طمست قلوبهم عن إدراك الآيات وقد رأتها أعينهم ، لكن عقولهم تعطلت عن إدراك معانيها ، ما يعني أنهم لا يؤمنون لأنهم لا ينظرون نظر المتأمل المتدبر في آيات الله ، ولو أنهم أطاعوا الله في هذه الدعوة لتفتحت قلوبهم للإيمان لكنهم لم يفعلوا ، وهذا هو **داء المستكبرين**.

---

[1]) حديث رقم 11450 تفسير ابن أبي حاتم ج8 ص 105
[2]) حديث رقم 11451 تفسير ابن أبي حاتم ج8 ص 104
[3]) حديث رقم 11452 تفسير ابن أبي حاتم ج8 ص 105
[4]) التحرير والتنوير ج11 ص 184
[5]) التحرير والتنوير ج11 ص 184
[6]) في ظلال القرآن ج4 ص 185

قال ابن عاشور (التعبير بالآيات **كالإظهار في مقام الإضمار**.. ذلك أن القرآن جاء للناس بالاستدلال وبالتخويف ثم سجل على هذا الفريق بأنه لا تنجع فيه الآيات والأدلة ولا النذر والمخوفات... ولفظ (قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ) يفيد أن **إنتفاء الإيمان عنهم** وصف عُرفوا به ، وأنه مستقر من نفوسهم..فصار من خصائصهم أي قوم **هذه سجيتهم** ، وهذا من بدائع الإعجاز هنا)[1].

قوله (فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ) (102) تحقيق لمسألة رفضهم النظر والتأمل في آيات الله تعالى ، وذلك أنهم **مشغولون بالدنيا وقد ارتضوها واطمأنوا بها** ، فصار عندهم طول أمل فيها ، لكن الله تعالى يقطع أملهم الذي عطل عقولهم عن العمل **بتذكيرهم** بمن سبقهم من الأمم ، فقد كان عندهم طول أمل مثلهم ، لكن الله تعالى لم يمهلهم إلا قليلا ، حيث بغتهم بالعذاب ولم ينتبهوا قبل ذلك .

قوله (ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُواْ كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ) (103) وعد الله للذين آمنوا في هذه الآية وفي أكثر من موضع من القرآن أنه سوف ينجي الذين آمنوا ، وأكد في هذه الآية أنه **حق على الله تعالى** ، فلا مرد له ، أي هو حق واجب على الله أن ينجي عباده المؤمنين ، والمقصود أن ينجيهم من عذاب الدنيا ، فنجاتهم من عذاب الآخرة أمر مذكور في أكثر من موضع كذلك ، لكن السياق هنا يدل على أن المقصود–هنا– نجاتهم من عذاب الدنيا ، ويؤكد ذلك قوله تعالى **(إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آَمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ)** (غافر 51) ، والعلة من ذلك هو بقاء من يوحد الله تعالى وينشر دعوته إلى يوم الدين ، يقول النبي ﷺ **(لَا يَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ)**[2].

---

[1]) التحرير والتنوير 11 ص 186

[2]) رواه البخاري ج22 ص 286 رقم 6767

خاتمة سورة يونس

وصايا إلهيه للنبي ﷺ

قال تعالى (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي **فَلاَ أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ** مِن دُونِ اللهِ وَلَكِنْ **أَعْبُدُ اللهَ** الَّذِي **يَتَوَفَّاكُمْ** وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (104) وَأَنْ **أَقِمْ وَجْهَكَ** لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (105) وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ (106) وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ يُصَيبُ بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (107) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ **جَاءكُمُ الْحَقُّ** مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (108) **وَاتَّبِعْ** مَا يُوحَى إِلَيْكَ **وَاصْبِرْ** حَتَّىَ يَحْكُمَ اللهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (109)

قال الرازي (اعلم أنه تعالى لما ذكر **الدلائل** على أقصى الغايات وأبلغ النهايات أمر رسوله بإظهار دينه وبإظهار **المباينة عن المشركين** لكي تزول الشكوك والشبهات في أمره ، **وتخرج عبادة الله من طريقة السر إلى الإظهار** فقال (قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مّن دِينِي) واعلم أن ظاهر هذه الآية يدل على أن هؤلاء الكفار ما كانوا يعرفون دين رسول الله ﷺ وفي الخبر إنهم كانوا يقولون فيه قد صبأ وهو صابيء ، فأمر الله تعالى أن يبين لهم أنه **على دين إبراهيم حنيفاً مسلماً** ، والمعنى أنكم إن كنتم لا تعرفون ديني ، فأنا أبينه لكم على سبيل التفصيل ثم ذكر فيه أموراً)[1]

قوله (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلاَ أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) (104) ثار تساؤل عند المشركين عن الإله الحق الذي يستحق العبودية دون غيره في ظل تعدد الآلهة والأديان ، فرد القرآن الكريم عليهم بأن **الإله الذي يستحق العبودية هو الذي يقبض أرواح الناس ويتوفاهم** ، فمن قدر على ذلك هو الذي يستحق بأن ينفرد بالألوهية دون غيره ممن نسب لنفسه الألوهية ، فإذا عرف المرء هذه الحقيقة لا يبالي بغيره ممن يُعبد سوى الله ، فعدم المبالاة بغيره من الآلهة نتيجة منطقية لمعرفة الآله الحق ، ويعني – عملا – أن يتقدم هو بإيمانه المؤمنين أو أن يلحق بهم في الإيمان بالله تعالى ، إن لم يكن من المتقدمين ، كما في قوله (وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ) (الزمر12) ، ولا يبالي بكثرة المخالفين .

قال ابن عجيبة (فهذا خلاصة ديني اعتقاداً وعملاً ، **فاعرضوها على العقل السليم** ، وانظروا فيها بعين الإنصاف ، لتعلموا صحتها ، وهو أني لا أعبد ما تخلقونه وتعبدونه ، ولكن أعبد خالقكم ، الذي هو يوجدكم ويتوفاكم ، وإنما **خص التوفي بالذكر لأنه أليق بالتهديد**)[2].

قوله (وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (105) أي أقبل على الله بكليتك ، واستسلم لأمره بجوارحك وقلبك ، ومل إلى الحق ميل المعتنق المعتقد للشيء بلا تردد أو شك ، قال القاسمي (إقامة الوجه للدين **كناية**

---

[1]) مفاتيح الغيب ج17 ص 137
[2]) البحر المديد ج3 ص 23

عن توجيه النفس بالكلية إلى عبادته تعالى) ، كني به عن صرف العمل بالكلية إلى الدين ، فالمراد بالوجه : الذات . أي : اصرف ذاتك وكليتك للدين) [1] .

وتلك هي الحالة الإيمانية التي أرشد إليها القرآن الكريم ، كما أرشد إليها النبي ﷺ روي عن الحارث بن مالك : أنه مر برسول الله ﷺ فقال له : **كيف أصبحت يا حارثة قال : أصبحت مؤمنا حقا** قال : انظر ما تقول أن لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك قال : **عزفت نفسي عن الدنيا** وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزا وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها قال : يا حارثة **عرفت فالزم** قالها ثلاثا)[2]

وهذا يقتضي ويستتبع لزوما الإعراض عما سواه سبحانه ، ولذلك نهاه عن الإشراك بالله ، فلا يكون حاله الالتفات لغير الله تعالى مثل المشركين ، ولذلك قال النبي ﷺ (إذا عرفت فالزم) ، قال القاسمي (فإن من أراد أن ينظر إلى شيء نظر استقصاء أقام وجهه في مقابلته ، بحيث **لا يلتفت يميناً ولا شمالاً** ؛ إذ لو التفت بطلت المقابلة)[3]، ولذلك قال الله تعالى (وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ **لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ** وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ، بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنْ الشَّاكِرِينَ)(الزمر/65-66) ، وقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى (**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنْ الشِّرْكِ** مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ)[4].

قوله (وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ) (106) أي لابد للقلب أن **يتوجه ابتداء وانتهاء لله وحده** ، فلا يطلب من غيره شيء ، فما سوى الله لا ينفع ولا يضر ، وإنما يلتمس الأسباب التي شرعها الله تعالى لعبادته ، مع تعلق القلب بالله وحده ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا فَقَالَ يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ **احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ** إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ اللَّهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ)[5].

والآية تنهى عن ابتغاء النفع من غير الله والاستعاذة بغيره في اتقاء الشر ، والله تعالى يبين ذلك في قوله (**فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ**) [العنكبوت:17] – فالطلب هو المسألة ، ومنه: طلب الرزق، والرزق من الله جلَّ وعلا وحده، وعطف العبادة على ذلك يدل على أن **طلب الرزق من الله وحده هو عبادة لله** ، ولهذا قدم المعمول مما يقتضي الحصر ، وهذا يدل على وجوب ابتغاء الرزق عند الله فقط، ولا يجوز أن يُطلب من غيره ، وطلبه من غيره شركا بالله جلَّ وعلا.

قال الغنيمان (وليس معنى ذلك أن اتخاذ الأسباب التي يرتبها ربنا جلَّ وعلا على المسببات شركاً ، وإن كان كل شيء بأمره؛ ولكن **لا يجوز للإنسان أن يعتمد على السبب** ويظن أنه هو المؤثر، وهو الذي يتحصل به ما يطلبه، وإنما يفعل السبب لأن الله جعله سبباً، **ولو شاء جلَّ وعلا لعطَّله، ولم يأتِ الأثر الذي يترتب عليه إلا بمشيئه جلَّ وعلا** ،

---

[1]) محاسن التأويل : تفسير القاسمي
[2]) رواه البيهقي في شعب الإيمان ج7 ص 363 رقم 10591
[3]) محاسن التأويل : تفسير القاسمي
4) رواه مسلم ج14 ص 254 رقم 5300
[5]) رواه الترمذي ج9 ص 56 رقم 2440 وابن حبان في صحيحه 166/15 ، وصححه الألباني : صحيح الترمذي 16/6 - 2516

والمقصود أن الإنسان يفعل السبب الشرعي الذي أمره الشرع به، **ويعتمد على الله جلَّ وعلا في حصول المطلوب**، وكثيراً ما يتخلف المسبَّب عن سببه إذا أراد الله جلَّ وعلا ذلك ، فقوله (فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ) [العنكبوت:17] الابتغاء هو الطلب، ويكون بالمسألة، ويكون بالفعل، ويكون باتجاه القلب، وهذه الأشياء تجتمع عند الإنسان المؤمن ، فيتجه قلبه إلى ربه ويسأله التوفيق، ويفعل السبب، ويحتسبه ثواباً عند الله جلَّ وعلا يجزيه على ذلك)[1].

قوله (وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ يُصَيبُ بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) (107) هذا هو دين الله تعالى الذي منه يفر المشركون ، ولا يعلمون ما فيه من راحة روحية وأمان نفسي ، ذلك أن العبد عندما يعلم أن مصيره مع إله واحد ، فإنه يدين له بكل دين ، ولا ينشغل بعد ذلك بشيء ، قال الجنيد : (معبودك أول خاطر يخطر لك عند نزول ضر أو نزول بلاء إن رجعت فيه إلى الله فهو معبودك وهو الذي يكفيك ، وإن رجعت إلى غيره تركك وما رجعت إليه)[2] .

وذلك كما قال تعالى (**مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ**) [فاطر: 2] ، قال رسول الله ﷺ (.. وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ)[3].

وعن الحسن رضي الله عنه قال (آية وجدتها في كتاب الله تعالى اكتفيت بها عن جميع الخلائق ، قوله (وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا رادّ لفضله)[4]، ولقد كان رسول الله ﷺ يتذكر هذا المعنى في كل صلاة ، فعَنْ وَرَّادٍ كَاتِبِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ قَالَ أَمْلَى عَلَيَّ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ فِي كِتَابٍ إِلَى مُعَاوِيَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ **يَقُولُ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ** مَكْتُوبَةٍ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ **اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ**)[5].

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنْ الرُّكُوعِ قَالَ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ مِلْءُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمِلْءُ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ وَكُلُّنَا لَكَ عَبْدٌ **اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ**)[6].

قوله (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ) (108) **تلخيص لمسألة الجبر والاختيار** ، والهداية والضلال ، بما يؤكد أن الهداية هي فعل الإنسان وعاقبتها على نفسه ، وهي فضل ومنة من الله تعالى ، والضلال فالإنسان هو مصدره وسببه ، وعاقبته عليه عدلا وجزاء ، أي أن من تمسك بالحق اهتدى ومن تركه ضل ، وأن النبي ﷺ ليس مسئولا عن هداهم ولا ضلالهم ، وإنما فعل الإنسان بنفسه هو الذي يؤثر في مصيره سواء أكان لها أو عليها ، وذلك كله يصادف قضاء الله وقدره ، ولا اعتراض .

---

[1]) شرح فتح المجيد شرح كتاب التوحيد للغنيمان ج48 ص 2
[2]) تفسير السلمي ج1 ص 195
[3]) رواه الترمذي ج9 ص 56 رقم 2440 وصححه الألباني : صحيح كنوز السنة ج1 ص 102
[4]) الدر المنثور ج5 ص 272
[5]) رواه البخاري ج3 ص 348 رقم 799
[6]) رواه مسلم ج3 ص 19 رقم 736

يقول صاحب الظلال (هذه خلاصة العقيدة كلها ، يُكلف النبي ﷺ أن يعلنهما للناس ، ويُوجه إليه الخطاب بها كأنما على مشهد منهم ..، إنما هو أسلوب من التوجيه الموحي المؤثر على النفوس. . يعلنها في قوة وفي صراحة وهم في عدد قليل من المؤمنين في مكة ، والقوة الظاهرة كلها للمشركين . .)[1].

ويقول (**وليس الرسول موكلاً بالناس يسوقهم إلى الهدى سوقاً ، إنما هو مبلغ ، وهم موكولون إلى إرادتهم وإلى اختيارهم وإلى تبعاتهم ، وإلى قدر الله بهم في النهاية**)[2]

يقول رسول الله ﷺ(**مَنْ يُرِدْ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**)[3]، فالفقه الأكبر هو العقيدة الإسلامية ، فإذا صح الاعتقاد صحت بعد ذلك العبادات والمعاملات وكل شيء .

قوله (وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىَ يَحْكُمَ اللّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ) (109) وصية للنبي ﷺ ومن تبعه أُختتمت بها السورة ، ليظل متبعا لما أوحى إليه ربه ، وقد وصى النبي ﷺ بذلك فقال « إِنِّي قَدْ خَلَّفْتُ فِيكُمْ مَا **لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا مَا أَخَذْتُمْ بِهِمَا أَوْ عَمِلْتُمْ بِهِمَا كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّتِي** وَلَنْ تَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ » [4]، وقال ﷺ (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ)[5]

فالقرآن هو المنهج الذي شرعه الله لنا من الدين ، وسنة الرسول هي المنهج العملي التطبيقي لهذا الدين ، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين هي أثر على هذا المنهج ،ودليل تأريثه الصحيح للآجيال القادمة .

قوله (..وَاصْبِرْ حَتَّىَ يَحْكُمَ اللّهُ..) (109) يعني الصبر على الاتباع والعمل بمنهج الله ، ويعني ذلك عملا أن يتقلب حال العبد بين الشكر والصبر ، فالشكر نصف الإيمان ، والصبر النصف الآخر ، فعن عبد الله قال (**الصبر نصف الإيمان**)[6].

وغاية الصبر لقاء الله تعالى ، فيحكم بين عباده أي بين يرجو لقاءه ومن لا يرجو لقاء الله ، وليس هناك نسخ في الآية لحكم بالأمر بالقتال ، وسياق الآية في مقام الدعوة ، وشتان بين الأمرين ، فمقام الدعوة الحسنى ، ومقام الجهاد في سبيل الله الغلظة ، والصبر المقصود به هنا على تأخر قومهم عن الاستجابة لداعي الإيمان ، ليظهر جهد الدعاة إلى الله في إيصال القول لهم موصولا حتى لقاء الله

قوله (وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ) كما حكم في قوم يونس لما آمنوا بالله فكشف عنهم العذاب ومتعهم إلى حين ، فذلك تضمنت الآية معنى الرجاء في الله ، وثقة في حكمه وتقديره وتدبيره .

---

[1]) في ظلال القرآن ج4 ص 188
[2]) في ظلال القرآن ج4 ص 188
[3]) رواه ابن ماجة ج1 ص 256 رقم 216 والبخاري في صحيحه ج1 ص 126 رقم 69
4) رواه البيهقي في سننه الكبرى ج10 ص 114 رقم 20834 وصححه الألباني : منزلة السنة في الإسلام ج1 ص 18 وقال[رواه مالك بلاغا والحاكم موصلا بإسناد حسن] ، وفي رواية الدارقطني وغيره (خلفت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما كتاب الله وسنتي ولن يفترقا حتى يردا على الحوض) الجامع الصغير ج1ص555 رقم 5543
[5]) رواه الترمذي ج5 ص 44 رقم 2676 وصححه الألباني السلسلة الصحيحة ج2 ص 610
6) رواه الطبراني في الكبير وصححه الألباني : صحيح الترغيب والترهيب ج3 ص 178 رقم 3397 وقال رواته رواة الصحيح وهو موقوف

قال تعالى (ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون) [المائدة50] ، وقالها أحد أبناء يعقوب –في موطن الحيرة من أمره – ثقة في الله ومفوضا أمره إليه ، فقال (فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين) (يوسف: 80) .

فهرست محاور السورة

فاتحة سورة يونس 4
دحض الإشارات الكونية لافتراءات الطاعنين 4
المحور الأول 13
ابتلاء أهل الغفلة بشيء من الضر قبل الإهلاك العام وإعادة الاستخلاف 13
المحور الثاني 20
قضاء الله في الطاعنين في القرآن 20
المحور الثالث 29
تصوير مشهد مكر الإنسان حال الاضطرار وانقلابه علي ربه حال النجاة 29
المحور الرابع 39
عقد الله مقارنة بين أتباع الحق المهتدين ، وأتباع الظن الضالين بشركهم 39
المحور الخامس 52
حفظ الله للقرآن ، ومذاهب الكفار في التعامل معه 52
المحور السادس 59
سرعة انقضاء الدنيا وكأنها ساعة من نهار ، هو ما كان يستعجله الظالمون 59
المحور السابع 68
بيان وظيفة القرآن ، وفرح أولياء الله به 68
، وتعاسة المفترين علي الله الكذب 68
المحور الثامن 83
المنهج الدعوي لأهل الولاية في تحرير الناس من عبادة غير الله وإنجاء المؤمنين 83
المقطع الأول 85
صبر نبي الله نوح على قومه لما كبر عليهم تذكيرهم بآيات الله 85
المقطع الثاني 89
تمهيد الطريق للدعوة بإبطال الأسحار وعمل المفسدين 89
(في قصة موسى وفرعون) 89
المقطع الثالث 96
الالتفاف الخبيث حول المؤمنين ثالث أولويات الدعوة 96
(تابع المرحلة التأسيسة لدعوة نبي الله موسى) 96
المقطع الرابع 104
المنهج الحركي للدعوة 104
(تابع قصة موسى وفرعون) 104
المقطع الخامس 107
التثبت من الأحكام قبل تطبيقها من ثمار المنهج الحركي 107
المقطع السادس 111
إيكال أمر إيمان الناس إلى الله ، والتسليم لحكم الله فيهم إما يعذبهم أو ينجيهم 111
(والاستشهاد بقصة قوم يونس) 111
خاتمة سورة يونس 118

وصايا إلهيه للنبي ﷺ 118